العلامة السيد محمد تقي المدرسي



العلامة السيد محمد تقي المدرسي



منطلقاته وأهدافه

الكتاب : المجتمع الاسلامي منطلقاته واهدافه

الناشر : مكتب العلامة المدرسي

المؤلف : العلامة السيد محمد تقي المدرسي

الطبعة : الخامسة

عدد النسخ : ٨٠٠٠

الثمن : ١٠٠٠ ريال

مقدمة الطبعة الخامسة



« والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه ، والذي خبث لا يخرج إلّا نكداً » .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير الخلق محمد وعلى آله المعصومين وأصحابه المنتجبين .

كما التربة الصالحة تنبت الزرع المبارك ، كذلك المجتمع الطيب ينمي المواهب الخيرة ، ويربّي السعي ويُعين الانسان على التقدم .

بينما المجتمع الخبيث لا يخرج نباته إلّا نكداً ، لانه يميت القلب ، ويقتل الموهبة ، ويحدد النشاط ، ويحرف السعي على أهدافه النبيلة .

وصلاح المجتمع بمكارم الاخلاق التي تطهر علاقات الناس ببعضهم وتوجهها الى الخير والفضيلة . وحين جعل الرسول (ص) هدف بعثته تأديب الناس بالآداب الرفيعة « انما بُعثت لاتمم مكارم الاخلاق » ، فقد حدد معالم رسالته بوضوح . أوَ ليس المجتمع الاسلامي المتنامي والمبارك يكون بذاته وسيلة لانتشار الاسلام ، بما فيه من قوة واقتدار ، واستقامة واعتدال ، وتقدم وازدهار .

واليوم حيث تعيش الامة الاسلامية نهضة شاملة ويتصدى الرساليون لقيادتها نحو تطلعاتها النبيلة ، نتوجه إلى سيرة الرسول من جديد لنزداد علماً بسر نجاحه ، فلا نجد مثل الخُلق العظيم الذي تحلّى به وفاض على المجتمع الفاضل الذي بناه بيديه الكريمتين . أفلا يكفينا ذلك هدى في مسيرتنا الرسالية ، فلنشرع في تزكية نفوسنا من كبرها وأحقادها ، وتطهير قلوبنا من إصرها واغلالها لنبني بعدئذ مجتمعاً فاضلاً حتى في

حدود تجمعنا الرسالي المحدود ، مجتمعاً يتميز بالجدية البالغة والسعي الحثيث والتعاون الشامل ، والنمو المتكامل . ولولا الالتزام الشديد بالآداب الاسلامية في علاقاتنا مع بعضنا لا نحظى بهذا الهدف النبيل .

وهذا الكتاب الذي بين يديك محاولة متواضعة في طريق توضيح مبادىء المجتمع الاسلامي ، وبيان خصائصه ، ولقد كان في الاصل مجموعة أحاديث القيت خلال شهر رمضان المبارك ثم اعيدت صياغتها وخرجت في صورة كتاب طبع حتى الآن أربع مرات وقد قام سماحة الشيخ حيدر الرضوي باعادة النظر فيه ، وتحرير بعض فصوله من جديد واسناد أحاديثه مما جعله أفضل من طبعاته السابقة .

نسأل الله التوفيق والمزيد من الفائدة إنّه قريب مجيب .

محمد تقي المدرسي

٢٠ / ربيع الأول / ١٤٠٨ هـ

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى . والحمد لله الذي ألزم المؤمنين كلمة التقوى . والحمد لله الذي أرسل محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

والصلاة والسلام على المبعوث بالرحمة ، محمد وعلى آله الهداة ، واصحابه المنتجبين ، وعلى من إتّبعهم باحسان الى يوم الدين .

تلك كانت سلسلة محاضرات ألقيتها في السنة الماضية . خلال وبعيد شهر الله المبارك . وقد قام الأخوة الكرام بعدئذ بجهد مشكور في كتابتها وتهيئتها للطباعة .

أما القضايا الأجتماعية التي تتحدث عنها المحاضرات فهي ليست مجرد بيان لأحكام الدين في المجتمع ، كما أنها ليست بحوثا معمقة في المشكلة الاجتماعية . بل تتخذ بين ذلك سبيلا وسطا . حيث سعيها نحو تحقيق ثلا ثة اهداف في الاسلوب :

(١) ان يكون مفهوما لأكثرية قرائنا الكرام .

(٢) أن يحتوي على بيان موجز لحكمة الشرائع الاسلامية في قضايا المجتمع .

(٣) أن يعالج ـــ عن كثب ـــ أهم المشاكل التي تعاني منها أمتنا اليوم . وتستنبط الحلول الكافية لها من التعاليم الاسلامية .

وإنّي اذ أقدم هذا الكتاب الى الأخوة المؤمنين ، ارجو من زملائي اصحاب الفكر والقلم أن يجتهدوا اليوم في بلورة وصياغة الأفكار الاسلامية حسب حاجات الشعوب الاسلامية الناهضة .

ولا يتجاهلوا القضايا الاجتماعية في زحمة الاحداث السياسية الصاخبة .. لأن البنية الأجتماعية هي خلفية الظواهر السياسية ، والأقتصادية .

واسأل الرحمن ان يرزقنا البصيرة في الدين ، والعزيمة في العمل ، والتقوى في المنهج ، لنصر في كل معاركنا الحضارية .. أنه مجيب الدعوات .

طهران ـــ محمد تقي المدرسي

ذو القعدة / ١٤٠٢ هـ

الفصل الأول



العالم يبحث عن النجاة

لماذا جاءت الرسالات الألهية وما هي اهدافها الحقيقية ؟

سؤلان خالدان خلود الرسالات، وهامان اهميتها، وخطيران بالنسبة الى حياة البشرية خصوصا في هذا العصر، حيث طغت المادية وأخذت تهدد العالم كله بالفناء ، في الوقت الذي أخذت البشرية تتطلع الى الخلاص بصورة اكثر جديّة ، لانه بقدر عظمة وخطورة المشاكل التي تحيط بها ، سيكون مدى تطلّعها نحو الخلاص منها .

فالاخطار المحدقة بالبشرية كبيرة جدا ، سواء تلك التي تتجسد في الحروب ، او الاستغلال والاستعباد ، او في الرعب النووي الذي يخيم على البشرية جميعاً ، وهذا مايدفع البشرية للبحث عن الخلاص أكثر فأكثر .

الخلاص في رسالات الله :

إن الرسالات الألهية التي يجب أن تفهم من جديد وليس أن نجعلها جزءاً من واقعنا المتخلف ، ونفسّرها حسب أفكارنا التبريرية ونظراتنا التقليدية لها ، وهذا هو الطريق الأوحد لخلاص البشرية مما يحدق بها من مشاكل وأخطار.

ذلك أن الرسالات الألهية والتي تتجسد اليوم برسالة الأسلام ، قادرة على أن تخلق الواقع السليم في بعدين : الأول ، في ذات الأنسان كفرد . والثاني ، في كيان الأنسان كمجتمع .

ومع أن اكثر من نظر الى الأسلام والرسالات الألهية الأخرى وفسّرها ، حاول أن يحمّلها فكرة أن الرسالات أنما تهتم بواقع الفرد كفرد دون أن تعير أي أهمية لواقع الفرد كوحدة يشكل مع الآخرين مجتمعاً قائماً له أهدافه وتطلعاته في الحياة ، الا اننا نعتقد أن الأولوية الأستراتيجية للدين ، أنما هي لخلق المجتمع الأنساني الصالح ، وليس فقط لأصلاح الأنسان كفرد .

وما ذلك التفسير الخاطىء للدين الآ لفصله عن الحياة وجعله تجربة فردية بين الأنسان وربه ، دون أن يكون له أدنى تأثير على سلوك الفرد في المجتمع سواءً مع نفسه أو مع الآخرين .

ان القرآن الحكيم لايخاطب الناس كأفراد ، وإنما يخاطبهم كمجموع الآ في آيات قليلة ولأسباب بلاغية ، فأغلب آيات القرآن التي تخاطب الناس تخاطبهم كمجموع :

« يا أيها الناس ... »

« يا أيها الذين آمنوا ... »

« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات »

« ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون ... الفاسقون ... الظالمون ... » .

لذلك وانطلاقا من هذا المبدأ فسوف ابدأ حديثي عن البعد الثاني ، وهو اهتمام الدين بالمجتمع . وقبل ذلك لابد ان نلقي نظرة عابرة على معنى كلمة الحياة ذاتها .

ماهي الحياة ؟

يصف القرآن الحكيم رسالات الله بأنها حياة :

« أستجيبوا لله والرسول اذا دعاكم لما يحييكم »

(٢٤/الانفال)

اي استجيبوا لما يعطيكم الحياة .

والحياة هي القوة الكامنة في الشيء تعطيه القدرة على اكتساب الاشياء الاخرى واذابتها في بوتقة واحدة في اتجاه معين .

فالبذرة الحية مثلاً تختلف عن البذرة الميتة . ووجه الأختلاف بينهما هو ان البذرة الحية حينما توفر لها فرصة النمو فأذا بها تستمد من اشعة الشمس ومن املاح الارض المواد المفيدة لها وتحولها كلها في تركيبة واحدة ، وتوجهها باتجاه واجد وهو النمو، فتتحول تلك البذرة الصغيرة الى شجرة كبيرة متكاملة اما البذرة الميتة فأنها سرعان ماتتحلل لتمتصها المواد المحيطة بها .

وهكذا الفرق بين النطفة الحية والنطفة الميتة . فالنطفة الميتة تتحول بعد مدة قصيرة الى لاشيء ، بينما النطفة الحية ، تتحول بعد تسعة اشهر الى طفل و بعد عدة سنين تراه قد اصبح رجلاً سو يا .

ما هو المجتمع الحي ؟

نأتي الى معنى الحياة في المجتمع فنتساءل ، ماهو المجتمع الحي ؟ وما هو المجتمع الميت ؟

ان الاجابة على هذا السؤال ، كفيلة بتوضيح قضايا كثيرة في المجتمع البشري ، ومن ابرزها الحركات والثورات التي تشكل ظاهرة متميزة في تاريخ الانسانية .

ان المجتمع الحي هو تماماً كتلك البذرة الحية التي أشرنا اليها ، فهو يملك القدرة على ان يمتص من حوله الامكانات المادية والبشرية و يذو بّها كلها في بوتقة واحدة ، و يعطيها التفاعل و يوجهها من أجل بناء الحضارة الانسانية التي تسير أبدا في أتجاه النمو والتكامل .

بينما المجتمع الميت مثله مثل البذرة الميتة ، يفتقد الى خاصية الامتصاص والتفاعل والنمو، و بالتالي سرعان ما يتفسخ و يتفتت ومن ثم يتلاشى .

ان مجتمع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مثلاً لم يكن عدد افراده في مكة المكرمة قبل الهجرة النبو ية يزيد عن مائتي انسان مستضعف ، ولكنه بعد اقل من ر بع قرن ، استطاع ان يُحوّل المجتمعات الكثيرة المتواجدة في الجزيرة العر بية ، الى مجتمع مسلم واحد ، و يذوّ بها في هدفه .

واذا نظرت الى خريطة العالم ، لوجدت ان المسلمين و بعد قرن ونيّف من البعثة النبوية ، طرقوا غربا ابواب اوربا عن طريق شمال افريقيا ، وعبروا شرقا نهر السين ، واقتحموا الشرق الاقصى في آسيا . وقد استطاعوا ان يذوّبوا كل المجتمعات والحضارات التي كانت موجودة في هذه البقعة الشاسعة من الارض ، و يصبغوها بالصبغة الاسلامية ، ويخلقوا منها الامة الاسلامية الكبيرة ، وهذا هو المجتمع الحي .

ومثل آخر هو المجتمع الاوربي ، فأوروبا بالنسبة الى العالم صغيرة المساحة ، وفقيرة من ناحية الامكانات الطبيعية ، ولكن هذا المجتمع الحيوي استطاع ان ينشر حضارته وفكره على العالم كله و يوجهه باتجاهه الخاص .

فترى مثلا أن ألف مليون شخص صيني وهندي ومئات الملايين من الناس من افريقيا وامريكا اللاتينية واستراليا ، كان يوجهّهم اربعون مليون فقط ، هم سكان جزيرة صغيرة تسمى بريطانيا . ويجب هنا ان ننبّه على وجود فارق كبير بين هذين المثالين ، فالمثال الاسلامي كانت صبغته الحق والعدل والتوافق مع السنن الطبيعية والبشرية ، بينما المثال الاوربي على العكس من ذلك تماما . ووجه الشبه بينهما هو في الحيوية والفاعلية فقط .

واما المثال على المجتمع الميت ، فهو الامة الاسلامية اليوم ، والتي انقسمت الى دول انطوت كل واحدة منها على نفسها وتجمّدت داخل حدودها ، مما ادّى بهذا المجتمع ذي الأمجاد التأريخية العظيمة الى ان يفقد شخصيته الاسلامية ، و يضعف و يتفسخ من الداخل ، و يصبح نهزة الطامعين ومذقة الشاربين ، وأن تتعرض ثرواته وخيراته للنهب ، وكرامته للسحق ، وليصبح اليوم مجتمعا متخلفا يخضع لسيطرة القوى الاجنبية العظمى توجهه كيف شاءت ، وتتلاعب بمقدراته أنّى يحلو لها .

وفي القرآن آية تصف لنا المجتمع الحيوي المؤمن فتقول :

« محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ، ومثلهم في الانجيل ، كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يُعْجِبُ الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً »
(٢٩/ الفتح)

ونلاحظ ان القرآن يذكّرنا هنا بهذه الحقيقة بوضوح فيقول :

« كزرع اخرج شطأه »

من البداية تزرع البذرة الحية في باطن الارض ، و بعد فترة تتحول الى زرع يرتفع فوق سطح الارض

« أخرج شطأه فآزره »

أى أوضع له الزارع عصا قائمة تسنده ، فاذا بهذا الشطء يستمد الضوء والماء والاملاح من البيئة المحيطة ، فيقوى .

« فاستغلظ فاستوى على سوقه »

اي وقف على ساقه مستقلا .

« يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار »

فالصديق معجب والعدو مغتاظ وحاقد .

ان المجتمع الحي هو ذلك المجتمع الذي تكون علاقات ابنائه ببعضه قائمة على اساس القيم السليمة ، والعمل الصالح ، فالعلاقات هي أهم شيء في تكوين المجتمع .

أمّا المجتمع الذي تكون علاقاته قائمة على اساس العنصرية ، والأعتبارات العشائرية ، والمصالح المادية ، والاقليمية ، يكون كالجسد الميت الذي لا تلبث البكتريا والميكروبات الموجوده فيه ان تحلله وتفسخه وتحوله في مدة قصيرة الى تراب وعظام نخرة .

وأول سؤال نطرحه على انفسنا ، ماهي صفة العلاقات الايمانية بين أبناء المجتمع المسلم ؟

ونترك الاجابة على هذا السؤال الى الفصول القادمة .

العلاقة بين الفرد والمجتمع

هناك ثلاث نظريات فيما يخص العلاقة بين الفرد والمجتمع :ـ

النظرية الأولى :

تقول ان الفرد هو كل شيء في المجتمع ، وهو العامل الحاسم في تحريك التاريخ ، ولذلك ينبغي الاهتمام بالمجتمع من حيث هو أفراد ، وسن المناهج والانظمة التي تربّي أفراداً متفوقين ونابغين ، يبنون الحضارة البشرية و يهبون التقدم للانسانية .

وتنطلق هذه النظرية من واقع العظماء الذين أستطاعوا أن يغيروا مسيرة التاريخ ، و يرسموا خريطة جديدة لحياة مجتمعاتهم .

النظرية الثانية :

تقول ان الفرد لا قيمة له اطلاقا فهو أشبه مايكون ببرغي صغير في ماكنة المجتمع . وهذه النظرية تتمسك بالحتميات الاجتماعية ، وترى بأن حركة المجتمعات وتطوراتها نابعة من أنظمة عامة يخضع الافراد لسلطانها ، فلا يملكون ان يواجهوها أو يغيّروا منها شيئا اذا ما رأوا أنها تقودهم في الاتجاه الخاطىء . ولذلك فهذه النظرية تؤمن بفكرة الدورات الاجتماعية المنتظمة ، أي ان كل مجتمع لابد ان يمرّ بنفس المراحل التي يمر بها الانسان

في حياته . حيث يولد طفلا رضيعا ثم يصبح شابا مراهقا ، فرجلا ، فكهلا ، فشيخا ، فهرما ، ثم يموت . والأمثلة التاريخية على ذلك كثيرة ومتنوعة يعددّها أرنولد تو ينبي في كتابه « مختصر دراسة للتاريخ » .

النظرية الثالثة :

والتي يؤيدها الاسلام وتقوم أنظمته وشرائعه عليها ، فهي تقف في الوسط بين النظريتين السابقتين . فتعطي للفرد أهميته اللائقة ، كما تعطي للمجتمع دوره المؤثر ، وتنظم العلاقات بينهما بشكل دقيق ومتوازن .. فالمجتمع يؤثر في الفرد والفرد بدوره يؤثر في المجتمع ؛ انها لا تسلب الفرد ارادته ، ولا تحرم المجتمع من تلك القوانين والانظمة الديناميكية التي تعطيه الوقود المناسب في مسيرته الحضارية التكاملية . وعلى هذا فهي لا تنفي تينك النظريتين ، وانما تربط بينهما بشكل تزول معه الهوة الفاصلة بين الفرد المجتمع ، وتجعل الا ثنين يتفاعلان مع بعضهما لما فيه خير الانسانية وسعادتها .

كذلك فهي ترى ان الدورة الاجتماعية المنتظمة ليست حتمية أبدا . ففي التاريخ الحديث مثلا نجد ان المجتمع الألماني كان مجتمعاً حيو ياً يتفجر ثورة واندفاعا وكان باستطاعته ان يبقى زمنا طو يلا متحكما في القارة الأ ور بية ولكن هذا المجتمع الفتي ابتلى بطاغوت أهوج (هتلر) ، و بحزب متطرف (الحزب النازي) ، فانقاد الى النهاية المحتومة . وأنك ترى الآن و بعد أكثر من خمسة وثلا ثين عاما من أنتهاء الحرب العالمية الثانية ، ان المانيا مازالت منقسمة على نفسها الى قسمين أحدهما تحت مظلة المعسكر الشرقي والآخر تحت مظلة المعسكر الغر بي .

وهكذا فالمجتمعات قد تموت في أيام شبابها ، وقد يشيخ المجتمع و يهرم و يشرف على الموت ، ولكن لايلبث ان ينبعث في داخله مصلح يفجّر امكاناته الذاتية المختزنة فيتحدى المجتمع بارادة ابناءه تيار الانحدار ، و يتقدم مرة أخرى حتى يثبت نفسه ، كما حدث بالنسبة للمجتمع العر بي الجاهلي الذي كان مشرفا على التفسخ والاندثار ، ولكن بمجيء النبي محمد (ص) وظهور الاسلام ، دبّت فيه الروح ، واذا بالعرب يصبحون في

فترة وجيزة سادة العالم و بناة الحضارة .

ديناميكية المجتمع :

ان بنـاء المجتمع على أساس القيم الصحيحة ، والعمل الصالح يعيطه ديناميكية في الاتجاه الصحيح ، وعكس ذلك صحيح أيضا . ولكي نوضح الفكرة ، دعنا نضرب مثالاً على ذلك : اذا حفرت نهراً يمتد من ينابيع المياه ويجري عبر الاراضي الصالحة للزراعة ، فسوف يروي هذا النهر آلاف الهكتارات من الاراضي المزروعة و يصبح سلة خبز لأولئك الذين يعيشون حول هذه المنطقة . أما اذا حفرت ذات النهر عبر أراضي سبخة فانه لن ينفع شيئا وستذهب مياهه هدرا .

ان هذه واحدة من السنن الطبيعية التي تنطبق أيضا على المجتمع البشري ، فالمجتمع مثل النهر يمتلك طاقة هائلة اذا ما وجهت في الاتجاه السليم وحفرت لها قنوات ملائمة ، تحركت هذه الطاقة عبر القنوات وأعطت ثمارا طيّبة ، ولكن اذا كانت هذه القنوات غير سليمة ومتناقضة الاتجاهات فان المجتمع سرعان ما يتحطم ويموت .

مثلا ، اذا أقمنا بناء المجتمع على العنصرية ، فان طاقاته ستتوجه عبر هذه القناة الرديئة ، فيفرض الرجل الابيض سيطرته على الرجل الأسود في جنوب أفريقيا وتكون النتيجة ان بضع مئات من الألوف من البيض يتحكمون في عدة ملايين من المواطنين السود ، وهذا يعني فيما يعني ان الرجل الابيض يعمل ساعتين في اليوم فيستطيع ان يضمن لنفسه بهما حياة مرفهة ، بينما الأسود يعمل أربع عشرة ساعة يوميا حتى يحصل على أجر قليل لايكفيه . فالاول عنده ست ساعات من الفراغ ، والثاني يرهق بست ساعات من العمل الأضافي ، و بعد فترة يموت الأ بيض من الترف والفراغ ويموت الأسود من الجوع والتعب ، و ينتهي المجتمع شر نهاية وهذه واحدة من السنن الأجتماعية .

والمجتمع البشري له قوانين وأنظمة ذاتية كثيرة نسمّيها بديناميكية المجتمع وسوف نستعرض هنا جملة منها بشكل موجز من خلال عهد الامام علي بن أبي طالب عليه السلام ، لمالك الأشتر لمّا ولاّه مصر، يرسم لنا فيه الديناميكية الاجتماعية والقوانين

التي تتحكم في المجتمع .

يقول عليه السلام :

« وأعلم أنّ الرعيّة طبقات لا يصلح بعضها الا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض . فمنها : جنود الله ، ومنها : كتّاب العامّة والخاصّة ، ومنها : قضاة العدل ، ومنها : عمّال الإنصاف والرّفق ، ومنها : أهل الجزية والخراج من أهل الذّمة ومسلمة الناس ، ومنها : التجّار وأهل الصناعات ، ومنها : الطبقة السّفلى من ذوي الحاجة والمسكنة ، وكلٌّ قد سمّى الله له سهمه ــ نصيبه من الحق ــ ووضع على حدّه فريضة في كتابه ، أو سُنّة نبيّه (ص) عهداً منه عندنا محفوظا .

فالجنود باذن الله : حصون الرعية ، وزين الولاة ، وعزّ الدين ، وسبل الأمن ، وليس تقوم الرعية الا بهم .

ثم لا قوام للجنود الا بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقوون به على جهاد عدوهم ، و يعتمدون عليه فيما يصلحهم ، و يكون من وراء حاجتهم .

ثم لا قوام لهذين الصنفين الا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتّاب ، لما يُحكمون من المعاقد ــ يقومون بتنظيم العقود ــ ويجمعون من المنافع ، و يؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامّها .

ولا قوام لهم جميعا الا بالتجّار وذوي الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم ــ المنافع التي يجتمعون من أجلها ــ ، و يقيمونه من أسواقهم و يكفونهم من الترفّق ــ التكسّب ــ بأيديهم ما لا يبلغه رفق غيرهم .

ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة يحق رِفدهم ــ مساعدتهم وصلتهم ــ ومعونتهم . وفي الله لكلٍّ سعة ، ولكلٍّ على الوالي حق بقدر ما يصلحه »

ويمكننا ان نستخلص من هذه القطعة من عهد الامام علي (ع) بعض القوانين الاجتماعية للأمة .

(١) قانون التفاضل بالسعي :

أي ان المجتمع يتألف من طبقات تقوم أولاً على أسس سليمة وهي العلم والخبرة

والكفاءة والقدرة البدنية .. الخ .

ثانيا : لايوجد بينها أستعلاء ولا تفاخر. فأفراد المجتمع متساوون في الانسانية ، وسواسية أمام القانون القضائي ، وهذه غير الطبقية البغيضة التي تقوم على أساس العنصر والدم ، أو الثروة والمال ، أو المنصب ، والمركز الاجتماعي أو على أسس عشائرية وطائفية وعائلية وما أشبه .

(٢) قانون التعاون :

وهذه الطبقات التي تشكل جسم المجتمع غير منغلقة على ذاتها ، بل تنفتح على بعضها بالتعاون المثمر البنّاء ، فيكمل بعضها بعضا ، فلا غنى لواحدة عن الآخرى ، كما ان علاقاتها مبنية على أسس المحبة والاحترام المتبادل .

(٣) قانون العدالة :

وهذه أهم ركيزة يقوم عليها المجتمع الحيوي السليم ، و ينبغي ان تكون العدالة شاملة للجميع حاكماً ومحكوماً ، غنياً وفقيراً ، قوياً وضعيفاً .. حتى تؤتي ثمارها ، وفقدان العدالة له تأثير هدّام مزدوج . فمن ناحية يؤدي الى التجرؤ على أكل حقوق الآخرين ، والاعتداء عليهم . ومن ناحية أخرى يؤدي الى تثبيط همم العاملين المنتجين من زرّاع وتجّار وجنود وكتّاب ومفكّرين .. بسبب قلقهم من احتمال أغتصاب وسرقة الآخرين لجهودهم .

(٤)قانون المحافظة على المجتمع :

لكي يحافظ المجتمع على نفسه من الاعتداء الخارجي أو الاضطراب والتفسخ الداخلي ، فلابد له من عدّة ركائز هامة تشكل أساس البناء الاجتماعي :

أولا : القوة العسكرية : جيش ، وأسلحة ، وتدريب ، وتنظيم .. الخ

ثانيا : القوة الأقتصادية : زراعة ، وصناعة ، وتجارة ، وحرف ومهن .. الخ

ثالثا : القوة القضائية : قضاة ، وحكام شرع ، وكتاب .. الخ .

رابعا : القوة الادارية والتنفيذية : وهي جهاز الحكومة بما فيه من وزراء وموظفين ، وأداريين .

خامسا : القائد الأعلى أو الرئيس : وهو الذي يجمع كل هذه الخيوط بيده و يكون خاضعاً للقيادة التي تتمثل في النبي (ص) أو الامام المعصوم أو الولي الفقيه وهم الامناء على شريعة الله في الأرض .

(٥) قانون التكافل والضمان الاجتماعي :

أي ان الفقراء والمساكين وذوي الحاجة ممن قعدت بهم كارثة تعرضوا لها ، أو مرض ألم بهم ، أو شيخوخة اصابتهم ، تنشأ لأجل هؤلاء جميعا مؤسسات خاصة تقوم برعايتهم وهم من يسميهم الامام بعمال الرفق والانصاف . وهذا القانون يجلب الاطمئنان للفرد فيما يخص مستقبله ، و بالتالي يؤدي الى زيادة انتاجه ، اضافة الى اشاعة روح التراحم بين أفراد المجتمع .

(٦) قانون اعطاء المجتمع حق العيش بكرامة :

فترى ان أهل الذمة من اليهود ، والمسيحيين وغيرهم يعيشون بين المسلمين ولهم حق العمل والاقامة والتوظف والتنقل .. الخ ، في مقابل ان يدفعوا الجزية التي تقوم مقام الخمس والزكاة بالنسبة للمسلمين .

صبغة المجتمع الأسلامي :

أما الصبغة العامة للمجتمع الاسلامي الصحيح فهي التقوى عقيدة وسلوكاً ، و يشير

الى ذلك حديث الامام علي عليه السلام في عهده لمحمد بن ابي بكر حين قلّده مصر :

« وأعلموا عباد الله أن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة . فشاركوا أهل الدّنيا في دنياهم ، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم ، سكنوا الدنيا بأفضل ما سُكنت ، وأكلوها بأفضل ما أُكلت ، فحظوا من الدّنيا بما حظي به المترفون ، وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة والمتكبّرون ، ثمّ انقلبوا عنها بالزاد المبلّغ والمتجر الرابح » .

وكما هو واضح من السياق ، فأن التقوى المقصودة هنا ليست التقوى الفردية ، بل هي تلك التي تأخذ الطابع الجماعي ، أي تصبح خصيصة من خصائص المجتمع يمتاز و يعرف بها .

وهذا الحديث يبين حكمة مهمة في الحياة الاجتماعية الاسلامية . وهي أن المسلمين ليسوا هم أولئك الذين تعلقوا بالآخرة فقط وتركوا الدنيا وشئونها وراء ظهورهم ، وليسوا هم أولئك الضعفاء الفقراء الزاهدين في متاع الدنيا المعتزلين لأمور الحكم والسياسة والجيش ، ولا يؤمنون بالعلوم والتكنولوجيا الحديثة . ان هذه أفكار رجعية دسّها الأجانب الحاقدون في صفوفنا وحاولوا بها اضعاف المسلمين من جهة ، وتشو يه وجه الاسلام المشرق من جهة ثانية .

أن المجتمع الاسلامي هو مجتمع القوة والسيطرة والثراء ، والتقدم في كافة المجالات العلمية والتكنلوجية . وهو مجتمع يبني حضارة متكاملة بكل أبعادها غاية ما في الأمر أنه بمبادىء محدّدة في تعامله مع شؤون الحياة ومع المجتمعات الأخرى ، تقوم على أساس الحلال والحرام الذي تقرره الشريعة الاسلامية وعلى أساس القيم والأخلاق الفاضلة .

بصائر الأسلام في العمل

الانسـان مـفـطور على الـنشاط والعمل وهو لايحب الفراغ والبطالة ، ولذلك نجد ان الانـظـمـة الـدكـتـاتـورية تستخدم التعذيب بالفراغ كأشد أنواع التعذيب ، فتسجن الثوار المـنـاضـلين في زنـزانـات انـفـرادية ، وتحرمهم من أي نوع من العمل حتى القراءة وسماع الراديو والتحدث مع الآخرين .

وكـذلـك نـجـد الـطفل لايكف أبداً عن اللعب والحركة وممارسة حيويته ونشاطه في كـل شيء ، واذا مـنع من ذلك بأي اسلوب فانه سرعان ما تسوء حالته الصحية ، هذا من الـنـاحـيـة الـنـفـسـيـة ، أمّـا من الناحية البدنية فان اكثر اعضاء الانسان في حالة حركة ونـشـاط ، حـتـى عـنـدما يكون مسترخيا أو نائماً ، يكون عقله في حالة تخزين للمعلومات وتبويبها وربطها مع بعضها البعض .

انـهـا طـبـيـعة الانسان ، فهو كأي كائن حي آخر ، مبتن على اساس النشاط ومجبول على التحرك والنشاط .

والانـسـان مـفـطور على الطموح ، وبذلك يتميز عن سائر الاحياء . فهو لا يكتفي بما يحصل عليه ، وانما يريد المزيد دائماً .

ان الطموح قوة داخلية دافعة لا تقف بالمرء عند حد البحث عن الأكل والشرب فقط ولـو كـان كـذلـك لاستـغـنـى عـن بـذل الجهود الجبارة لبناء تلك الحضارات الكبيرة في التاريخ ، لان اكله وشربه مضمون بأدنى جهد كما هو بالنسبة لأي حيوان .

أن الانسان يبحث عن الملك والخلود ، ولذلك حينما أراد ابليس اللعين ان يغوي أبانا

آدم وأمنا حواء عليهما السلام قال لهما :

« هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى »

(١٢٠/طه)

اذا فالعمل ــ الذي هو نتيجة الطموح ــ هو من طبيعة الانسان ، ولكن المشكلة التي تعاني منها البشرية على مر الزمن هي في أمرين .

الأول : الفساد والانحراف في الطموح ، حيث يصبح الطموح طريقاً للتردي والعاقبة السؤى . ولذلك نجد حين نستعرض آيات القرآن الحكيم انّ اغلب الآيات التي تتحدث عن العمل لا تتحدث عن العمل باعتباره ضرورة فهو قضية مفروغ منها ، وانما تدعو الى صلاح العمل ، لتوجيهه في وجهة التعاون . ونادراً ما نجد آية تذكر العمل مجرداً كقوله تعالى :

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »

(١٥٠/التوبة)

اما أغلب الآيات التي تدعو الى العمل فأنها تدعو الى صلاحه . يقول تعالى :

« ان الانسان لفي خسر الاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا ، بالحق وتواصوا بالصبر »

(سورة العصر)

«من عمِلَ صالحاً من ذكر أو انثى و هو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة»

(٩٧ / النحل

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا »

(١١٠/الكهف)

وهكذا يعالج القرآن مسألة الطموح عند الانسان فيرفعه عن الاقتصار على البعد الدنيوي ، و يوجهه باتجاه الآخرة .

« يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه »

(٦/الانشقاق)

« إنّا الى ربنا راغبون »

(٣٢/القلم)

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّا في الارض ولا فسادا »

(٨٣/القصص)

الثاني : هناك مشكلة مهمة اخرى عانت منها المجتمعات البشرية على طول التاريخ ، وهي وجود الاغلال الكثيرة امام العمل والحركة الهادفة ، فبالرغم من ان الانسان مفطور على العمل والنشاط وان هناك وقودا يحركه في هذا الاتجاه وهو الطموح ، فان الاغلال الاجتماعية والتي تتحول الى اغلال نفسية وفكرية تجمّده وتعرقل حركته . ولقد جاءت رسالات السماء من أجل فك هذه الاغلال التي تعيق سير البشر باتجاه التقدم والبناء ، يقول القرآن الحكيم :

« و يضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم »

(١٥٧/الاعراف)

وعندما نتأمل الآيات القرآنية والاحاديث الشريفة نجد كثيراً من الآيات والنصوص تسعى من أجل تحطيم الاغلال بكافة اشكالها :

١ ــ الخشية من السلطة أو أصحاب القوة التي تؤدي الى سيطرة الدكتاتورية ، أو تستقدم قوات الاحتلال الطامعة . ولذلك يقول القرآن مخاطباً المؤمنين :

« فلا تخشوهم واخشون »

(٣/المائدة)

و يقول :

« اتخشونهم فالله احق ان تخشوه »

(١٣/التوبة)

وهكذا فهو يهدف إلى ازالة خشية العباد التي تقيد البشر وتكبله ، و يبقي على خشية الخالق التي تدفعه من أجل الجد والعمل .

٢ ــ الخوف من الاخطار المستقبلية والحزن على الخسائر مما يحطم معنويات الانسان ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى عنها :

« ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

(١٣/الاحقاف)

و يقول تعالى :

« إن تكونوا تألمون فأنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون »

(١٠٤/النساء)

دعنا نتصور عندما يتحرر الانسان من كابوس الحزن والخوف كيف يكون اندفاعه في الحياة عظيماً .

٣ ــ تأثير الانباء الكاذبة والافكار الخاطئة التي يقول القرآن عنها :

« يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا »

(٦/الحجرات)

اي لا تصدقوا كل الاخبار التي تسمعونها ما لم تتأكدوا يقينا من صحتها ، كذلك لا تأخذوا الثقافة والافكار من اي شخص وانما من المؤمنين المخلصين فقط .

« لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين »

(٢٨/آل عمران)

فبدل أن نقرأ كتب الماركسيين والماديين الغربيين ، دعنا نقرأ كتب علماء الاسلام المجاهدين الذي ينقلون لنا الثقافة الاسلامية من معينها الصافي .

٤ ــ الاستحياء من الحق الذي هو غل اجتماعي ثقيل يكبل طاقات الافراد ، ويمنعهم من اداء كثير من الاعمال الضرورية أو المفيدة . فعندما يريد شخص ان يقدم على عمل بنّاء ، فانه يحسب الف حساب لكلام الناس عنه ونظراتهم اليه ، فاذا ما أحس أنهم سيسخرون منه و يعيبون عليه وان كان عن جهل منهم ، فأنه يحجم عن العمل . والقرآن ينسف الخضوع لهذا الضغط حيث يقول :

« والله لايستحي من الحق »

(٥٣/الاحزاب)

فاذا كان الله كذلك فكيف انت يا عبد الله ؟ اذن لاتحسب لكلام الناس حسبانا ، واقدم على العمل مادمت تراه مفيدا وفي طريق الحق .

و يقول سبحانه واصفاً المجاهدين :

« يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم »

(٥٤/المائدة)

في كل المجالات : في الخطابة وتأليف الكتب بالنسبة للمثقفين المبتدئين في هذا المجال .. في اداء بعض النشاطات اليدوية كالزراعة والبناء وغيرها مما يحتاجه المجتمع بشكل ماس في بعض الظروف ، بالنسبة لمن يملكون الوجاهات والمراكز .. في حمل السلاح ونصب المتاريس وحفر الخنادق والركض هنا وهناك في الحالات التي تتطلب مجهودا حربيا ، بالنسبة للعلماء وطلبة الدين المعممين وغيرهم ، وكذلك الحال بالنسبة للمرأة .

وغير ذلك كثير ، ولو درسنا سيرة نبينا محمد (ص) والأمام علي بن ابي طالب (ع) وسائر الائمة والاصحاب الاجلاء ، لرأينا انهم لم يكونوا ليستنكفوا من اداء اي عمل يكون فيه خير للمجتمع مهما كان صغيراً .

٥ ـ اليأس والقنوط ، عندما يرتكب الانسان ذنوبا كبيرة وكثيرة في حق الله والناس ، أو عندما تكون الظروف صعبة ومعاكسة ، والضغوط شديدة فإن قنوطه من رحمة الله ، و يأسه من انفراج الامور وتحسّن الاحوال يدفعانه الى التقاعس والقعود عن العمل ، ولكن القرآن يرفع هذه العقبات و يفتح طريق من جديد بالأمل فيقول :

« قُل ياعبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إنّ الله يغفر الذنوب جميعا »

(٥٣/الزمر)

و يقول :

« فان مع العسر يسرا »

(٥/الانشراح)

وهكذا نرى ان الاسلام لا يقول للناس اعملوا وأنما فقط يقوم برفع الموانع والعقبات من طريقهم و يفك عنهم الأغلال فتتحرك طبيعتهم البشرية المحبة للعمل والنشاط واذا بهم يندفعون اندفاعاً شديداً بحيث يضطر الى ان يكبح قليلا من هذا الاندفاع محافظة عليهم من الأرهاق . يقول رسول الله (ص) :

« ان لبدنك عليك حقا » .

و يقول :

« روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فان القلوب اذا كلّت عميت »

ان رسالات السماء لا تحتاج ان تقول للانسان كيف يشق الذّرة و يستخرج الطاقة النوو ية ، فأن اكتشاف ذلك موكول الى الانسان بما اودع الله فيه من عقل وقدرة ، ولكنها تكتفي بتوجيهه الى الطريقة الصحيحة لاستخدامها . كذلك فهي لا تقوم بتعليم الانسان كيف يبني بيتاً ، وانما تحدّد له كيف يستفيد منه بعد بنائه .

زار علي بن ابي طالب (ع) يوما رجلا من اصحابه في بيته فوجد ان بيت ذلك الصحابي واسع وجميل ، فقال له ياهذا ما احوجك الى هذا البيت في الآخرة فتحمّس الرجل وقرر ان يبيع بيته و يعطي ثمنه للفقراء لكي يحصل على بديل له في الجنة ، ولكن الامام (ع) سرعان ما وجهه قائلا : اذا استقبلت الضيف في هذا البيت فانك قد اشتريت به الدار الآخرة ، واذا رفّهت فيه عن عيالك فإن ذلك ثواب الآخرة ، واذا اجتمع عندك فيه اصحابك على الخير فانك تحصل على افضل منه في الآخرة .

شرعية الأنتماء

لماذا يعطي الاسلام الحياة الاجتماعية شرعية مؤكدة ؟
ولماذا يحثّ الفرد على الانتماء الاجتماعي ؟
لعدة اسباب :

الاول : امكانية تطبيق الرسالة .

المجتمعات المتماسكة تجري فيها القيم وتطبّق فيها الشرائع والقوانين بسهولة و يسر، بينما المجتمعات المانعة والغير متماسكة ، من الصعب تطبيق القوانين والانظمة فيها ، ومن الصعب توفيق الافراد مع الخط العام للمجتمع .

فالمجتمع المتماسك هو المجتمع الذي يندفع فيه الفرد نحو تكييف نفسه مع الآخرين اندفاعاً ذاتياً ، ولا يجد صعوبة في تطبيق الانظمة على نفسه ، بل يندفع نحو التطبيق اندفاع السيل من علو، من دون صعوبة أو مقاومة وهو منذ الطفولة يتربى على ذلك .

وبما ان الاسلام رسالة الهية متكاملة ذات قيم وانظمة وذات واحكام وشرائع تفصيلية ، لذلك تجد ان هذا الدين لابد وان يؤكد على شرعية المجتمع لكي تطبق تلك القيم ، وتلك الشرائع في هذا المجتمع بسهولة و يسر.

وطالما انه يؤمن بوجوب اقامة الصلاة وايتاء الزكاة ، وأهمية الصدق والوفاء وضرورة الصلاح والخير، و يؤكد على ذلك .. فلا يمكنه ان يترك تطبيق هذه القيم والانظمة من دون ايجاد سبيل وضمان لذلك ومن ابرز تلك الضمانات ، ايجاد التماسك المتين داخل

المجتمع عن طريق اعطاء الشرعية للكيان الاجتماعي .

السبب الثاني : امكانية نشر الرسالة .

المجتمع الرسالي مجتمع صِداميّ .. لانّه يحمل رسالة الى العالم ، وحينما يحمل مجتمع ما مثل هذه الرسالة فأنّه سوف يصطدم حتما مع قوى كثيرة في طريق نشرها . والاسلام رسالة عالمية لا تريد ان تحصر نفسها في الجزيرة العربية أو في البلاد النامية فقط ، وانّما هي رسالة لكل أنسان . والى هذا يشير قوله تعالى : « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » .

ومادامت رسالة الأسلام عالمية ، لذلك لابد أن يستعد المجتمع الذي يؤمن بها للصدام . ذلك لانه عندما يصطدم هذا المجتمع بالعقبات ، فلابد أن يضحي من أجل ازالة تلك العقبات بالاموال والانفس . وعندما يستعد هذا المجتمع للتضحية فأن التضحية ستكون عادة وسنة فطرية لهذا المجتمع ، وسيكون هذا المجتمع معطاء ، يعطي من دماء ابنائه بسخاء في سبيل تطبيق الرسالة .

والمجتمع المتماسك من السهل عليه ان يعطي ضحايا من ابنائه لتطبيق قيمه لاعتبارين :

الاول : ان هذا المجتمع يؤمن بالقيم ايماناً شديداً ومن يؤمن بالقيم يضحي من أجلها .

الثاني : السبب السيكولوجي ، ولكي اوضح هذا السبب ، لابد ان اضرب مثالاً : الانسان الذي يملك أبناً واحداً ، فأنّه من الصعب عليه ان يقدمه شهيداً في سبيل الله لانّه لا يملك غيره . ولكن لو افترضنا ان رجلا يملك عشرين أو ثلا ثين ولداً ، فسيكون تقديم الشهداء بالنسبة له اكثر قبولاً لانّه سيفقد قسماً من أولاده ويحتفظ بالباقين ، وهذه طبيعة سكيلوجية .

وهكذا الانسان الذي يعيش داخل مجتمع متماسك ، ويحس بشدة الانتماء الاجتماعي ، سوف يحس شعورياً ونفسياً بأن كل أبناء المجتمع هم أبناؤه أو آباؤه أو اخوانه واخواته . لذلك لا فرق عنده بين ان يعطي من أولاده او أقاربه ، أو ان يضحي الآخرون في هذا السبيل بل من السهل عليه أن يضحي بنفسه لأنّه لا يحس لفرديته او

تميزه عن الآخرين ، انما يحس أنه جزء متفاعل مع كل افراد المجتمع . فاذا مضى في سبيل الله فانه سيكون وراءه من يتابع در به ويحقق أهدافه .

وهذا هو الشعور الذي كان يسود المقاتلين الاسلاميين الأوائل وهم يحاربون في كل الجبهات في اقاصي الارض حيث كان بعضهم يحارب في حدود السند ، والبعض الآخر في الاندلس ولكنهم جميعاً كانوا يشعرون بأنهم أمة واحدة اذا استشهد أحدهم ، فلا ضير لأن هناك الملايين ممن سيواصلون در به ويحققون طموحاته . كما يقول ربنا عنهم :

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا »

(٢٣/الاحزاب)

من هنا ولأسباب أخرى غيرها يعطي الاسلام الشرعية للانتماء الاجتماعي . ولكن كيف يحقق تلك الشرعية و بأي أسلوب ؟

الخلايا الاجتماعية :

يتكون المجتمع من خلايا عديدة تنتظم في تشكيلات معينة وهي على نوعين : خلايا فطرية توجدها غريزة الانسان وربما مصالحه ، وخلايا حضارية تكونها قيم الانسان ومبادئه .

اولا : الخلايا الفطرية :

يؤمن الاسلام بخلية الاسرة ايماناً قوياً قد لايصل اليه ايمان اي مذهب او دين آخر ، و يؤكد على تماسكها . فالاسرة مقدسة في نظر الأسلام ، والتماسك الاسري في الاسلام هو أحد الأسس الرئيسية لتماسك المجتمع .

المجتمع الاسلامي مبتن على أساس الاسرة كوحدة اجتماعية . ولذلك تسمى الأسرة فيه حصنا . فالاسلام يسمي الرجل المتزوج بالمحصن ، و يسمي المرأة المتزوجة بالمحصنة ، لأنهما قد دخلا في الحصن .. والاسلام لا يرضى لأي سبب من الأسباب بهدم هذا الحصن .

ومن أهم هذه الاسباب التي وضع الاسلام تشريعات مشددة لمكافحتها هوالزنا ، واعتبر الزاني هو ذلك الذي يعتدي على حصن الاسرة فيسبب هدم البيت الاسري .

والواقع أنّه اذا تفشى الزنا في المجتمع فان الأسرة طبيعياً تتفتت . وهذا مانراه في المجتمعات المادية التي ينتشر فيها هذا المرض الأجتماعي الخطير. (١)

لذلك الاسلام يؤكد على حرمة الزنا و يعتبره أمراً خطيراً جداً .

يقول تعالى :

« ولا تقربوا الزنى انّه كان فاحشة وساء سبيلا »

(٣٢/الاسراء)

ونجد ان نبينا محمداً (ص)وسائر الأئمة من أهل بيته (ع) حينما يريدون ان يبيّنوا سبب حرمة الزنا يؤكدون على هذه الناحية ، وهي ان الزنا يهدم حصن الأسرة و بالتالي يحطم المجتمع . ونستطيع أن نستلهم هذه الافكار من الاحاديث التالية :

عن رسول الله (ص) قال :

« لما أُسري بي مررت بنسوان معلقات بثديهن فقلت من هؤلاء يا جبرائيل ؟ فقال هؤلاء اللّواتي ورّثن أموال ازواجهنّ أولاد غيرهم »

أي انهن يزنين ثم يلحقنَ أولادهنّ من الزنا بأزواجهن ، وهؤلاء الاولاد من الطبيعي

---

١ ــ جاء في كتاب (جامعة شناسي بالفارسية) تأليف «تي . بي . ياثومور» ، المترجم من قبل «سيد حسن منصور» و «سيد حسن حسيني كلجاهي» ص ١٩٨ / ١٩٩ ، جاء ما ترجمته :

في المجتمعات الصناعية الغربية ازداد الطلاق منذ القرن العشرين بصورة سريعة (في الولايات المتحدة الامريكية) ارتفع معدل الطلاق من ٧٥ في الألف في عام ١٩٠٠ ، الى ٢٥٨ في ١٩٦٠ أما في انكلترة فقد ارتفع من ٢٠ في الألف في عام ١٩٠٠ الى ١٥٥ في الألف في العام ١٩٣٨ ، و بلغ نسبته ١٨١ في الألف في العام ١٩٤٢ ، وكان ارتفاع معدل الطلاق في الدول الاوروبية الغربية الاخرى مثل هذه النسبة .

ثم يضيف المؤلف في معرض حديثه عن الاسباب المؤدية الى تضعيف الروابط العائلية : وعلى هذا نستطيع أن نرى العلاقة بين الارتفاع النسبي في معدل الطلاق في هذه المجتمعات و بين الفردية الشائعة . والبحث عن اللذة و (انعدام) الزوجية . والواقع ان المجتمعات الغربية قد خففت في العقود الاخيرة والى حد بعيد من الرقابة على السلوك الجنسي للافراد .

ان يرثوا اموال غير آبائهم ، باعتبار أن الازواج لم يكونوا الآباء الحقيقيين لهم .

وفي حديث آخر نجد الامام الرضا (عليه السلام) يقول :

« حُرّم الزنا لما فيه من الفساد ، من قتل الأنفس وذهاب الأنساب ، وترك التربية للأطفال ، وفساد المواريث وما أشبه ذلك من وجوه الفساد »

فالامام الرضا (ع) يؤكد على ان المجتمع الذي لا يحصن بالاسرة ، لا يملك تربية صالحة للاولاد . اذ ان الانسان عندما يجد بيتا غير بيته يقضي فيه شهوته فانه لايهتم بأمور اولاده وزوجته ، والاولاد لايشعرون بالمقابل بأهمية بيتهم ، ولذلك لا يستلهمون القيم والافكار من أبيهم ، و بالتالي يتفتت المجتمع .

وفي حديث آخر يقول الامام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) :

« ألا أخبركم بأكبر من الزنا ، قال هي امرأة توطىء فراش زوجها فتأتي بولد من غيره فتلزمه زوجها ، فتلك التي لا يكلّمها الله ولا ينظر إليها يوم القيامة ولا يزكيها ولها عذاب اليم » .

والعقوبات الاسلامية حول الزنا تؤكد هذه الأهمية يقول تعالى :

« الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » .

(٢/النور)

في هذه الآية يبين القرآن الحكيم أن للزاني رجلاً كان أو امرأة ، ثلاث عقوبات :

عقوبة جسدية وهي « مائة جلدة » ، وعقوبة معنوية وهي غضب الناس « ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله » . وعقوبة نفسية وهي « وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » . و بعد المرور بهذه العقوبات الصارمة يستحيل على الزاني ان يكرّر فعلته كما أنه سيصبح عبرة للآخرين . وفي بعض الاحاديث نجد تفسيراً لسبب شدّة الاسلام مع الزناة . فعن الامام الرضا (عليه السلام) قال :

« علّة ضرب الزاني على جسده بأشدّ الضرب لمباشرة الزنا واستلذاذ الجسد كلّه به ، فجعل الضرب عقوبة له وعبرة لغيره ، وهو اعظم الجنايات » .

ثانيا : الخلايا الحضارية :

يعطي الاسلام أهمية كبيرة للخلايا الحضارية التي لا تهتم بها المجتمعات جميعاً ، ولا يعتني بها الا الذين يحملون قيماً معينة يؤمنون بها .

ومن جملة الخلايا الحضارية في المجتمع تلك الخلايا التي تتكون من مجموعة رجال يمتلكون رؤى واحدة و يسيرون في خط واحد . وعادة تتكون مثل هذه الخلايا من فرد يؤمن بفكرة ويحمل رسالة ، و يتحسس بمسؤولية أجتماعية ، ثم لا يبق وحده وانما يبحث عن أولئك الذين يؤمنون بفكرته و يتحسسون بمسؤوليته ، ويحملون رسالته .

يبحث عنهم في كل مكان حتى يجدهم ، فاذا وجدهم وطّد علاقته بهم ، يزورهم ويجلس اليهم و يتحدث معهم عن افكاره و يستمع منهم حتى تتلاقح افكارهم جميعاً .
ومن هنا نجد أن الأسلام يعطي أهمية كبيرة لزيارة الاخوان بشرط أن تكون هذه الزيارة في الله .

فحينما تجد الظلم متفشيا والطاغوت متحكما ، والظلمات مخيمة على بلدك ، آنئذ عليك ان تبحث عن رفاق مسيرة ، وأخوة جهاد ، وعليك ان تبحث عمن يحمل افكارك . فاذا وجدتهم ، تزورهم في الله لكي ترفع الظلم وتسقط الطاغوت فتجلب لمجتمعك الخير والسعادة .

يقول الامام الباقر (عليه السلام) وهو يحدّث احد القادة الرساليين كان قد زاره في المدينة وهو خيثمة ثم حمل منه رسالة الى اتباعه وانصاره في الكوفة :
يقول خيثمة : دخلت على ابي جعفر (عليه السلام) أودعه فقال لي :

« ياخيثمة أبلغ من ترى من موالينا السلام وأوصهم بتقوى الله العظيم ، وأن يعود غنيّهم على فقيرهم ، وقويّهم على ضعيفهم ، وان يشهد حيّهم جنازة ميّتهم ، وأن يتلاقوا في بيوتهم ، فان لُقيا بعضهم بعضاً حياة لأمرنا . رحم الله من أحيا أمرنا . ياخيثمة ابلغ موالينا أنّا لا نغني عنهم من الله شيئاً إلاّ بعمل ، وأنّهم لن ينالوا ولايتنا الا بالورع ، وإنّ أشدّ الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلا ثمّ خالفه الى غيره » .

في طيات هذا الحديث برنامج عمل متكامل للانسان الثوري داخل مجتمع يتحكم

فيه الطاغوت . وفي حديث آخر يقول الامام الصادق (عليه السلام) :

« من زار أخاه في الله ، قال الله عز وجل : اياي زرت وثوابك عليَّ ، ولست ارضى لك ثوابا دون الجنة » .

وفي حديث آخر يقول (عليه السلام) :

« ما زار مسلم أخاه المسلم في الله ولله ، الا ناداه الله تبارك وتعالى أيها الزائر طبت وطابت لك الجنّة » .

و يقول الامام الباقر (عليه السلام) :

« ان العبد المسلم اذا خرج من بيته زائراً اخاه لله لا لغيره التماس وجه ربه ورغبة فيما عنده ، وكلّ الله عز وجل به سبعين الف ملك ينادونه من خلفه الى ان يرجع الى منزله .. ألا طبت وطابت لك الجنة » .

هذه الاحاديث الصريحة التي تدل على اهمية التزاور في الله ، يوصي بها الأئمة (ع) اتباعهم ومواليهم الملاحقون من قبل السلطات الغاشمة الذين لا يستطيعون اللقاء في اجتماعات عامة ، ولذلك فهم يؤكدون على تزاور المؤمنين في بيوتهم .

وهناك حديث مأثور عن النبي (ص) قال :

« حدثني جبرائيل ان الله عز وجل أهبط ملكاً فاقبل ذلك الملك يمشي حتّى دُفع الى باب عليه رجل يستأذن على الدار . فقال له الملك : ما حاجتك الى ربِّ هذه الدار ؟

قال : أخ لي مسلم زرته في الله تبارك وتعالى .

قال : ما جاء بك إلّا ذاك ؟

فقال : ماجاء بي الّا ذاك ــ اي ماجاء بي الى زيارته الاّ وجه القربة الى الله ــ .

قال : فانّي رسول الله إليك وهو يقرؤك السلام و يقول وجبت لك الجنة .

وقال الملك : ان الله تعالى يقول : ما من مسلم زار مسلماً فليس أيّاه زار بل ايّاي زار وثوابه عليَّ الجنّة » .

فهل تريد ان تزور الله ؟

زره بزيارة اخيك المسلم في سبيل الله ، التي تعني السعي لتحقيق كل ما أمر به الله سبحانه وتعالى كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على البر والتقوى والعمل

على أزالة الظلم وأسقاط الطغاة .

ان هـذه الاحـاديـث توجـهـا الى بـنـاء الخلايا الاجتماعية الحضارية بالاضافة الى الخلايا الفطرية الطبيعية ، فبالاضافة الى انك تنتمي الى أسرة متماسكة ومحصنة عليك ان تبحث عن رفاق عمل ، واخوة جهاد تزورهم في بيوتهم من أجل ان تجلسوا وتتحدثوا عن امر الأمة الأسلامية ، وأمور الدين وكيفية تنفيذ البرامج والتخطيط لتحطيم نظام الطاغوت وانقاذ الناس من ظلم الجبابرة ، ومن ظلمات الكفر والجهل .

الفصل الثاني



شهداء على الناس

استمراراً للحديث عن اعطاء الاسلام الشرعية للانتماء الاجتماعي ، نتناول الموضوع هنا من ناحية ارتباطه الوثيق بالحركة الاسلامية وموقف هذه الحركة من الجماهير.

فكما ان الاسلام يعطي الشرعية للكيان الاجتماعي و يؤكد عليه ، كذلك فهو يرفض الرهبانية والاعتزال عن الناس اعتزالا دائما و يؤكد على حضور الطليعة المؤمنة في ساحة الجماهير.

وفي هذا المجال نجد أحاديث كثيرة تؤكد على ضرورة تواجد العناصر الرسالية داخل الجماهير وعدم الاعتزال عنهم للعيش بعيداً عنها ، حتى ولو كان ذلك يسبب لهذه العناصر الأذى حيث ان المؤمن الصالح يشق عليه كثيراً ان يعيش مع أناس لايلتزمون بدين ، ولا يتحملون مسئولية . ولكن هذه الصعوبة يجب ان يتحملها العنصر الرسالي ، لأنّه ان فقد الجماهير، يكون قد فقد أرضه التي ينبت و ينمو فيها ، و يستمد منها عناصر نموه .

في الحديث عن أنس قال :

توفي ابنٌ لعثمان بن مظعون رضي الله عنه ، فأشتدّ حزنه عليه حتىٰ أتّخذ من داره مسجداً يتعبّد فيه . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له :

« ياعثمان ان الله تبارك وتعالىٰ لم يكتب علينا الرهبانية ، أنّما رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله » .

ثم قال :

«ياعثمان من صلى صلاة الفجر في جماعة ثم جلس يذكر الله عز وجل حتى تطلع الشمس كان له في الفردوس سبعون درجة بُعد ما بين كل درجتين كحضر الفرس الجواد المضمر(١) سبعين سنة . ومن صلى الظهر في جماعة كان له في جنات عدن خمسون درجة ما بين كل درجتين كحضر الفرس الجواد خمسين سنة . ومن صلى العصر في جماعة كان له كأجر ثمانية من ولد اسماعيل كل منهم رب بيت يعتقهم . ومن صلى المغرب في جماعة كان له كحجة مبرورة وعمرة متقبلة . ومن صلى العشاء في جماعة كان له كقيام ليلة القدر» .

الأسلام يرفض الفوضوية :

من مظاهر الشرعية التي يعطيها الأسلام للكيان الأجتماعي ، رفضه للفوضوية التي يعتبر غياب الطليعة المؤمنة عن الجماهير أحد أسبابها الرئيسية .

فالفوضوية مرفوضة لأنّ المجتمع أي مجتمع لا يمكنه أن يبقى من دون وجود نظام وقوانين تحكمه ، حتى لو كان هذا النظام جائر والقوانين باطلة .

فالسلطة ضرورة ولا يمكن أن نستبدل النظام الجائر بالفوضى ، لأنّ النظام الجائر أفضل عند الأسلام من الفوضى . نعم المطلوب العمل من أجل أقامة نظام عادل عوضاً عن النظام الجائر وهذا واجب شرعي ، أمّا أن نزيل النظام الجائر للاشيء ، فهذا أمر مرفوض عند الأسلام . وفي القرآن أشارة واضحة الى هذه الحقيقة ، وهي أن نبي الله موسى (عليه السلام) حينما أنطلق الى فرعون ، فأنّه حاول أولاً أن يهديه ، وهذا دليل على أن موسى (عليه السلام) لم يكن يريد أن يهدم نظام فرعون ، وانما ان يقومه و يصلحه ، ولكن فرعون كما فراعنة كل زمان ، أتهم موسى بأنّه يريد هدم نظامه وأشاعة الفساد والفوضى وأقامة شريعة الغاب .

فالانبياء (عليهم السلام) في دعواتهم الأصلاحية كانوا يريدون أقامة نظام صالح قبل ان يهدموا النظام الفاسد ، ومن هنا نجد تكرر قوله سبحانه وتعالى على لسان رسله :

---

١ ــ حضر الفرس : إرتفاعه في عدوه .

« أن اعبدوا الله وأتقوه وأطيعونِ » .

عبادة الله تعني رفض الشركاء والآلهة والاصنام والأنظمة الطاغوتية المتحكمة في رقاب الجماهير. « واطيعون » يعني اقامة دولة الامامة الاسلامية . دولة الحق .

والرسالة الاسلامية انما قامت على كلمتين ، هما « لا اله الا الله » اي تحرير الأنسان من الجبت والطاغوت ومن عبادة الآلهة البشرية والحجرية . و « محمد رسول الله (ص) » اي اقامة تلك الحكومة الالهية البديلة عن ذلك النظام الفاسد .

من هنا نجد ان الاسلوب المناسب لتبديل الانظمة ليس هدم النظام وانتظار قيام نظام بديل ، وانما اقامة نظام بديل في داخل هذا المجتمع الفاسد ، ومن ثم محاولة احتواء عناصر المجتمع الفاسد وتوجيهه في الاتجاه السليم ، وأتصور بأن الاسلوب الذي اتبعه الأنبياء وأولياء الله الصالحون كما اتبعه قائد الثورة الاسلامية في ايران الأمام الخميني (أطال الله بقائه) هو الأسلوب الناجح في الثورة الاسلامية . ذلك الاسلوب هو:

أولاً : عدم هدم النظام الفاسد قبل أن يتم تأسيس كيان قادر على أحلال النظام الصالح مكانه .

ثانياً : محاولة تغيير النظام الفاسد عن طريق الناس أنفسهم وذلك بالتأثير فيهم وليس بالأ بتعاد عنهم والسعي نحو أقامة نظام عادل بالرغم عنهم .

أننا نريد ان يختار الناس النظام الصالح بأنفسهم ، وما نحن الا وسائط خير وأدلاء معروف فقط نعرّف الناس على طريق الحق ، ونضحي من أجل هذه المسئولية ، نضحي في طريق توعية الجماهير. اما بعد ذلك فالجماهير هي التي تثور، وهي التي تتحرك ، وهي التي سوف تبني الحكومة . نحن لانريد ان نتخذ القرارات بديلا عن الجماهير او بالوكالة عنها ، لا نريد ان نقوم بالثورة نيابة عن الناس ، ولا ان نقيم حكومة اسلامية رغماً عنهم .

اننا نريد ان نرفع عن اعين الناس غشاوة التضليل الاعلامي ونرفع عن طريقهم العقبات الكأداء ليقيموا بأنفسهم الحكومة الصالحة . ودورنا هو دور حامل الرسالة اليهم ، وهكذا كان دور الأنبياء عليهم السلام الذي يحدثنا القرآن الحكيم عن دورهم فيقول :

« فذكّر انّما انت مذكر لست عليهم بمصيطر

(٢١ ــ ٢٢/الغاشية)

فالنبي ليس مسيطراً على الناس وأنّما هو بشير.. ونذير، وان عليه البلاغ، و بقية الامور مرتبطة بالناس و بالله. بأقدار الله، و بقضاء الله سبحانه وتعالى.

أنّ المنهج الذي قاد الثورة الاسلامية في ايران الى الانتصار، هو أنّ الامام الخميني حفظه الله رفض ان يخل بالنظام البائد. ورفض ان يحمل الثوار السلاح وكانوا مستعدين لذلك. وكان دائما يريد ان يحسم المواقف عن طريق حضور الجماهير في ساحة الجهاد. وقد رأيتهم حتى بعد انتصار الثورة الاسلامية و بعد امتلاكه للاسلحة الكافية، رفض ان يستخدم السلاح. وانّما استخدم سلاحاً واحداً هو سلاح الناس انفسهم، و بعد الأنتصار، لم يكن في الجمهورية الأسلامية أجهزة أمن قوية، وانّما الذي كان يقوم بعمل المخابرات هم الناس أنفسهم.

وقد شاهدنا في طهران وفي سائر المدن الايرانية كيف كان أقارب الفرد يخبرون السلطة بأن فلانا من « منافقي خلق » وهكذا كان الناس حاضرون وشاهدون في ساحة المواجهة وهذا هو أكبر سلاح. ولم يستطع الامام ان يستخدم هذا السلاح الاّ لأنّه منذ البداية اعتمد على الناس. وعرف ان السلطة الحقيقية هي السلطة التي تكون داخل القلوب. وليست تلك التي تفرض برؤوس الحراب وعن طريق الارهاب.

في لوكسمبرغ عقد وزراء الخارجية الاور بيون أجتماعاً قالوا فيه ان ايران أخذت تعاني من وجود فراغ في السلطة بعد الثورة! ولكن كيف يكون ذلك وثلا ثة ملايين انسان يخرجون الى شوارع طهران في عزاء الشهداء الأثنين والسبعين من رجال الحكومة الذين أستشهدوا في حادث تفجير مقر الحزب الجمهوري في طهران.

انهم في لوكسمبرغ لا يعرفون أن سلطة الارهاب وسلطة الدوائر وشبكة التضليل الاعلامي من تلفزيون واذاعة وصحف وما أشبه.. هذه ليست أكثر من بيوت العنكبوت. فالسلطة الحقيقية هي سلطة الجماهير.

وحينما سمع الناس باستشهاد الأثنين والسبعين من قادة الثورة خرجوا في منتصف الليل لا يعرفون اين يذهبون، فقد كانوا يريدون ان يعبروا عن مشاعرهم بطريقة ما تجاه

قادتهم الذين يحبونهم . فهل هذه السلطة أفضل ؟ أم سلطة الولايات المتحدة ، حيث انقطع التيار الكهربائي في نيو يورك لعدة ساعات فقط واذا بعشرين مليون دولار سرقت في نيو يورك وقد نشرت ذلك كل صحف العالم !

سلطة الجماهير صاحبة الحق في البلد ومقدراته أقوى ، أم سلطة الارهاب والخنق والتضليل وابعاد الناس عن الحضور في الساحة ؟

الأنبياء انما كانوا يريدون ان يؤسسوا سلطة القلوب سلطة الحق والاندفاع الطبيعي الى العمل ، وقد نجحوا في ذلك .

وهكذا يجب ان يكون الثوار الاسلاميون ، والحركة الاسلامية في العالم التي نرجو لها أن تنتصر في هذه المهمة .

الطليعة شهداء حاضرون بين الناس :

تأكيداً لضرورة تواجد الطليعة المؤمنة في ساحة الجماهير نورد بعض الأحاديث الشريفة التي توضح لنا هذا الأمر.

في وصيته للزهري ، يقول الأمام زين العابدين (ع) :

« أمّا عليك ان تجعل المسلمين منك بمنزلة أهل بيتك فتجعل كبيرهم منك بمنزلة والدك وتجعل صغيرهم منك بمنزلة ولدك وتجعل تربك ــ أي الذي يساويك في العمر ــ بمنزلة أخيك » .

فأي هؤلاء تحب ان تظلم ؟ وأي هؤلاء تحب أن تدعو عليه ؟ وأي هؤلاء تحب أن تهتك ستره ؟ ــ بالطبع ــ الانسان لايحب أن يهتك ستر والده أو ابنه أو أخيه .

« وإن عرض لك ابليس (لعنه الله) أن لك فضلا على أحد من أهل القبلة ، فانظر ان كان اكبر منك فقل قد سبقني بالايمان والعمل الصالح فهو خير مني ، وان كان أصغر منك فقل قد سبقته بالمعاصي والذنوب فهو خير مني ، وان كان تربك فقل أنا على يقين من ذنبي وفي شك من أمره فمالي أدع يقيني لشكي . وان رأيت المسلمين يعظمونك و يقرونك و يبجلونك ، فقل هذا فضل أخذوا به ، وان رأيت منهم جفاءاً وانقباضاً عنك

فقل هذا لذنب أحدثته . فانك اذا فعلت ذلك سهّل الله عليك عيشك وكثر أصدقاؤك وقلّ أعداؤك ، وفرحت بما يكون من برهم ولم تأسف على ما يكون من جفائهم » .

ان هذا الحديث يؤكد لنا ضرورة محبة الآخرين من المسلمين والتواجد بينهم بعد أعتبارهم آباء وأولاداً واخوة ، وحتى الذين يشك في عدالتهم ، فكل انسان يجب ان يشك في عدالته هو شخصياً ، ولا يقول انّي منزّه ومزكّى ، وأنّي أفضل من الآخرين وانّما عليه ان يعتبر نفسه أبدا أقل منهم ، ولذلك يعظمهم ويحترمهم ، و يكون قريباً منهم .

وفي حديث آخر يقول الامام الصادق (عليه السلام) :

« حسنُ المعاشرة مع خلق الله تعالى في غير معصية من مزيد فضل الله عز وجل عند عبده . ومن كان خاضعاً في السر ــ اي كان خاضعاً في سره لله سبحانه وتعالى ــ كان حَسَن المعاشرة في العلانية . فعاشر الخلق لله ، ولا تعاشرهم لنصيبك من الدنيا ، ولطلب الجاه والرياء والسمعة ، ولا تسقطنّ بسببها عن حدود الشريعة من باب المماثلة والشهرة » .

عاشر الناس ولكن لا تتبع طريقتهم ولا تنحرف عن طريقتك السليمة من أجل مماثلة الناس أو الاشتهار بينهم فالطليعة يجب أن تبقى داخل الجماهير ولكن لا تذوب في سلبيات المجتمع وانّما تحتفظ بميزاتها وحيويتها و بأخلاقها الحسنة وتعاشر الجماهير بأخلاقها و بأعمالها العامة .

« فانهم لايغنون عنك من الله شيئاً وتفوتك الآخرة »

اذا قلت حشر مع الناس عيد . فان هذا الحشر سيكون بالتالي الى النار وهل الحشر مع الناس في نار جهنم عيد للانسان ؟

ثم يؤكد الامام (عليه السلام) نفس الفكرة التي أكدها الأمام زين العابدين (عليه السلام) و يقول :

« واجعل من هو أكبر منك بمنزلة الأب والأصغر منك بمنزلة الولد والمثل بمنزلة الأخ ، ولا تدع ما تعمله يقينا من نفسك بما تشك فيه من غيرك . وكن رفيقا في أمرك بالمعروف ، شفيقا في نهيك عن المنكر ، ولا تدع النصيحة في كل حال . قال الله عز وجل : « وقولوا للناس حسنا » .

وفي حديث آخر يوجه الامام ابوعبد الله الصادق (عليه السلام) حديثه الى شيعته ومواليه ، والشيعة هم أولئك الطليعة الذين لم ينفصلوا عن سائر الجماهير بل كانوا في الجماهير من أجل اصلاح الناس وهدايتهم ، يقول :

« عليكم بالصلاة في المسجد ، وحسن الجوار للناس وإقامة الشهادة ، وحضور الجنائز. إنّه لابدّ لكم من الناس ، ان أحداً لايستغني عن الناس حياته ، فأمّا نحن نأتي جنائزهم ، وانما ينبغي لكم أن تصنعوا مثل ما يصنع من تأتمّون به . والناس لابد لبعضهم من بعض ، ماداموا على هذا الحال حتى يكون ذلك ثم ينقطع كل قوم الى أهل أهوائهم » .

ثم قال :

« عليكم بحسن الصلاة واعملوا لآخرتكم واختاروا لأنفسكم فان الرجل قد يكون كيّسا في أمر الدنيا فيقال ما أكيس فلانا ، وانّما الكيّس كيس الآخرة » .

ثم الامام مالبث ان أوضح بأن الحضور مع الناس والاختلاط بالجماهير لا يعني الذوبان في بوتقتهم ، وانّما يجب المحافظة على الدين ، وعلى الميزة الرسالية ، والبقاء مع الناس هو من أجل هدايتهم فقط وفقط .

وفي رواية أن الامام علي (عليه السلام) حين حضرته الوفاة جمع اولاده واوصاهم بهذه الوصية التي هي لي ولك ايضا يقول الامام (ع) :

« يابني عاشروا الناس عشرة إن غبتم حنّوا إليكم وإن فُقدتم بكوا عليكم . يابنيّ إنّ القلوب جنود مجنّدة تتلاحظ بالمودّة وتتناجى بها وكذلك هي في البغض » .

وفي حديث آخر عن الامام الصادق (ع) يقول :

« اتقوا الله وعليكم بالطاعة لأئمتكم . قولوا ما يقولون وأصمتوا عما صمتوا . فأنكم في سلطان من قبل الله تعالى . وان كان مكرهم تزول منه الجبال ــ يعني ولد العباس ــ فاتقوا الله فانكم في هدنة ، صلوا في عشائرهم ، واشهدوا جنائزهم . وأدّوا الأمانة اليهم ، وعليكم بحج هذا البيت فأدمنوه ، فان في ادمانكم الحج دفع مكاره الدنيا عنكم ، وأهوال يوم القيامة » .

هذه الرواية تبين الوضع الأستثنائي الذي كان يعيشه الأمام وأصحابه في ظل جور

الطغاة المتحكمين في رقاب الناس .

ان الثوار الرساليون حين يكونوا وسط الجماهير لايمكن السلطات الظالمة ان تضربهم بسهولة باتهامهم بالمروق عن الدين . اما اذا كانوا مجموعة شباب يبتعدون عن الجماهير، ليتركوها طعمة للدعايات المضلّة ، آنئذ يمكن للحكام الطغاة ، ومن يعينهم في طغيانهم وظلمهم أن يبثّوا حول تلك الشبيبة المؤمنة الدعايات و يتهموهم بأنّهم مرقةً وكفار وفاسدون . .

فاذا كنت أنت وأنا من أصحاب الرسالة بعيدين عن الناس ، فان أحداً لا يستطيع ان يرد الاعلام الكاذب ، اما اذا كنت مع الناس وفي صميم المجتمع ، آنئذ لا يستطيع أحد أن يصدق كلام السلطة . لأنّها عندما تقول عنك مارق فان الناس يعرفون بانك او من يحضر الجماعة و يصلي بخشوع . واذا قالوا عنك سارق ، فان الناس يعرفون بأن افضل الناس اداء للامانة هو انت . وإذا قالوا عنك انك رجل لا تعترف بالقيم ، فان الناس يقولون نحن نراه كل سنة في الحج . فكيف لا يعترف بالقيم ؟ وكيف لايطبق الفرائض ؟!

وهكذا تتبخر كل الدعايات المغرضة .

قيادة القلوب :

في خطاب الرسول (ص) الى المجموعة التي حملت راية الرسالة وكانوا قدوة للآخرين . يقول (ص) :

« يابني عبد المطلب ــ و يابني هاشم على أختلاف الروايات ــ انكم لن تسعوا الناس بأموالكم . فألقوهم بطلاقة الوجه وحسن البشر » .

ان بني عبد المطلب يجب ان يكونوا هداة الناس وقادتهم ولكن هل بالسيف ؟ او بالمال ؟

كلا لأنهم لا يملكون لا السيف ولا المال الكافي . ولكن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ينبههم الى انهم يملكون ما هو أمضى من السيف وأغنى من المال ، وهو الأخلاق

الحسنة والمعاملة الانسانية ، وطلاقة الوجه وحسن البشر .

وهذا ما ينطبق على حملت الرسالة الألهية الذين لا يملكون الاموال كما تملكها الامبريالية العالمية ، ولا يملكون القوة كما يملكها الجبابرة والمفسدون ، ولا يملكون أجهزة المخابرات ودوائرها وشبكاتها ، ولكن يملكون ماهو أقوى وأحسم من كل ذلك وهو الأخلاق الحسنة .. يملكون الجماهير.

فأذا قالت السلطات الجائرة أن عندنا الأموال الطائلة والقوة الحاسمة ، وشبكات الجاسوسية ، فسوف تقول الطلائع الرسالية المؤمنة ، أننا نملك الجماهير.. نملك الأنسان .. نملك القلوب ونحكمها ، وهذا هو الشيء الحاسم في قضية الثورة .

وكفى بتوجيه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لنا أن لانستهين بالأنسان حتى بالمذنبين قال : « ليس منّا من لم يرحم صغيراً ولم يوقّر كبيراً » .

وقال : « ولا تكفّر مسلماً بذنب تكفّره التوبة الاّ من ذكره الله في الكتاب قال الله عزّ وجل : « ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار» ، وأشتغل بشأنك الذي أنت به مطالب » .

فلا تجلس وتوزع الاتهامات يمينا وشمالا فتقول هذا فاسق وذاك منافق ، كلا .. فأنت رجل تريد أن تهدي الناس وتدعوهم الى الخير.. فكيف تكفّر المسلمين !

ان الرجل المسلم قد يزني و يشرب الخمر ولا يصلي ولا يصوم ، ولكن يمكنه ان يتوب الى الله وتصبح توبته كفارة له . انه ان يتوب يتوب الله عليه .

والله سبحانه لم يوظفك بوبأ على باب الجنة أو النار، لتدخل فيهما من تشاء حسبما يحلو لك .

يقول تعالى :

« ليس لك من الأمر شيء أو يتوب غليهم أو يعذبهم » .

(١٢٨/آل عمران)

فربما تكفّر رجلاً مسلماً ثم يتوب هذا الرجل و يصبح من أحسن الصالحين . وأنت الذي كفرته تأتيك فتنة (لا سمح الله) فتضلك عن سبيل الله فتصبح من أهل النار.

التقوى قاعدة المجتمع

هناك كثير من الانظمة التي يحافظ بها الاسلام على استقامة المجتمع وصلاحه ، والتي من شأنها أيضاً ايجاد الديناميكية والحيوية داخل المجتمع المسلم وحفر القنوات التي تجري عبرها طاقاته وفاعلياته في الأتجاه الصحيح .

والحديث عن هذه الأنظمة والقنوات ليس حديثاً مقتضبا لكثرتها وتشعبها ، ولحاجتنا أن نضرب لها الأمثلة ونبين حكمتها وفلسفتها . الا أن كل تلك الأنظمة والقنوات تعود بالتالي الى نقطة محورية واحدة هي التقوى . تلك الأرضية الثابتة التي يبني عليها الاسلام الكيان الاجتماعي .

فالتقوى هي القاسم المشترك لكل التوجيهات والتعاليم الرسالية . واذا انتزعنا التقوى من مجتمع ما فلن يكون هذا المجتمع اسلاميا ورساليا . حتى لو طبّق القوانين الأسلامية ، لان التطبيق الخالي من الروح (التقوى) تطبيق أجوف .

ان أكبر الكمبيوترات في العالم والذي يقوم بمئات الألوف من العمليات الرياضية المعقدة التي يعجز الانسان عن القيام بها ، لايمكن أن نقول ان لها عقلا لأنّها تفتقد الحياة . كذلك المجتمع الذي لا تقوى فيه ، مهما بنى من حضارة مادية فهو ليس مجتمعا حيّاً ، ولا يمكن أن يتسم بالاسلام والرسالية أبداً .

ماهي التقوى :

التقوى هي الالتزام الداخلي بالعقيدة الاسلامية ، النابع عن القناعة التامة ، وتذليل

الشهوات عن طريق الارادة الصلبة ومع الوعي الكافي . والتقوى ليست مجرد عمل ، وانما عمل وراءه التزام وتعهد وتحمل مسئولية . وليست هي مجرد التزام ، فقد يلتزم بشيء تأدباً ، انما يجب أن يكون التزام نابع من الإيمان بالله سبحانه وتعالى و باليوم الآخر و بالرسالة .

وهذه القناعة يجب أن تكون نابعة من تذليل الشهوات عن طريق العقل ، فلو كنت انساناً مستقيماً تعيش بصورة طبيعية في مجتمع مسلم ولم يسلط عليك ضغط ولم تجد أمامك محرّما حتى تفتتن وتبتلى بأرتكابه أو عدم ارتكابه فلست متقيا .

المتقي هو الذي يجرَّب و يقع تحت الضغوط ولكن ارادته وعقله و بالتالي جوهر انسانيته هو الذي يجعله يتحدى الضغوط .. ويحافظ على استقامته .

أهمية التقوىٰ :

يذكر القرآن الحكيم التقوى في آيات كثيرة و يبين أفكاراً شتى حولها ، الا انك حين تقرأ القرآن وتتدبر فيه تجد ان التقوى هي المحور الأساسي للقرآن ..

لماذا الصوم ، ولماذا الحج ، ولماذا الزكاة .. ولماذا شرّع القصاص في الاسلام ؟ .. كل ذلك للتقوىٰ .

وهكذا فالآيات القرآنية تبين أن حكمة أكثر الاحكام الشرعية هي الوصول الى مستوى التقوى .

يقول تعالى :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيبا » .

(١/النساء)

فالتقوى هي محور سؤالكم بعضكم عن بعض ومحور ثقة بعضكم ببعض و بالتالي هي عمود اجتماعكم وقاعدة كيانكم .

وفي آية أخرىٰ يجعل القرآن العدالة احدى افرازات التقوى :

« اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون »

(٨/المائدة)

وفي آية أخرى يعجل القرآن الخير والرفاه والسعادة مبنية على أساس التقوى :

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » .

(٩٦/الاعراف)

وفي آية أخرى يجعل القرآن الحكيم التقوى مرة أخرى ركيزة للبناء الاجتماعي الاسلامي و يقول :

« لَمَسْجِدٌ أُسِسَ على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه » .

(١٠٨/التوبة)

ثم يبين أن أي بناء لا يقوم على التقوى فهو بناء هاوٍ على عروشه .

« أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير، أم من أسس بنيانه على شفا جرفٍ هار فانهار به في نار جهنم » .

(١٠٩/التوبة)

وفي آية أخرى يؤكد القرآن الحكيم على أن الحياة الدنيا والمعيشة الفاضلة والسعادة الدنيوية مبتنية على التقوى :

« الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم » .

(٦٣ ـ ٦٤/يونس)

أي أن هذه الحقيقة ليست مرتبطة ببرهة معينة من الزمن . وانما « لا تبديل لكلمات الله » في كل زمن .

وفي آية أخرى يربط القرآن بين التقوى والاحسان ، و يبين بأن التقوى هي أهم نوع من أنواع الاحسان :

« انّه من يتق و يصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » .

(٩٠/يونس)

وفي آية أخرى يؤكد القرآن على أن أي علاقة لا تباركها التقوى ، فأنها علاقة هشة يمكن ان تنفصم في أية لحظة :

« الأخلاء يومئذ بعضهم لبعضٍ عدوٌ الا المتقين » .

(٦٧/الزخرف)

والقرآن الحكيم حين يطرح التقوى فأنه يطرحها كتيار اجتماعي ، تعيش ضمن مجموعة بشرية متفاعلة مع بعضها ، وليس كعمل فردي : « .. هدى للمتقين » ، « .. وموعظة للمتقين » ، « .. والعاقبة للتقوى » .. وهكذاللمتقين وليس للمتقي كفرد .

كانت هذه مجموعة من الآيات تحدثنا عن أهمية التقوى وأنها قاعدة أساسية لسائر قواعد المجتمع الاسلامي . وهناك روايات شريفة تدل على ذات الحقيقة . عن أبو جعفر الباقر عن أمير المؤمنين (عليهما السلام) قال :

« ان لأهل التقوى علامات يعرفون بها .. صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، ووفاء بالعهد ، وقلة العجز والبخل ، وصلة الآرحام ، ورحمة الضعفاء ، وقلة المؤاتاة للنساء ، وبذل المعروف ، وحسن الخلق ، وسعة الحلم ، واتّباع العلم فيما يقرّب الى الله طوبى لهم وحسن مآب » .

ان كل هذه العلامات تتلخص في قضية واحدة وهي الارتباط بالكيان الاجتماعي ارتباطا متينا وحسنا ، فصدق الحديث قضية اجتماعية ، وكذلك أداء الأمانة ، وكذلك الوفاء بالعهد ، وقلة العجز والبخل ، وصلة الأقارب ، ورحمة الضعفاء ... الخ .

وفي نهج البلاغة يقول الامام علي (ع) :

« كم من صائم ليس له من صيامه الآ الجوع والضمأ ، وكم من قائم ليس له من قيامه الا السهر والعناء ، حبذا نوم الاكياس وافطارهم » .

فالمجتمع الاسلامي لا يقوم على أساس كثرة الصيام والقيام ، انّما على روح العمل وهو التقوى .

وعن الامام الصادق عليه السلام قال :

« لا يغرنك بكاؤهم فأن التقوى في القلب » .

أن يبكي الانسان من خوف الله هذا ليس تقوى وانّما التقوى هو أن يحطم الانسان في قلبه الحواجز التي لا تدعه يفهم الحقائق و يؤمن بها ، ولا تدعه يوفق أعماله وفق مناهج الله سبحانه وتعالى .

وفي حديث آخر يقول الامام علي (عليه السلام) :

« التُقىٰ رئيس الاخلاق » .

فسائر الأخلاق تنبني على أساس التقوى .

وفي حديث مفصل يقول الامام علي (ع) :

« أمّا بعد فانّي أوصيكم بتقوى الله الذي ابتدأ خلقكم ، واليه يكون معادكم ، و به نجاح طلبتكم ، واليه مرامي مفزعكم ، فانّ تقوى الله دواء داء قلوبكم ، و بصر عمى أفئدتكم ، وشفاء مرض أجسادكم ، وصلاح فساد صدوركم ، وطهور دنس أنفسكم ، وجلاء غشاء أبصاركم ، وأمن فزع جأشكم ، وضياء سواد ظلمتكم » .

فالتقوى تعطي الانسان كل ما يحتاجه ، فاذا كان يحتاج الى أن يكون قلبه بصيراً فانّ التقوى ضياء القلب . أو كان يحتاج الى سلامة الجسد فالتقوى سلامة للجسد ، أو كان يحتاج أن يفهم الحياة . فالتقوى عينٌ بصيرة للانسان .

« فاجعلوا طاعة الله شعاراً دون دثاركم ، ودخيلاً دون شعاركم ، ولطيفاً بين أضلاعكم ، وأميراً فوق أموركم ، ومنهلاً لحين وردكم ، وشفيعاً لدرك طلبتكم ، وجُنة ليوم فزعكم ، ومصابيح لبطون قبوركم وسكناً لطول وحشتكم ، ونفساً لكرب مواطنكم » .

ان الامام (عليه السلام) يبين لنا بأنّه لا يكفي أن يكون ظاهر الانسان ملتزماً ببرامج الله سبحانه وتعالى ، وانّما ينبغي أن يكون قلبه كذلك .

انظروا الى التعابير اللطيفة ، ان للانسان شعاراً ودثاراً (الشعار هو ما يلبسه الانسان تحت ثيابه ، أمّا دثاره فهو ثيابه الظاهرة) في البداية يقول الأمام لتكن التقوى شعاراً دون دثاركم يعني ثيابكم الالصق الى أجسامكم ، ثم لا يكتفي بذلك فيقول دخيلاً دون شعاركم ، أي يجب أن تكون التقوى عند الجلد قبل الشعار . ثم لا يكتفي بذلك فيقول ولطيفا بين أضلاعكم أي لا يكفي أن تكون التقوى ملامسة لجلد الانسان بل يجب أن

تكون مستقرة بين أضلاعه .

ولا يكفي أن تكون التقوى توجه كسائر توجّهاته ، وانّما ينبغي أن تكون دون أموركم أي أن تعطي كل أموركم صبغتها ، وأن تكون وَلِهاً الى التقوى ، وأن تستهدفها قبل كل شيء . لا تفكر أن تبني بيتاً أو تؤسس اسرة .. وانّما فكر قبل كل ذلك أن تكون متقياً . وفي حديث آخر من الطف ما قاله الامام (ع) حول التقوى :

« التقوى سنخ الايمان » .

اي ان الايمان الذي لا يثمر التقوى لا خير فيه ابداً . الايمان هو الذي يعطيك التقوى . أمّا اذا رأيت نفسك مؤمنا بدون تقوى فلابد أن تشك في ايمانك .

آثار التقوى في المجتمع الأسلامي :

أهم أثرين للتقوى في المجتمع الاسلامي هما :

الاول : أن التقوى هي قصب السبق الذي يتنافس حوله المسلمون .

الثاني : أن التقوى هي القيادة الحقيقية للمجتمع الاسلامي .

فكما ان الانسان خلق طموحاً ، فكذلك خلق متنافساً ، فأذا عاش الناس جميعاً على الخبز والماء القراح ، فأنّهم جميعاً سيكونون قانعين ، ولكن مادام الناس ليسو كذلك ، أذاً لابد أن يبحث مادة يتنافس حولها .

ماهي مجالات التنافس ؟

يمكننا أن نقسم مجالات التنافس في الحياة الى قسمين :

الأول : القيم المادية كالجاه والسلطة ، والمال والشهرة والمتع الجسدية . والتنافس حول هذه الأمور فيه عيوب كبيرة منها :

أ ــ ان هذه الاشياء عرضة للزوال ، وحياة الانسان على الارض قصيرة جداً فهو سيموت و يترك ما تعب في جمعه والحصول عليه .

ب ــ ان طبيعة الانسان محدود بحيث أن تلذذه بالأشياء المادية محدود جداً فمهما كان الانسان غنيا فانّه لن يستطيع أن يأكل الا مقداراً محدوداً من الطعام ولا يمارس الا

قدراً محدوداً من المتعة الجنسية .

ج ــ ان التنافس حول المال سيعود بالأضرار الوخيمة على المجتمع ، حيث ستتركز الثروة في أيد قليلة و يبقى السواد الاعظم محروما فيصبح عرضة للجهل والتخلف و يسود الحقد والكراهية بين طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء .

د ــ ان التنافس حول الجاه والسلطة يخلق الحروب والتقاتل لأنّه لا يمكن للجميع أن يصبحوا حكاماً ورؤساء ، فالمجتمع يكفيه حاكم واحد وكل مؤسسة في هذا المجتمع يكفيها رئيس واحد .

وهكذا فالشهوات والقيم المادية محدودة والبحث عنها والتنافس حولها يحطم الفرد والمجتمع معاً .

ثانياً : القيم المعنوية كالعلم وتهذيب النفس والعمل الصالح .. الخ .

وهذه القيم تمتاز بأنّها لا محدودة . فحينما يتنافس الناس حول العلم ، يستطيع كل منهم أن يحصل على قدر وافر منه دون أن ينقص من علم الآخرين شيئاً وحينما يتنافسون في العبادة وتزكية الذات و يتنافسون حول الأعمال الخيّرة كتأليف الكتب وتأسيس الأجهزة الاعلامية الصادقة كالصحافة والاذاعة والسينما والتلفزيون .. أو كأنشاء المرافق الضرورية مثل المدارس والمساجد والمستشفيات والمصانع ، واعداد الجيش الذي يدافع عن الثغور ، فان المجال مفتوح على مصراعيه للجميع .

والقرآن الحكيم يحدد لنا هدف التنافس في المجتمع و يقول :

« ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

(١٣/الحجرات)

ابحثوا عن التقوى . تنافسوا على التقوى .

« وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » .. « فاستبقوا الخيرات » .

دعوا سباقكم وتسارعكم و بالتالي تنافسكم يكون حول الخيرات . فالخيرات كثيرة لا يمكن تحديدها . و بأمكان الجميع أن يحصلوا عليها . والتقوى باعتبارها ركيزة التنافس وقصب السبق الذي يحاول الجميع أن يصل اليه فهذا يؤدي الى ان يبحث المجتمع دائماً عن التقدم . و بالتالي يتقدم الجميع وتتقدم البشرية .

من هنـا يـضرب الاسلام على هذا الوتر، فيبين لنا أن التفاضل بين الناس يجب أن يكون على مقياس التقوىٰ .

« لا حسب لقرشي ولا لعربي الا بالتواضع . ولا كرم الا بالتقوى » .

وفي وصية النبي (ص) لأ بي ذر يقول :

« عليك بتقوى الله فأنّه رأس الأمر كله » .

فـأن كـنـت تـريـد أن تـصـبح رئيساً وتحصل على الرئاسة ، فعليك بتقوى الله سبحانه وتعالى .

وفي حديث للأمام الصادق (عليه السلام) قال :

« من أخـرجـه الله مـن ذل المـعـصـية الى عز التقوى ، أغناه الله بلا مال ، وأعزّه بلا عـشـيـرة ، وآنـسـه بـلا بشر. ومن خاف الله عز وجل أخاف الله منه كل شيء . ومن لم يخف الله عز وجل أخافه الله من كل شيء » .

وفي حديث آخر عن الامام علي (ع) عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال :

« المتقون سادة ، والفقهاء قادة ، والجلوس اليهم عبادة » .

التقوىٰ وقيـادة المجتمع :

امـا عـن أثـر الـتقوىٰ في قيادة المجتمع فان أي مجتمع لا يمكن أن يعيش قيما شتى ، وانّـمـا يـعـيـش قـيـمـة واحـدة ، تـكـون محوراً له . فمثلاً هناك مجتمع يعيش قيمة المادة ، فـأغـنـاهـم وأكثرهم ثروة هو سيدهم . وهناك مجتمع يعيش قيمة الجاه والحسب فأقربهم الى الـعـشـيرة الفلانية هو سيدهم ، وهناك مجتمع يعيش القوة فأقواهم هو سيدهم . ولكن المجـتـمـع الاسـلامـي يـعـيـش قـيـمة التقوى ، لذلك تكون هذه القيمة هي أمام المجتمع و يكون أتقى الناس هو سيد الناس . وحينما يكون الأمر كذلك تكون قيادة هذا المجتمع قيادة نظيفة مائة بالمائة .

الى هـنـا وأتـصـور أن الحـديث يكفي حول التقوى بأعتبارها ركيزة أساسية للمجتمع الاسـلامـي . ولكن لابأس ان نوجه الأخوة الى قضية هامة وهي أن لا يكون حديثنا فقط

مـن أجل المعرفة . فأذا أردنا أن نعرف المسائل فقط ، فسيكون مثلنا مثل ذلك الذي جعل التقوى دثاره . والاسلام يعطي مثلاً سيئاً لهؤلاء و يقول :

« كمثل الحمار يحمل أسفاراً »

ان سيارة الحمل التي تنقل مجموعة كتب من المطبعة الى دار النشر، لا تفهم شيئاً من هذه الأسفار وكذلك الانسان الذي يسمع لا لكي يفهم أو يفهم لا لكي يعمل .

لـنجعل من المواعظ والاحاديث التي نسمعها ، وسيلة لتزكية أنفسنا ، لنخرق حجب الشهوة والغفلة والضلالة التي تفصل بين قلوبنا و بين الحقائق .

علـينا ان لا نردد الحقائق لمجرد الحفظ وقضاء الوقت ، فأن الدنيا فرصتنا الوحيدة ، فـاذا انـقضت فليست هناك فرصة أخرى للخلاص من عذاب الله الذي يحق للانسان أن يبحث عن الخلاص منه بكل وسيلة ممكنة .

التقوى ضمانة الاستقامة

في الفصل السابق تحدثنا عن التقوى كأساس للمجتمع الاسلامي وجذر يتفرع منه كل البرامج والمناهج داخل هذا المجتمع ، وهنا نتحدث عن ثلا ثة أمور هامة :

الأ ول : أهمية التقوى في أعطاء الحيو ية والفاعلية للمجتمع .

الثاني : العلاقة بين التقوى والعمل .

الثالث : أن التقوى هي التي تعطي للمجتمع الاسلامي الحصانة ضد الأنحراف .

التقوى وحيو ية المجتمع :

يوجه المجتمع الاسلامي أبناءه لكي يصبوا طاقاتهم وامكانياتهم في قنوات سليمة ، تتجه الى الأهداف التي يتوخونها و يتطلّعون نحو تحقيقها . فيطمئن بذلك كل فرد في المجتمع الأسلامي الى أن المكاسب التي يكتسبها بعمله ستكون بالتالي له لا لغيره ، وهذا سيدفع بالمجتمع الى المزيد من العطاء .

ولكن كيف يثق المجتمع المسلم الذي يطبّق كل القيم والمناهج الاسلامية بهذه الحقيقة ؟ انه يثق بها عن طريق واحد وهو عبر ضرب كل يد سارقة تمتد الى مكاسب الجماهير، وقطعها بحزم و بسرعة . فحينما تقطع الأ يادي السارقة ، ولا يوجد في داخل المجتمع من يفكر أن يستغل الآخرين ، أو يستثمر جهودهم ، حينئذ تجد كل واحد يعمل مطمئناً لانّه يعلم بأن عمله سينتهي بالتالي اليه امّا مباشرة وامّا بصورة غير مباشرة .

ان المجتمع الاسلامي يحفر القنوات التي تصب فيها فاعليات الأفراد بحيث يكون ضفافها هي ضرب كل القيم الفاسدة ، فاذا كان الفرد في المجتمع يستطيع عن طريق السرقة ، أو الاحتيال أو الفسق أو الرشوة ، أو القوة ، أو الجاه والنسب ، أو عن أي طريق فاسد آخر، أن يحصل على عيشه ومكاسبه ، آنئذ لا يثق الآخرون بالعمل . ولماذا يعملون مادام الطريق الأ يسر والأسهل هو أن تسرق وترتشي وتنهب ، وتحصل على أي شيء عن طريق الخداع والتضليل .

وحينما يؤكد الاسلام على ضرب الأ يادي السارقة لجهود المستضعفين ، والكادحين من الجماهير، فليس لانّ هؤلاء مجرمون بحق أنفسهم أو أنّهم يسرقون بضعة دنانير فقط ، وانّما لكي يشيع في الناس الأمن فيعرفوا أنّ عملهم لا يذهب لحساب الآخرين لانّهم اذا خافوا من هذا الواقع ، وتصوروا أن عملهم سيذهب الى جيوب الآخرين ، آنئذ لا يعملون ، فتتوقف الدورة الاقتصادية في المجتمع .

ضرب القيم الفاسدة :

والأسلام يضرب جميع القيم الفاسدة التي قد يتذرع بها الناس في أكلهم لحقوق الآخرين . ومن هذه القيم ، قيمة النسب ، وقيمة العصبية الجاهلية ، وقيمة الغنىٰ ..

يقول رسول الله (صلى الله عليه وآله) حينما فتح مكة وقام علىٰ الصفا ، وهو يضرب قيمة النسب :

« يابني هاشم ، يابني عبد المطلب .. أنّي رسول الله اليكم ، واني شفيق عليكم ، لا تقولوا ان محمداً منّا ، فو الله ما أوليائي منكم ولا من غيركم الا المتقون . الا فلا أعرفكم تأتوني يوم القيامة تحملون الدنيا على رقابكم و يأتي الناس يحملون الآخرة » .

أي اذا جئت يافلان المنسوب الى رسول الله يوم القيامة وحملت معك البلاد التي فتحتها والأموال التي انتهبتها وما أشبه ، ثم جاء غيرك وحمل معه الزهد والتقوى والعمل الصالح آنئذ لا أعرفك أنت المنسوب اليّ بالنسب ، انّما أعرف ذلك الذي ينتسب الي بالعمل الصالح .

« الا واني قد أعذرت فيما بيني و بينكم ، وفيما بيني و بين الله عز وجل وان لي عملي ولكم عملكم » .

وفي حديث آخر عن الأمام علي عليه السلام قال :

« أن أولى الناس بالانبياء اعملهم بما جاءوا به ، ثم تلى قوله تعالى : « ان أولى الناس بأبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا » ثم قال (ع) : « ان ولي محمد من أطاع الله وأن بعدت لحمته ، وان عدو محمد من عصى الله وان قربت قرابته » .

فولي محمد (ص) ليس من ينتسب اليه نسباً و يبتعد عنه حسباً وعملاً ، انّما العكس هو الصحيح . وكذلك الانبياء (ع) وقصة نوح (ع) مع ابنه دليل على ذلك (١) . وكذلك أهل البيت (عليهم السلام) الذين كانوا يجهدون أنفسهم بالعبادة ولا يكتفون بأنّهم من أبناء رسول الله .

فهذا الامام زين العابدين عليه السلام ، الذي كانت حياته دليل على هذه السلوكية للأئمة (ع) وهي شاهدة على كذب و بطلان كلام أولئك الذين يحسبون أن مجرد الانتساب الى رسول الله ، يعطيهم صك الغفران يوم القيامة .

في رواية أن فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) أتت جابر بن عبد الله الانصاري صحابي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت له :

ياصاحب رسول الله ، ان لنا عليكم حقوقاً وان من حقنا عليكم اذا رأيتم أحدنا يهلك نفسه اجتهاداً أن تذكروه الله وتدعوه الى البقيا على نفسه ، وهذا علي بن الحسين بقية أبيه الحسين (ع) قد انخرم أنفه ، وثفنت جبهته ، وركبتاه وراحتاه .

يقول جابر : فأتيت باب علي بن الحسين (ع) فوجدته في محرابه ، قد أمضّته العبادة ، فنهض اليّ وسألني عن حالي سؤالاً حثيثاً ، ثم أجلسني ، فأقبلت عليه قائلاً : يابن رسول الله ما هذا الجهد الذي كلفته نفسك ، أما علمت بأن الله خلق الجنة لكم ولمن أحبكم ، وخلق النار لمن أبغضكم ، فقال له علي بن الحسين عليه السلام :

« يا صاحب رسول الله ، أما علمت أن جدي رسول الله قد غفر له الله من ذنبه ما

---

١ ـــ الآيات من ٤٢ - ٤٧ /سورة هود .

تقدم وما تأخر فلم يدع الاجتهاد ، وقد تعبد بأبي هو وأمي حتى انتفخ منه الساق وورم القدم ، فقيل له أتفعل ذلك وقد غفر لك الله من ذنبك ما تقدم وما تأخر فقال ، أفلا أكون عبداً شكوراً ؟! » .

هكذا كان علي بن الحسين ، انهم لم يكونوا يكتفون بأنّهم من أولاد رسول الله أو من أولاد علي أو من أولاد الحسين ، انّما كانوا يجهودن أنفسهم بالعبادة . كذلك العصبية فهناك من ينتفع بها تحت رايات شتى كالقومية الضيقة والوطنية المزيفة ، والاقليمية البغيضة التي لولاها لسقطت عروش ، ولولا القومية لتحطمت أحزاب مشبوهة ، ولولا الوطنية ، لما استطاع الطغاة أن يتحكموا برقاب الشعوب ، فهذه القيم الفاسدة هي التي مكّنت الطغاة من رقاب الجماهير. والاسلام يضرب هذه القيم الفاسدة لكي تعيش المجتمعات على أساس التقوى والعمل الصالح .

وكذلك العنصرية ، حتى الأنواع الخفية منها ، كالعنصرية الجنسية (حسب ما أسميها) اي تفضيل الرجل على المرأة ــ في المجتمع وليس في أطار الأسرة ــ ليس بالعمل ، وانّما لمجرد أنّه رجل وأنّها أمرأة .

ان القرآن الكريم يؤكّد بأن الرجال قوامون على النساء ولكن بماذا ؟ بما أنفقوا من أموالهم ، و بسبب ما تفضّل بعضهم على بعض بالعمل . فأذا كان هناك أمرأة كاتبة ورجل كاتب ، ولكن كتابة الرجل كانت أقل قيمة علمية من كتابة المرأة ، فأننا لو قدّمنا الرجل في هذه الحالة ، نكون قد كفرنا بقيمة التقوى والعمل الصالح .

ان الاسلام حين يضرب هذه القيم الفاسدة ، يصنع لجهودك حصنا ، و يكون الامر أشبه شيء بشاطئي النهر اللذين يحفظان مياهه ، فجهودك في المجتمع الذي تسود فيه القيم الفاسدة ، لا يمكن لها أن تثمر لأنّك مهما عملت واجتهدت فان نتيجة عملك سيكون للآخرين .

ان أحد أسباب التخلف في العالم الثالث هو قلة العلماء والمبدعين وهذا ليس لأنّ الله خلق البشر هنا أقل ذكاء وفطنة من العالم المتقدم . فالله أعطى للناس قدراً متساو ياً من العقل والذكاء ، ولكن في العالم الثالث كلما تكونت أدمغة من المفكرين والمهندسين والاطباء والخبراء الاجتماعين والسياسيين .. هاجرت الى اور با او الى

أمريكا .

والسبب أنّهم حين يكملون دراساتهم و يريدون ان يخدموا بلدهم ، يفاجؤون بأن من هم أقل منهم علماً وخبرة قد أصبحوا رؤساء عليهم لاعتبارات فاسدة كأن يكونوا من الأسرة الحاكمة أو من حملة الجنسية الكذائية .

حتى أنّه في سنة واحدة ، استفادت الولايات المتحدة الامريكية عشرين مليار دولار من الادمغة الهاربة اليها من العالم الثالث (١) . والسبب في ذلك هو عدم وجود احترام لقيمة العلم ، والعمل الصالح و بالتالي لقيمة التقوى في بلداننا ، بسبب سوء النظام الذي يسودها .

التقوى والعمل :

في وصيته لأ بي ذر، قال رسول الله (صلىٰ الله عليه وآله وسلم) : «يا أبا ذر، كن بالعمل بالتقوىٰ أشدّ اهتماماً منك بالعمل» .

وذلك لعدة أسباب :

السبب الأ ول :

ان التقوى ليس فقط تدفعك الى العمل ، وانّما توجد فيك تلك الدوافع المباركة التي تدعوك الى الاستمرار في العمل .

فكثير من الناس يندفعون الى العمل من وحي العواطف و بسبب ردود الفعل . وهؤلاء سرعان ما تخبو في أنفسهم جذوة العمل و يتوقفون و يتركون العمل و يكون ضررهم على العمل حينذاك أكثر من نفعهم ، كالذي يحفر الارض و يضع الأساس

---

١ ــ اكثر من ١٥٠٠٠٠ من الأدمغة العربية تركت خلال السبعينات و بداية الثمانينات سبعة أقطار عربية هي العراق ولبنان ومصر والمغرب والجزائر وسوريا والأ ردن ، وهاجرت للعمل في البلدان الصناعية .

كما أن ٣٠ـ٥٠٪ من العقول العربية المدّربة من أطباء ومهندسين وصيادلة تهاجر الى الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا . وفي أمريكا وحدها ٢٥٠٠٠ طبيباً مصرياً ، و ٤٢٪ من علماء السودان .

و يبني بناية الى نصفها ثم يتركها . فالارض كانت صالحة والمواد الانشائية كانت مفيدة للبناء . امّا الان فأنّه أشغل الارض وأفسد المواد الانشائية .

بينما الذي يعمل بدافع التقوى ، فانه يستمر في عمله ، ولذلك جاء في الحديث :

« قليل من العمل تدوم عليه خير من كثير لا تدوم عليه » .

السبب الثاني :

ان التقوى تصحح العمل . فالعمل اذا كانت وجهته وجهة باطلة ، فأنّه ظاهرا قد يكون كبيراً ومفيداً ، ولكنه في لحظة واحدة يتحطم و يكون مثله مثل بقرة حلوب ، تعطي مقداراً كبيراً من اللبن السائغ ولكن في آخر لحظة تضرب برجلها اناء الحليب فتقلبه .

كثير من الناس يعمل الواحد منهم ويجتهد ، ولكن في سبيل أي شيء ؟ في سبيل ان يصل الى الحكم ، وحينما يصل الى الحكم ، تراه يتحالف مع الشرق والغرب كي يستقر في الحكم ، مثل ما فعل بني صدر ، الذي ربما كان يعمل (١٨) ساعة في اليوم ولكن حينما كان هدفه هدفا فاسدا فانه أفسد أكثر مما نفع .

والقوى الكبرى كذلك تجتهد وتبني المصانع والمعاهد وتقوم بالدراسات العلمية المكثفة ، ولكن من أجل ماذا ؟

من أجل أن يصنعوا قنبلة ذرية ، وهيدروجينية ونيوترونية و بالتالي ليحطموا العالم !

اذن التقوى ضمان لوجهة العمل فالعمل الذي يكون وراءه دافع فاسد يكون ضرره أكبر من نفعه ، ولذلك فان رسول الله (ص) في أحدى غزواته رأى رجلاً مقتولاً فقال هذا شهيد الحمار ، لانّ هذا حينما رأى المسلمين يذهبون الى المعركة ، خرج معهم طمعاً في حمارٍ كان في جبهة العدو . ولكن الدائرة دارت عليه فقتله صاحب الحمار وهكذا خسر دنياه وآخرته . ومثل هذا في الحياة كثيرون ، يكون نتيجة جهدهم هباء منثوراً .

في يوم الخندق حينما جلس الأمام علي (عليه السلام) على صدر عمرو بن عبد ود العامري ، بصق عمرو في وجه الامام (ع) فقام الامام ومشى خطوات ثم عاد وأحتزّ رأسه . فتعجب المسلمون من ذلك وقد كانوا ينتظرون قتل عمرو ويخشون أن تحدث مفاجأة غير مرتقبة ، فسألوا علياً . .

لماذا أخّرت حزّ رأسه والاجهاز عليه ؟!

قال لانه بصق في وجهي فثار غضبي وكنت أريد أن يكون قتلي له خالصاً لوجه الله عز وجل دون أن يداخلني غضب لنفسي وانتقام لشخصي . وهكذا الاسلام يجعل العمل في اطار التقوى محوراً للمجتمع .

التقوى ضمانة ضد الأنحراف :

والعمل قد يخلّف رواسباً سلبية في نفس العامل ، الا العمل الصادر عن التقوى . فالأنسان الذي يعمل و يرجو جزاء عمله ولكنه لايرى ذلك ، يتراجع شيئا فشيئا و يصبح انساناً معقداً . أما المتقي الذي يعمل من أجل الله سبحانه وتعالى فانه لا يزداد بكثرة العمل الا اجتهاداً . لذلك يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأنسان عن العاملين في سبيله :

« لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ٭ إنّا نخاف من ربّنا يوماً عبوساً قمطريراً ٭ فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسروراً » .

٭ (١٠-١٢/الأنسان)

و بعدما تنظف أرضية المجتمع من القيم الفاسدة ومن الذين ينتمون الى هذه القيم و يعيشون عليها ، يبدأ الاسلام بعدئذ في دفع الفرد الى الجهاد . والجهاد غير العمل الصالح بالرغم من أن الاسلام يؤكد على العمل الصالح في ما يزيد على مائة وعشرين مرة في القرآن الحكيم ، فالجهاد هو أن تبذل كل ما لديك من جهد ومن امكانية فكرية ومادية وغيرها في سبيل الله ، والمؤمن الحقيقي يفعل ذلك لأنّه لايجد أمامه مانع من ذلك . بل يجد الدافع الكافي لذلك . وهنا نورد بعض الأحاديث الشريفة التي تركز القيم الصالحة في المجتمع الاسلامي . في الحديث عن الامام علي بن الحسين (ع) يقول :

« ان أبغض الناس الى الله عز وجل من يقتدي بسنة امام ولا يقتدي بأعماله » .

وهذه قيمة فاسدة تورط فيها كثير من المسلمين فهي سبب رئيسي لكثير من الكسل والتواكل داخل المجتمعات الاسلامية . انّهم يحسبون بمجرد ان قالوا نحن من أتباع علي

والحسين (عليه السلام) فان ذلك يكفيهم ، بينما القرآن والرسول والأئمة يقولون هذا لايكفي ، بل يقولون عنهم انّهم أبغض الناس الى الله عز وجل . لأنّ سائر الناس قد لا يعرفون الامام ، وهؤلاء يعرفون الأمام و يعترفون له بالامامة ولكنهم لا يطبقوا كلامه !

وفي حديث عن الامام الباقر (عليه السلام) يقول لجابر الجعفي :

« يا جابر بلّغ شيعتي عني السلام ، وأعلمهم أنّه لا قرابة بيننا و بين الله عز وجل ولا يتقرب اليه الا بالطاعة له ، يا جابر من أطاع الله وأحبنا فهو ولينا ، ومن عصى الله لم ينفعه حبنا » .

وفي حديث آخر (عنه عليه السلام) قال فيه لخيثمة :

« ابلغ موالينا إنّا لا نغني عنهم من الله شيئاً إلاّ بالعمل ، وأنّهم لن ينالوا ولايتنا إلاّ بالورع ، وأن أشدّ الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم خالفه الى غيره » .

هذه الأحاديث تضرب القيم الفاسدة ومنها قيمة ولاء الأمنية اي الولاء بالكلام دون العمل بما يأمر به الأمام .

و بعدما يؤسس الاسلام قاعدة العمل و ينظفها من الدخائل ، يدفع المسلم الى العمل .

عن رسول الله وهو يوصي ابا ذر و يوصينا جميعاً بأستغلال طاقاتنا من أجل كسب رضوان الله تعالى ، يقول صلى الله عليه وآله :

« يا أبا ذر: إغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك » .

وعنه صلىٰ الله عليه وآله وسلم قال :

« لا تزول قدم عبد يوم القيامة ، حتى يُسأل عن أربع . عن عمره فيم أفناه وشبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن حبنا أهل البيت » .

وعن الامام أمير المؤمنين قال لشيخ من أهل الشام :

« يا شيخ من اعتدل يوماه فهو مغبون ، ومن كانت الدنيا همته اشتدّت حسرته عند فراقها ، ومن كان غده شر يوميه فمحروم ، ومن لم يبال مارزء من آخرته اذا سلمت له دنياه فهو هالك ، ومن لم يتعاهد النقص من نفسه غلب عليه الهوى ، ومن كان في نقص

فالموت خير له » .

اليوم هو جزء من العمر فأذا ذهب دون أن يكسب الأنسان فيه أجراً عند الله ، فالموت خير له .

وفي حديث آخر يقول الامام علي (ع) :

« ما من يوم يمر على ابن آدم الا قال ذلك اليوم : يا ابن آدم أنا يوم جديد ، وأنا عليك شهيد ، فقل فيّ خيراً واعمل فيّ خيراً ، أشهد لك به يوم القيامة فانك لن تراني بعده أبداً » .

هذا الشعور هو الذي يدفعك الى العمل الجدي ، خصوصاً حينما يكرس فيك الاسلام الايمان بالآخرة فانّك تعرف بأن قدميك يوم القيامة لا تزولإن الا بعد ان تسأل عن كل أعمالك وتصرفاتك في الدنيا ، وكيف وفيم صرفت الطاقات والنعم التي تفضّل الله سبحانه وتعالى بها عليك .

اننا لو استوحينا من هذه الاحاديث الشريفة أسلوب حياتنا وقيم مجتمعنا ، لاستطعنا أن نبني ذلك المجتمع الحيوي الفاعل الذي يستطيع أن يخرق كل الحجب و يصل الى أهدافه بأندفاع وسرعة بأذن الله .

الفصل الثالث



الأستباق في الخيرات

للتنافس والأستباق الى الخيرات ، والمسارعة الى الجنة ، دوراً حاسماً وأساسياً في دفع المجتمع الى الامام وفي المحافظة على خطه العام . وفي الاسلام باعتباره الرسالة التي أنزلت بعلم الله المحيط بكل شيء ، تتوافق الأنظمة الاجتماعية تماماً مع ذلك الشعور النابع من أعمق أعماق الفطرة البشرية . فالاسلام من جهة يبعث فيك الاحساس بالتنافس والشعور بالاستباق و بالتالي يريدك أن تنظر الى الآخرين وتتحذ من عملهم مقياساً لحجم عملك . ومن جهة ثانية يدفعك الى ذات القيم التي تدفعك اليها فطرتك وقلبك وعقلك .

ومن هنا سنقسم حديثنا في هذا الفصل الى قسمين يبدو أنهما مختلفين ولكنهما في الواقع يكمل أحدهما الآخر .

في القسم الاول من حديثنا . نرجع الى الوراء قليلا لنكرر ما قلناه سابقاً حول ماهية الحياة .

الحياة في الجسم الحي عبارة عن وجود نواة ابتدائية صغيرة تتفاعل معها الجزيئات وتكبر هذه النواة مع المحافظة على وحدتها . والذي يحافظ على وحدة اليد مع العين مع الرجل ويجعل خليتين متباعدتين في جسم الانسان تتفاعلان وتعملان سو ية . هي الروح وعندما تنتزع هذه الروح . تنعدم الحياة . وتتجه كل خلية وكل مادة كيمياو ية في اتجاه معين . فالاملاح والمواد العضو ية تذهب الى الارض . والماء يتبخر والأ وكسجين يتطاير .. فيتحلل الجسد الواحد الى مئاة الملايين من الخلايا الغير متفاعلة مع بعضها

البعض .

وهكذا المجتمع الحي ، يتمحور حول نواة واحدة ، تربط بين أعضائه المختلفة ربطاً حقيقياً تماماً كأرتباط خلايا الجسد الواحد ببعضها .

في المجتمعات المؤمنة وجود الأحساس الديني عند كل الأفراد هو الذي يربط المؤمنين مع بعضهم في كل مكان .

والاحساس شيء معنوي لاينحصر في حيّز معين . فحينما نقول أن الشعور الديني النابع من الايمان الصادق بالله سبحانه وتعالى ، فلا نعني أن هذا الشعور يجري في جسدك كما يجري الدم في عروقك ، كلا وانّما هو شيء فوق المادي كما الجمال والعلم وحب الخير. وكلما تعمق هذا الاحساس وتبلورت هذه الفطرة في ضميرك وضميري وقلبك وقلبي ، كلما ارتبطنا أكثر وتبلورت وحدتنا أكثر ، واعتصمنا بذلك الحبل الذي يأمر القرآن الكريم بالاعتصام به :

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » .

(١٠٣/آل عمران)

وهكذا الأحاديث الشريفة التي تؤكّد على ضرورة العمل ، تحدد لنا واجب التنافس والمسارعة الى الخيرات ، فالأحاديث التي تدعونا الى التنافس ، من أجل أن يكون أحدنا أقرب الى الله من الآخرين ، انّما تبلور فينا تلك الفطرة القائمة فعلاً .

والشعور بالتنافس جزء من النزعة الأجتماعية في المجتمع وانها تشبه الروح في الانسان ، والاسلام حين ينمّي هذه النزعة و يطهرها ، فأنّما يضرب على الوتر الحساس . يقول تعالى :

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

(٦٢/البقرة)

يوحي هذا النص ان التنافس يجب أن يكون حول الايمان والعمل الصالح أي حول محور التقوى ، وأن ماعدا ذلك من القيم والاسماء والانتماءات لا تعني شيئاً بل أنّها سوف تتلاشى .

وفي آية أخرى يؤكد القرآن الحكيم لنا بان ما نعمله سنجده عند الله سبحانه ، هٰذه الآية تثير فينا دفوعات هائلة نحو العمل لأن الأنسان اذا أكتشف ان عمله سيبقى ولن يضيع فانه سيندفع الى العمل الصالح لانه يرى أن عمره يذهب ، أما عمله فيبقى ، فلماذا لا يستفيد من عمره الزائل من أجل عمله الباقي ، يقول تعالىٰ :

« وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ، ان الله بما تعملون بصير » .

(١١٠/البقرة)

ان كل عمل يعمله الانسان في طريق الخير فهو لك حتى لو كان من أجل الآخرين ، لأنّك حينما تعمل للآخرين ، فان هذا العمل سيتضاعف و يعود اليك من حيث تشعر أو لا تشعر.

وفي آية أخرى يقول الله سبحانه وتعالى :

« وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا انكم ملاقوه و بشر المؤمنين » .

(٢٢٤/البقرة)

وفي الآية الأخرى :

« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها و بينه امداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد » .

(٣٠/آل عمران)

وفي الآية الأخرى في سورة النساء تبين ذات الفكرة التي سبق وأن قلناها وهي أن المحور الأساسي هو العمل الصالح النابع عن الايمان الحق :

« ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً » .

(١٢٣-١٢٤/النساء)

و يقول :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

(قانانا\٨ــ٧)

أن أعمال الخير وأعمال الشر تبقى ولا تزول وهي محور جزاء الانسان في الدنيا والآخرة . ومن أجل أن يدفعك الاسلام الى أن تجتهد في سبيل عمل الخير ولا تدع عمل خير الا وتقوم به ، ولا تبقي من عمرك لحظة الا وتعمرها بعمل الخير، فان القرآن يبين أنّه في يوم القيامة سيُنصب ميزان توضع في كفة منه اعمال الأنسان الخيرة وفي الكفة الأخرى اعماله الشريرة وآنئذ يشعر الانسان بقيمة حبة الخردل من عمله ، هذه الأعمال الصغيرة التي نستهين بها ، يومئذٍ نشعر بقيمتها ، واذا كنا الآن عقلاء واستشعرنا أنفسنا وتحسسنا بذلك الموقف ، فالآن نستطيع أن نعمل وعملنا ينفع . ولكن بعد فوات الأ وان لا نستطيع أن نعمل ، فنندم ، والندم لا ينفع شيئاً وأعوذ بالله من ذلك اليوم . لذلك جاء في الحديث : « ودع فخرك الى الميزان » .

في ذلك اليوم اذا رجحت كفة الحسنات على كفة السيئات ، فيحق لك أن تفتخر ولكن اليوم قبل أن تعرف مصيرك لا تستطيع أن تقول شيئاً .

و يقول تعالى :

« وأما من خفَت موازينه فأمّه هاو ية وما أدراك ماهيه ، نار حامية » .

(٨ــ ١١/القارعة)

هذا مصيره .. الهاو ية التي هي نار حامية ، فهل الأفضل أن يعمل الانسان الخير أو لا يعمل ؟ أو أن يجتهد أو لا يجتهد ، ان القرآن الحكيم ورسالات الله تبلور للأنسان هذا الأحساس الفردي الذي تعيشه أنت بينك و بين الله ، حتى ولو كنت على قمة جبل . لذلك نرى المؤمنون المتقون الذين أيقنوا بأن الآخرة حق ، يتعبون أنفسهم ويجهدون ، بل يكادون يهلكوها بالعمل في سبيل الله .

وهذا الأحساس الديني هو الاحساس الذي لم يفهمه كثير من علماء الاجتماع لذلك أخطأوا في فهمهم للدوافع الذاتية عند الانسان ، كما يؤكد ذلك الكاتب الدكتور « قبّاري محمد اسماعيل » في الجزء الثالث من كتابه علم الاجتماع والفلسفة :

« وقد كانت آفة دوركايم أنه لم يميّز بين ماهو اجتماعي و بين ماهو فردي ، ولم يضع خطا فاصلا بين العنصر الفردي في الدين والعنصر الاجتماعي ، حيث أننا نجد بالضرورة أن الشعور الديني هو شعور جوهري ذاتي قبل أن يكون شعورا اجتماعياً » .

و يقول « أندرو لانج » وهو أحد العلماء الاجتماعيين البريطانيين :

« لقد بدأ العنصر الديني نقياً خالصاً ، ثم جاء العنصر الاجتماعي كي يغلّفه من الخارج بشعائر وطقوس ، فيحجب الغطاء الاجتماعي الشعور الديني ، و يطغى على الجوانب النقية » .

و يقول (رينيه لوسن) وهو احد علماء الأجتماع الفرنسيين :

« أن الشعور الديني ، هو القوة الروحية الباطنة التي تسمو بالانسان فترفعه من عالم المادة الى عالم الروح بدافع التجرد الخالص والحب العميق وعندئذ يتجلى الجليل سبحانه وتعالى للقلب الانساني و ينكشف في تجربة روحية خالصة ، وهنا تصبح الألوهية فكرة ذاتية محضة بالنظر الى الله تعالى كموضوع عبادة ومحبة » .

حينما يقترب الانسان الى الله سبحانه بفطرته الأولية النقية فانه يفعل ذلك حبا في الله ، واحساسا بضرورة الاتصال بينبوع المحبة والعظمة والجمال .

والأدعية التي تقرأ في شهر رمضان و بالذات دعاء البهاء الذي يقول :

« اللهم اني أسألك من بهائك بأبهاه ، وكل بهائك بهي اللهم اني أسألك ببهائك كله . اللهم اني أسألك من جمالك بأجمله ، وكل جمالك جميل ، اللهم اني أسألك بجمالك كله . . »

هذا الدعاء يثير في أعماق وجدان الانسان ذلك الأحساس الديني النقي النظيف المفعم حيوية وروحاً وصفاءً ونقاءً . ولو لم يكن عند الانسان هذا الاحساس ، فأن آلاف الأدعية والنصوص والتوجيهات لم تكن تنفعه شيئاً ، لذلك يقول أحد المفكرين وهو « برتيسون » :

« ان الدين يتصل بمنابعه في القلب لأنّه نزعة فطرية خالصة قد تدوم بالمعاناة في عزلة ، وقد تثمر في المجاهدة في خلوة روحية » .

ولقد أكد « ديسو » على قيمة التأمل الديني واكتسابه في العزلة حين يصل الانسان الى حالة الانجذاب فيتجلى الله سبحانه للفرد . هذا الاحساس الديني العميق في فطرة الانسان بالعمل و بضرورة خلاص الذات من أهوال يوم القيامة ومن النار ، يستفيد منه الاسلام اجتماعياً أيضاً ، فيجعله متوافقاً مع الشعور الاجتماعي ، وهذا هو الفرق الكبير

بين المجتمع الاسلامي والمجتمع الجاهلي الذي يعيش حالة الأنفصام والتنافس .

ففي هذا المجتمع يدعوك احساسك الداخلي الى الايمان ، والى الاجتهاد من أجل الله ، والى النقاء ، والى التقوى . بينما تجد في المجتمع الجاهلي يدفعك الى التنافس على المال ، وعلى الجاه ، وعلى السلطة ، وعلى القيم الفاسدة فتعيش آنئذ الانفصام ، وكلما تبتلع حبوباً مهدئة ، وتتجه (لاسمح الله) الى الخمرة ، والى القمار ، فانك لا تجد الراحة ، لأنّ الانسان الذي تتجاذبه قوتان مختلفتان في اتجاهين متضادين ، لا يقدر أن يعيش الراحة .

ان المجتمع الجاهلي مجتمع يعيش التنافس على القيم الزائفة في الخارج ، و يعيش الاندفاع نحو الدين في الداخل كبشر مفطور على حب الله ، لذلك لا يكون مجتمعاً هادئاً فاضلاً ، أما المجتمع الاسلامي فان ذلك التنافس الخارجي سيتمحور هو الآخر حول ذلك الاحساس الداخلي ، و بالتالي يعمق الحياة في هذا المجتمع ، لأنّه كما قلنا أن ذلك الاحساس الروحي الداخلي هو الذي يجمعنا مع بعضنا و يفجر فينا ينبوع الحياة ويجعلنا أمة واحدة .

لنقرأ الآيات الكريمة التي تدعونا الى التنافس على الخير وعلى العمل الصالح ، يقول القرآن الحكيم في سورة البقرة :

« ولكل وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات ، أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً ، ان الله على كل شيء قدير » .

(١٤٨/البقرة)

لا بأس أن يختلف الناس و يتفاضلوا بالميزات والأتجاهات العلمية والعملية ، ولكن بشرط أن تكون وجهات الجميع خيراً فجميع الأعمال اذا كانت صالحة ستجتمع بالتالي في اتجاه واحد .

في آية أخرى يبين القرآن الحكيم ان اختلاف شرائع الناس انما تخدم هدفاً واحداً ، وهو المسارعة الى الخيرات والمنافسة عليها .

يقول تعالى :

« وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم

الفاسقون * وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكلٍ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

(٤٧-٤٨/المائدة)

كان من الممكن أن يجعل الله الناس أمة واحدة ، ولكن أبى أن يخلق البشر هكذا . انّما جعل لكل منهم شرعة ومنهاجاً ، لماذا ؟

« ليبلوكم فيما آتاكم »

فهذا الاختلاف يخدم حكمة الله سبحانه وتعالى في الكون ، القاضية بأن يبلو الله البشر بالنعم التي أعطاها اياهم ، من العقل والقوة والمال ..

ليختبرك عن طريق وجود الاختلاف الذي يدفعك أنت و يدفع الآخرين الى العمل ، فالأعمال تتفجر من كل صوب و بالتالي تعمر الارض وتستخرج ما في الانسان والطبيعة من طاقات وامكانات وتسخر من أجل مصلحة البشر .

ان للانسان طاقات لا تحد ، وفي الطبيعة قوى لا تنفد والخلاف يفجّر طاقات البشر بأتجاه تسخير الطبيعة ، واستخراج كنوزها .

ان أضخم الانجازات البشرية ، كانت في ظروف الصراع الحاد ، وفي أيام الحرب الساخنة . لذلك قيل أن « الحاجة أم الأختراع » .

بيد أن اتجاه الخلافات البشرية كانت في مسير الهدم . فروسيا وأمريكا ، ومن يدور في معسكريهما يتسابقون اليوم في صنع المزيد من اسلحة الدمار التقليدية والنوو ية التي يكفي المخزون الجاهز منها لتدمير العالم (١١) مرة .

أنّهم لا يتنافسون في القضاء على السرطان أو تنمية العالم الثالث أو استغلال المحيطات لخير البشرية .

وخلاصة فأن التسابق أمر طبيعي بين الناس ، ولكن الشيء المهم عند الأسلام هو أن يكون هذا التسابق في تجاه الخير ومرضات الله سبحانه .

الحوافز الأجتماعية

قبل أن نخوض في موضوع الحوافز الاجتماعية للانسان المسلم نحو عمل الخير، لابد أن نمهد للحديث ببيان حس التوافق الاجتماعي الموجود عند الانسان وكيف أن الاسلام يستثمر هذا الحس في سبيل دفع أبناء المجتمع نحو العمل الصالح .

نظريات حس التوافق الاجتماعي .

هناك نظريتان اجتماعيتان متناقضتان ، الاولى تقول بأن الانظمة الاجتماعية مفروضة على الانسان كما الحقائق الطبيعية مفروضة عليه ، فكما أن الحرّ والبرد والظلام والنور والليل والنهار، وكما أن الصحة والمرض والشباب والشيخوخة ، تفرض ذاتها على الانسان بحيث لا يستطيع الفرد التخلص من ضغطها فكذلك الأنظمة الاجتماعية .

امّا النظرية الثانية وهي أحدث من النظرية الأولى وأقرب الى العقل والعلم ، فتقول : أن النظام الاجتماعي يستلهم قوته وشرعيته من داخل الانسان ، فكل فرد من أبناء المجتمع ينجذب بدافع ذاتي نحو تطبيق الانظمة والقوانين الاجتماعية على نفسه وبدون ضغط خارجي فأول ما يتعلم الانسان الطاعة انّما يتعلمها من أمه والأم هي ينبوع الحنان والحب ، والطفل الرضيع لا يطيع أمه خوفاً منها أو طمعاً في لبنها وانّما حباً لها ، ومن ثم حينما ينمو الطفل في محيط ملؤه الحب والحنان ودفؤه العاطفة ، آنئذ تراه أميل نحو اقتباس القيم والعادات التي تسود ذلك الجو العائلي .

بينما الطفل الذي يعيش في مجتمع الصرامة والقسوة ، قد تكون ردة الفعل عنده تجاه

هـذه الـصرامة أقوى من حس توافقه مع المجتمع الصارم . فالمجتمعات التي تعيش الحب والحنـان ويحـسـب كـل فرد فيها نفسه أباً وأخاً وأبناً لسائر أبناء المجتمع ، تعيش التوافق الاجـتـماعي وأبناؤها يطيعون قيمها وتقاليدها أكثر من المجتمعات التي تسودها الصرامة والعنف .

وتضيف هذه النظرية بأن احساس الانسان الداخلي هو الذي يدفعه نحو التنافس مع الآخـريـن ، وتـقـلـيـدهـم ، والـكلمة العربية الشائعة التي تقول (حشر مع الناس عيد) لا تـدل على أن الـنـاس هم الذين يفرضون على الفرد أن يحشر نفسه معهم ، انّما هو الذي يحب أن يـصـبـح جـزءاً منهم . والتجارب الحديثة التي قام بها علماء النفس والاجتماع وعـلـمـاء الـتـر بـيـة ، استنبطوا منها هذه الفكرة وهي أن أقوى الغرائز عند البشر هو حسّ التوافق الاجتماعي أي التكيّف مع سائر أبناء المجتمع .

والمثـال الـتـالي يـضـرب به علماء الاجتماع في هذا الحقل : لقد دلت التجارب على أن الـعمل الجماعي أكثر حيوية وأنتاجاً من العمل الفردي ، فقد جعلوا فرداً يعمل لوحده في غـرفـة ، وآخـرون في غـرفـة أخـرى يـعـملون . فاذا قيل لهذا الفرد بأن أولئك الذين هم في الـغـرفة المجاورة يعملون مثلما تعمل ، فانه يزداد نشاطاً و بالتالي يزداد إنتاجاً . أمّا اذا لم يـفـهـم ذلـك فـانـه سـيتباطأ عن العمل . فمجرد أن يشعر الانسان بأن آخرين أنىّ كانوا يعملون نفس العمل الذي يقوم به ، فان ذلك يدفعه الى زيادة نشاطه .

وهـنـاك تجـر بـة بسيطة يمكنك أن تجر بها بنفسك ، قل لانسان ما قصة عن نشاط فرد آخـر ، حـتـى ولـو كـان ذلـك الـفـرد رجـلا تاريخياً .. ترى أن هذه القصة ستخلف أثرها العاجل عليه ،فيزداد نشاطه .

اذن وفق هذه النظرية وهي النظرية الاحدث والاقرب الى التجارب العلمية وكذلك الاقـرب الى البصائر الاسلامية ، نصل الى هذه النتيجة وهي أن التوافق مع أبناء المجتمع وتـقليد الناس الآخرين و بالتالي اتباع سلوكياتهم وطرق عملهم ومستو يات انتاجهم انما هو نابع من فطرة البشر ومن غريزته الذاتية .

والاسـلام يحـفـزك نحو العمل باثارة احساس التوافق مع الآخرين ، وذلك عبر ثلا ثة أساليب :

الاول : القدوات الصالحة :

يجعل الاسلام للفرد قدوات صالحة ، يعطي لها شرعية اجتماعية و يرفعها عالية أمام عينيك ليتخذ أبناء المجتمع منها منهاجاً لعملهم ومقياساً لمدى انتاجهم وحيو يتهم .

فالانبياء مثلاً نرى أن القرآن يركّز عليهم فيذكر قصصهم ولعشرات المراة .. ولا يحدثنا عن الملائكة ، وما يتميزون به من مثابرة واجتهاد وقوة عظيمة ، مع أن الحديث عن الملائكة ربما يكون أفضل ظاهراً من صبر أيوب أو استقامة نوح ، أو جهاد هود وما أشبه ، السبب في ذلك هوان الأنبياء بشر مثلك ، فعندما تسمع قصة نبي كأيوب عليه السلام الذي صبر على البلاء ، فانك ستتفجر حيو ية وتندفع نحو اتباع سيرته وأنتهاج نهجه . وكذلك تأكيد الاسلام على الأئمة (عليهم السلام) ووجوب ولا يتهم ، لأنك حينما تحب وليا من أولياء الله ، وتعتبره اماما لك وحجة بينك و بين الله سبحانه وتعالى ، فانك ستبحث دائماً عن سيرته وتفتش عن نهجه ، وتحاول تطبيق ذلك المنهج وتلك السيرة على نفسك .

وكذلك تأكيد الاسلام على المؤمنين الصادقين ، وتأكيده على الأب الصالح والأستاذ الصالح والصديق الصالح وضرورة أتباعهم .

فاذا كان في المحلة التي تعيش فيها رجل صالح ، صادق اللسان والعهد ، محسناً مخلصاً ، سبّاقاً الى الخيرات .. فأن الأسلام يأمرك بأتخاذه قدوة لان هذا الرجل الصالح سيحشر يوم القيامة حجة عليك كما جاء في الأحاديث ، حيث أن الله سبحانه وتعالى سيأتي بهذا الرجل و يأتي بك و يقول لك .. هذا رجل كان يعيش في المنطقة التي كنت تعيش فيها ، وأنت كنت تعرفه ، وظروفه كانت تشبه ظروفك ، والضغوط التي كانت عليه مشابهة للضغوط التي واجهتها فلماذا أصبح هذا مؤمناً صادقاً ، وأنت لم تصبح كذلك ؟ .

الأسلوب الثاني : التنافس الأيجابي :

لماذا يشدّد الاسلام على صلاة الجماعة في المسجد أو خارجه .. و يقرّر أن المجتمعين فيها اذا زاد عددهم على خمسين شخصاً ، فلا يحصي ثواب تلك الصلاة الا الله سبحانه

وتعالى ؟

إن الصلاة هي الصلاة ، ولكن من أحد أهداف صلاة الجماعة انك حين تقف مع الآخرين تصلي ، فانك ستسعى لأن تصبح صلاتك أكثر خشوعاً وأقرب الى السنة والآداب والمستحبات ، لان الله فطر البشرية على حس التوافق مع الآخرين . فأذا كنت في صلاة الجماعة وأستولت على أحد المصلين حالة الخشوع والتهجد وأخذ يبكي في صلاته ، آنئذ تحس بنقص ، فتقول في نفسك لماذا يخشع و يبكي في صلاته وأنا لا أخشع ولا أبكي ؟ لماذا تحصل عنده هذه الحالة ولا تحصل عندي ؟ وحينها تشعر عميقا بضرورة الوصول الى مستواه ، وهذا شعور طبيعي بالنسبة لك ، لذلك يحرص الاسلام على الصلاة جماعة .

والاسلام يأمرنا بأن نعلن بعض الأعمال الصالحة التي نقوم بها . فالصدقة مثلاً مستحبة في السر والعلن . فالصدقة الواجبة يستحب أن تكون علناً لأنك حينما تدفع الزكاة والخمس والكفارة وما أشبه من الصدقات الواجبة أمام الآخرين ، فانّهم يتشجعون على دفع صدقاتهم اذ ينمو فيهم الاحساس بالتنافس والتوافق الاجتماعي .

والأسلام حين يأمر بالتنافس مع الآخرين على الخيرات ، فانّه يضرب سورا بين المجتمع المؤمن الموحّد و بين المجتمع الكافر المشرك ، و يثير حسن التوافق الاجتماعي فقط بينك و بين المؤمنين من أخوتك . وهذا التقسيم منذ البداية يجعلك منتمياً الى ذلك المجتمع المؤمن الصادق ، ويجعل حس التوافق فيك متوجها الى هذا المجتمع ، وليس الى تلك المجتمعات المنحرفة . لذلك ترى الاسلام يؤكد بأنك اذا كنت في مجتمع فاسد فمن الضروري أن تكبح جماح هذا الأحساس الذاتي الذي فطرت عليه ، وهو الاحساس بالتوافق الاجتماعي .. فعن الأمام الحسن المجتبى (عليه السلام) قال :

« حشرٌ مع الناس عيد ! وهل حشر مع الناس في جهنم عيد » .

الأسلوب الثالث تبادل المنفعة :

العلاقة بين أبناء المجتمع الاسلامي ليست علاقة تراكمية ــ كميّة ــ وانّما هي

علاقة تفاعلية عضوية . فالاسلام لايريد أن يجمع الناس في المسجد كجمع البرتقال في صناديقه ، وانّما يريد أن يجمعهم كما تجتمع قطرات الماء فتتحول الى سيل عظيم . وهذه صفة المجتمع الحي الذي يتفاعل أبناءه بحيث يضاف كل واحد الى الآخر اضافة كيفية يتشجع بالآخر، و يتعاون و يتكامل معه . فكل جزء من أجزاء الانسان وكل حركة من حركاته وكل نشاط من نشاطاته ، يتكامل مع الجزء المقابل عند الانسان الآخر.

في وصية للأمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) توضح لنا هذه الحقيقة . يقول (عليه السلام) :

« وأي كلمة جامعة أن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لها » .

إن هذه هي الكلمة الجامعة والحكمة الرشيدة التي تعتبر قاعدة لسائر الحكم والمواعظ والوصايا حيث تعلمنا كيف نتكامل مع الآخرين ، ونتفاعل معهم . ثم يضيف الامام قائلا :

« إنّك قلّما تسلم ممن تسرعت اليه أو تندم اذا فضلت عليه ، واعلم أن من الكرم الوفاء بالذمم ، والصدود آية المقت ، وكثرة العلل آية البخل » .

يقول الامام علي (ع) : بأن الانسان الذي يصد خيره عن الآخرين ، انّما يجلب مقتهم وغضبهم على نفسه وأن من يتعلل و يتعذّر بأعذار واهية ، انّما يكشف عن البخل الكامن في ذاته . فحينما يأتيك رجل طالب حاجة فأعطه حاجته ، ولا تتعلل بالأعذار.

« وبعض امساكك على أخيك مع لطف خير من بذل مع جنف » .

يقول الامام : حينما تريد أن تعطي للآخرين لا تعطهم تمننا ، أعطهم ولو شيئا قليلاً ولكن مع اللطف وهو خير من أن تعطيهم شيئاً كثيراً ثم تحملهم المنّة .

« ومن الكرم صلة الرحم ومن يثق بك أو يرجو صلتك اذا قطعت قرابتك » .

أي أنك اذا قطعت قرابتك فمن الذي يرجو منك الصلة .

« التجرّم وجه القطيعة احمل نفسك من أخيك عند صرمه اياك على الصلة ، وعند صدوده على لطف المسألة ، وعند جوده على البذل ، وعند تباعده على الدنوّ، وعند شدته على اللين ، وعند تجرّمه على الأعذار، حتى كأنك له عبد وكأنه ذو النعمة عليك ، واياك أن تصنع ذلك في غير موضعه أن تفعله في غير أهله » .

الاسلام يريد أن يجعلك تندفع وتحاول أن تصلح ما بينك و بين أبناء المجتمع ، فاذا رأيت صدودا أو منعا أو قطيعة من قبل الآخرين ، فحاول أن تبادر بالخير اليهم . ان هذا الاحساس الذي ينبع من ذات الانسان هو الذي يجعل المجتمع الاسلامي مجتمعاً حيو ياً ، لذلك يؤكّد الامام علي (ع) على هذه الفكرة و يضيف :

« ولا تتخذن عدو صديقك صديقاً فتعادي صديقك » .

الى هذا المستوى يأمرك الاسلام بأن تحافظ على مشاعر أصدقائك . فاذا رأيت رجلاً يعادي صديقاً من أصدقائك فلا تقترب الى ذلك الرجل لان ذلك جفاء لصداقتك مع صديقك .

« ولا تعمل بالخديعة فانه خُلُقٌ لئيم ، وامحض أخاك النصيحة ، حسنة كانت أو قبيحة » .

اذا رأيت فعلا حسناً عند أخيك أو قبيحاً فأعطه النصيحة محضاً دون تشو يه أو تضليل ، ودون زيادة أو نقيصة .

« وساعده على كل حال ، وزل معه حيث زال ، ولا تطلبن مجازاة أخيك وان حثا التراب بفيك » .

« وجُد على عدوك بالفضل ، فانّه أحرى للظفر » .

أي حتى اذا كان هناك عدو لك فحاول أن تجود عليه بالفضل طالما أنّه لم يعلن الحرب و يشهر السيف عليك .

« وتسلم من الدنيا بحسن الخلق وتجرع الغيظ ، فاني لم أرجرعة أحلى منها عاقبة ، ولا ألذ منها مغبة . ولا تصرم أخاك على الثياب ، ولا تقطعه دون استعتاب ولن لمن غالظك فانّه يوشك أن يلين لك » .

اذا رأيت من أخيك مالا يحمد واردت أن تقاطعه فقبل ذلك أذهب اليه وعاتبه فاذا لان فلن له ، أمّا اذا بقى على تلك الأخلاق غير الحميدة فيمكنك أن تقاطعه .

انظروا الى هذه التعاليم ، وتدبروا فيها .. أنّها تهدف الى خلق الحيو ية الذاتية داخل المجتمع المسلم ، وليس فقط جمع أبناء المجتمع الى بعضهم ، انّما ايجاد الروابط الداخلية الوشيجة بين القلوب ، لتكون هي الحصن لهذا المجتمع .

حيوية المجتمع

كيف يجعل الاسلام المجتمع حيوياً فاعلاً ؟

هناك مرحلتان للوصول الى هذا الهدف :

اولاً : ايجاد التماسك داخل كيان المجتمع .

ثانياً : ابعاد العقبات التي تعترض فاعلية المجتمع .

بالنسبة الى المرحلة الاولى ، نتساءل كيف يربط الاسلام البشر بعضهم ببعض ويجعلهم متماسكين ؟

للاجابة على هذا السؤال لابد أن نعرف ، أن هناك قوتين تتجاذبان أنشطة الانسان ، قوة العقل ، وقوة الشهوات ، وكل مجتمع أمّا أن يكون قائماً على أساس قوة العقل ، أو على اساس طاقة الشهوات ، بينما نجد بعض المجتمعات تخلط بين الشهوات والعقل ولكنها في ساعات الحسم تعود أمّا الى العقل وأمّا الى الشهوات . والمجتمع الاسلامي يبني أساسه على قوة العقل لا قوة الشهوات ، وقيمة المصلحة وما أشبه ، ينسفها الاسلام نسفاً و ينظف المجتمع منها ولا يبقي الا قيمة واحدة ، وهي قيمة التقوى التي تعتمد أساساً على قوة العقل .

بين الحب والشهوة :

وهذه القيمة حينما تدخل علاقات المجتمع تسمى بالحب وهنا لابد أن نذكر بالفرق

الكبير بين الحب والشهوة . حينما تقول أنا أشتهي البرتقال ، فذلك يعني أنك تريد أن تأكله ، وحينما تقول أشتهي السيارة فذلك يعني أنك تريد أن تركبها وتستهلكها .. أمّا الحب فهو شيء آخر.. أنت تحب الله يعني تحب أن تعبد الله ، وتخضع له وتطيعه ، تحب المستضعفين يعني تريد أن تخدمهم وليس أن تستخدمهم ، تحب الصالحين يعني تريد أن تعمل بهداهم وتنصرهم ، اذن فالشهوة هي أنك تريد شيئاً أو شخصاً من أجل مصلحتك ، من أجل غريزتك ، من أجل شهواتك ، أمّا الحب فانّك تريد نفسك من أجل ما تحبّه .

أن الحب هو أعمق مشاعر العطاء والاحسان والبذل والانفاق عند الانسان ، وكما خلق الله سبحانه وتعالى قوة تدعوك الى اتلاف الأشياء واستخدام الأشخاص من أجل ذاتك وهي قوة الشهوات ، كذلك أغرز في قلبك قوة تدعوك الى العطاء للأشياء وللأشخاص والبذل من أجلهم . وكما تشعر باللذة والمتعة تجاه استفادتك من الأشياء ، كذلك بنفس المقدار وأكثر تشعر باللذة حينما تعطي نفسك للأشياء والأشخاص .

إن لذة الانسان الذي يجلس في مطعم كبير و يطلب مائدة من ألذ الموائد ، ليست أكبر من لذة ذلك الانسان الغني الذي يفرش لمجموعة من الأ يتام والارامل والمستضعفين والمساكين مائدة غنية فيأكلون منها وهو ينظر اليهم . وان لذة الانسان الذي يعدم رجلا من أجل مصلحته ومن أجل ذاته ومن أجل سلطانه وطغيانه ، ليست بالتأكيد أكثر من متعة الانسان الذي ينقذ غريقاً من الماء أو يقوم بجراحة ناجحة لقلب مريض مشرف على الموت . إنّ اللذة ذات اللذة ، وانك في كلتي الحالتين ستحصل على نفس المطاليب ، ونفس الاهداف والغايات ، ولكن امّا عن طريق الشهوات الدنيئة وامّا عن طريق العقل الرفيع .

ان المجتمع الاسلامي مبني على أساس الحب ، ونقرأ في القرآن الحكيم تلك الآية التي تحدد ملامح المجتمع الأسلامي ، ملامح الحزب الذي يسميه القرآن بحزب الله وهو الحزب الذي لا يعرف الحدود والالفاظ والشعارات وما أشبه حيث يقول الله سبحانه وتعالى :

« يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه » .
.(٥٤ / المائدة)

الحب في الله والبغض في الله :

قاعدة التجمع الاسلامي الرسالي هي الحب ، أنّك تحب الآخرين فلا تبحث كيف تستفيد منهم وتستثمرهم وتستغل طاقاتهم ، وانّما تبحث ابداً كيف تخدمهم ، وكيف تضحي بذاتك من أجلهم . ونجد في كثير من الأحاديث المأثورة عن الأئمة أن ارفع درجات الايمان ، أن تحب لله وتبغض لله . اذا أردت أن تجرّب نفسك هل أنت مؤمن ، أم لا تزال نسبة من الشرك والنفاق في نفسك ، فهذه هي التجربة ، انظر ما هي علاقتك بالآخرين ولماذا ترتبط بهم ؟ هل من أجل أن يخدموك أو من أجل أن تخدمهم ؟

فان كانت علاقتك بهم لاستغلالهم فاعلم بأن نسبة من النفاق ما تزال في قلبك ، واذا رأيت العكس فاعلم بأنك نقي القلب ، صافي الايمان ، وانك اذا متّ في تلك اللحظة سوف تحشر مع المحسنين لانّ هذه هي صفتهم ، وهي أنّهم يحبون الناس ، ويخدمونهم ، وتؤكّد الاحاديث على هذه الحقيقة مرة أخرى حينما تقول :

« أحبب أخاك المسلم وأحبب له ما تحب لنفسك ، وأكره له ما تكره لنفسك »

هذا هو الايمان ، اذا أردت أن تغتاب أحداً ، فقل في نفسك هل أرضى بأن يغتابني أحد ، كلا . اذن لا تغتبه ، اذا أردت أن تتهم الآخرين ، اذا أردت ان تسيء الظن بهم ، اذا أردت أن تغلبهم ، اذا أردت سوءً بهم . كلما أردت من هذه الصفات السيئة شيئاً فاعلم من جهة ثانية بأنّك مادمت لا ترضى بهذه الصفات لنفسك فحريّ بك الا ترضاها للآخرين وهم أخوتك .

اذا ثبّتنا هذه القاعدة الأصيلة وهي قاعدة الحب الاجتماعي ، آنئذ نستطيع أن نبني على هذه القاعدة بناءنا الأجتماعي . وهناك بعض العقبات تعترض بناء هذه القاعدة ولكن الاسلام سرعان ما يصفيها ، ثم يوجد بالمقابل العوامل التي تشجّع على الحب .

عقبات حب الآخرين :

من العقبات الرئيسية الكأداء التي تعترض حبك للآخرين هي سوء الظن بهم ، لذلك القرآن الحكيم يقول :

« اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم » .

(١٢ / الحجرات)

هناك بعض القلوب معقّدة لذلك تراها تفسر كل عمل تفسيراً معكوساً . فأن صلى أحد أمام الناس قالوا هذا مرائي ، وان صلّى في الخفاء قالوا هذا تارك لصلا ته ! وإن أعطى الزكاة علانية ، قالوا يريد الشهرة ، وأن أعطاها بالسر ، قالوا بخيل !

كثيراً ما تسيء الظن بأخيك المؤمن وهو من أولياء الله وقد جاء في الحديث الشريف أن الله سبحانه وتعالى قد أخفى أولياءه في عباده ، وكثيراً ما ترى شخصاً فتستصغره وتذكره بسوء فاذا به من أولياء الله الصدّيقين لذلك جاء في الحديث الشريف :

« احمل فعل أخيك المؤمن على سبعين محملاً »

جاء رجل الى الامام موسى الكاظم (عليه السلام) وقال أتعرفون فلاناً ؟ قال الامام نعم ؟ قال اني أشك في ولايته لكم . قال كيف ؟ قال كنت معه عند أحد كبار الأمراء في بغداد فسأله هذا الأمير عنك فقال لا أعتقد بامامته ، فقال الامام الكاظم (ع) : ان الرجل أفقه منك ، فلا تسيء الظن به ، و يبدو أن الرجل كان من الطيبين فتأثر كثيراً وقال يا ابن رسول الله ماذا أفعل حتى أصلح خطأي ؟ ليس لي مال حتى أعطيه ، فسكت الامام ولكن الرجل بادر وقال انّي اهب له يوم القيامة ثواب نصف أعمالي ، فقال له الامام : الآن خرجت من النار . أنّك قد تظن بأخيك المؤمن سوء ، ولكنه قد يملك عملاً صالحاً يقوده الى الصلاح الكامل ، بينما تملك أنت عملاً سيئاً يسوقك الى الفساد فالنار .

ولقد قرأت قصة لكاتب كان يعمل في تحضير الأ رواح وله كتاب يبحث في هذا الموضوع ، يقول أحضرت روحاً من الأرواح ، فسألته عن وضعه فأجابني بأنّه في وضع سيء جداً ، ووصف العذاب الذي يعيشه في عالم الآخرة بحيث أنني الآن ، و بعد مرور

ثلاثين سنة ، كلما تذكرت في يوم ما قاله لي ذلك الميت طارت البسمة من شفتي .

يقول فسألته : هل كنت مؤمناً في الدنيا ؟ قال نعم ، هل كنت تصلي ؟ قال نعم .. تزكي ؟ نعم .. تبرّ بالوالدين ؟ نعم . كل أعمال الخير كان يعملها فسألته فلم هذا العذاب ؟ قال لأنّي كنت سيء الظن بالآخرين .

نسف الحواجز الأجتماعية :

أمّا العقبة الثانية التي ينسفها الاسلام فهي الحواجز الاجتماعية التي تفصل الناس عن بعضهم ، وعندما يحدثنا الاسلام عن هذه النقطة فانّه يتفجّر غضباً وتأتي كلمات النصوص لاهبة وكأنّها الحمم البركانية . حينما تتحدث النصوص عن الغيبة وعن التهمة وعن النميمة وعن الفحش ، بل وأكثر من ذلك تجد الاسلام مع تأكيده على حرمة الكذب وأن الكذب مفتاح الشر، مع ذلك يقول .. الكذب في الاصلاح صدق عند الله سبحانه وتعالى ، والصدق في الافساد ــ أي افساد الناس بعضهم مع بعض ــ كذب عند الله سبحانه وتعالى لماذا ؟

لانّ العلاقات الاجتماعية يجب أن تكون نظيفة ، فحينما يأتي اليك شخص و يتحدث لك عن شخص آخر بحديث سوء ، فسوف تخلق في قلبك عقدة نفسية تجاه ذلك الشخص ، وهذه العقدة تبقى ، كلما تراه من بعيد تتذكر كلام ذاك الشخص في حقه ، حتى لو كان كلامه عنه خطأ ولكن النفس البشرية تتأثر حتى بالكذب ولا يريد الاسلام أن تحدث بين الاخوة حواجز نفسية ، فمن جهة يقول لك لا تغتب ، ومن جهة ثانية يقول لذلك الشخص لا تسمع غيبة . فاذا جاءك أحد وأراد أن يغتاب شخصاً عندك فاذا أصغيت اليه فأنت شريكه في الجريمة .

ويحكى عن العلّامة بحر العلوم وهو من كبار علماء المسلمين وزهادهم ، انّه كان في مجلس فأذا به يخرج منه باكياً ، فظن الجالسون بأن عقرباً قد لدغه فاتبعوه وسألوه .. مم بكاؤك ؟

قال كيف أجلس في مجلس يغتاب فيه المؤمنون ؟!

لكي يتفوق المجتمع

تفوق المجتمعات على بعضها لا يكون بالكميّة العددية ولا بالأمكانيات المادية ، ولا بالقادة الافذاذ الذين يبرعون في هذا المجتمع دون غيره ، وانّما بالحيويّة و بالتفاعل .

والتطورات الحضارية على مختلف أبعادها لاتحدث أساساً الآ بهذا السبب فضمن المجتمع الكبير المتراخي الذي يفقد السلطة المركزية ، ولا يملك تفاعلاً ذاتياً ، ولا قدرة أتخاذ القرار الحاسم ، ولا سرعة التحدي والمواجهة ، تنبت نبتة اجتماعية صغيرة تتسم بالفَاعلية والحيوية والقدرة على الجذب والاستقطاب و بسرعة تستطيع هذه النبتة اليانعة ، المتواضعة ظاهراً ، النشيطة والمتماسكة واقعاً على أن تجمع الأفراد الأكثر نشاطاً وطهارة وفداء من بين أبناء المجتمع الكبير وتستقطبهم حول محورها ، وتجمع صفوة الفكر والمعارف والتجارب وتمتص خيرة القدرات والامكانات و بالتالي تتخذ القرارات الحاسمة بسرعة ، وتملك القدرة المركزية لتنفيذها ، وتملك ارادة التحدي والمواجهة في مقابل الأعداء . هذه النبتة الصغيرة تتحول بعد فترة الى قوة هائلة بينما يذوب شيئاً فشيئاً ذلك المجتمع الكبير في تيار هذا المجتمع الحيوي الصغير.

والذين كانوا مع النبي محمد (ص) كانوا أقلية في العدد ، ولكنهم الأكثرية في النوعيّة ، ليس فقط لأن الواحد منهم كان يقابل عشرة بل وأيضاً لان الا ثنين منهم كانا واحداً .. والثلاثة كانوا واحداً .. والعشرة كانوا واحداً . كانوا يتحركون باتجاه واحد ، وتنفيذ القرارات كان سريعاً ، والتعاون كان سائداً بينهم ، وكان كل واحد منهم يكمّل الآخرين ، فلا يبقى في المجموع أي نقص . لذلك استطاعوا أن ينتصروا على ذلك

المجتمع الكبير، وهذا هومعنى الحيو ية .

والظروف الراهنة التي تعيشها أمتنا الاسلامية تشبه الى حد بعيد تلك الظروف التي عاشتها الرسالات الألهية في بداية انطلاقها . فمع ان عدد المسلمين اليوم يربو على مئة مليون مسلم ، الا أننا لا يمكننا بصورة فجائية أن نفجّر طاقاتهم الايمانية ، ونكوّن منهم المجتمع الاسلامي الفاضل الذي هو خطوة في طريق بناء المجتمع الانساني المثالي ، وانقاذ جميع مستضعفي الأرض ، فهذه طريقة بعيدة جداً ، لأن أفكار الأنسان وقدراته والامكانات المتاحة له كفرد أو كمجموعة صغيرة محدودة جداً ، ومهما بذلت من محاولات للتوعية والتوجيه وكشف الحقائق أمام جماهير الوطن الأسلامي فانها بضآلتها الكمية لا تستطيع أن تواجه سيل الاذاعات والصحف والافلام والتوجيهات التي تبثها الجاهلية العالمية عبر شبكاتها الاعلامية .

اذن الذي ينبغي على الرسالي أن يفعله هو ان يبني تلك الصفوة التي تكوّن المجتمع الاسلامي الحقيقي ، فيعود الى مرحلة الرسالة الاسلامية في مكة المكرمة ، حيث قام الرسول بتكوين ذلك المجتمع الصغير عدديا والكبير نوعياً وذلك عبر ثلاث عشرة سنة كان (ص) يواصل فيها الليل بالنهار في بناء الطليعة الثائرة وهم صفوة المؤمنين الذين أصبحوا رواد الحضارة الاسلامية في القرن الأول الهجري ، وأصبح التابعون لهم والمتأثرون بهديهم ، قادة الحضارة الأسلامية عبر التاريخ ، وكان القائد الاسلامي الذي يفتح مثلا بلاد الأندلس يفتخر بأنّه من تلاميذ تلاميذ أبن مسعود ، وأنّه أخذ العلم والتقوى من تلاميذ سلمان الفارسي أو من أبي ذر الغفاري وغيرهم .

هذا هو المجتمع الذي يشبه النبتة الحيّة في الصحراء القاحلة ، حيث لا تلبث أن تتحول الى حقل واسع و يانع .

وأقول لكل المؤمنين في الساحة الاسلامية ان عليهم أن يكوّنوا من مجموعاتهم المتواضعة ، هذا المجتمع المنشود وذلك بين الصفوة المختارة من الذين يستطيعون التعرّف عليهم .. اذا كوّنوا ذلك المجتمع بأصوله وقيمه و ببرامجه ومناهجه فانّه لا يلبث بحيو يته ونشاطه وتكامليته أن يكبر حتى يحطّم الطغاة و يفرض نفسه على الساحة الاجتماعية كلها ، فيستقطب العناصر الجيدة ، و يبعد العناصر الفاسدة ، وهكذا عبر تحول جذري

يشبه التحول الكيميائي في الحياة يصبح هذا التجمع هو السيد وهو القائد .

ان الاسلام لا يمكن أن ينتصر الا بالاسلام ، ولا يمكن أن نقيم المجتمع الاسلامي الا باقامة المجتمع الاسلامي ، أي أننا اذا أردنا أن نطبّق الاسلام فيجب أن نطبّقه عملياً في واقعنا ، واذا أردنا أن نقيم المجتمع الاسلامي فيجب أن نقيمه في بيتنا ، و بين بعضنا ، لكي نعطي النموذج الحي لفكرتنا التي نريد أن نطبقها .

وعامة الناس عندما يرون تعامل المؤمنين مع ازواجهم وابنائهم واخوانهم . و يرون تجمعهم الايماني الفاضل في المسجد ، كيف يتحابون و يتوادون و يتعاونون في الله وكيف يكمّل بعضهم بعضاً ، وكيف يقف بعضهم وراء بعض فسوف يكفيهم هذا النموذج دليلاً وشاهداً على صدق الرسالة .

انني أدعو الجميع الى أن يطرحوا على أنفسهم هذا السؤال : من أين يجب أن يتحركوا ؟

وفي أي مجال يجب أن يبذلوا جهودهم ؟

ان الانسان كانسان ، اذا أراد شيئاً فليس هناك في الحياة ما يحول بينه و بين ارادته ، هذه سنة الله وهذه هي الحقيقة التي ضَمنَها الله سبحانه وتعالى للبشرية ، انّه عهدٌ بين الله و بين الانسان أن يتركه حرّاً في الدنيا .

ولكن بالرغم من ذلك نرى أن كثيراً من الحركات الاسلامية تود تطبيق الاسلام واقامة المجتمع الاسلامي ، ولكنها لا تفلح في ذلك ، لماذا ؟ لانّها لا تعرف أن الطريق الصحيح هو اقامة المجتمع الاسلامي أولاً في نفسها وواقعها ، وهذا قد يقضي عليها بالاعتزال والتقوقع لفترة ، وتحمّل كل التضحيات اللازمة الناتجة عن ذلك ، من أجل صنع النواة الاجتماعية الحيوية الفاعلة .

والأحاديث التي نذكرها انّما هي برامج عمل لنا ولكل العاملين في الساحة الذين يستبد بهم الألم من واقع أمتهم ، و يهدفون الى اقامة حكم الله ، واذا لم نطبقها ، فلا نتمنى اقامة حكم الله ، لانّ اقامة حكم الله ليس بالأماني وانّما بالجدّ والأجتهاد ، والتضحية والفداء .

ضرورة اعتزال المجتمع الجاهلي :

عندما دعا قوم موسى (عليه السلام) ربّهم أن ينجيهم من فرعون ، قال الله سبحانه وتعالى لهم :

« وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوّءالقومكما بمصر بيوتاً ، واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة و بشر المؤمنين » .

(٨٧/يونس)

فاعتزال المجتمع الجاهلي ، واقامة المجتمع الاسلامي على شكل بيوت متقابلة الى بعضها واقامة الصلاة ، واعطاء الأمل ، هو الخطوة الأولى في طريق أقامة حكم الله ، وهكذا فعل أصحاب الكهف ، الذين يقول عنهم ربنا :

« واذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلاّ الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربّكم من رحمته و يُهيء لكم من أمركم مرفقاً » .

(١٦/الكهف)

أنّهم اعتزلوا المجتمع المنحرف ، و بنوا مجتمعهم الخاص بعيداً عنه .

وكثيرة هي التوجيهات الاسلامية التي وردت في شأن اعتزال المجموعات الكافرة والجاهلية أو حتى في اعتزال أولئك الذين لا يهتمّون بواقعهم الفاسد الساكتين عن الظلم .. المستسلمين للوضع الشاذ الفاسد .

ان المسلم يجب لا يبقى في هذه القضية الحساسة غيرعابيء ، و يظن أنّها غير هامة . أنّها قضية مهمة جداً ، أن تفتش عن أصدقائك .. وأن تنتمي الى المجتمع الفاضل وتعتزل المجتمع الجاهلي ، واللامبالى . فليس لك الحق اذا كنت رسالياً أن تصادق أيا كان ، وأن تتزوج أية امرأة ، وأن تعمل في أي عمل شئت . أن عليك أن تجعل أعمالك وأفكارك وارتباطاتك وحتى علاقاتك الشخصية موجهة باتجاه بناء المجتمع الاسلامي الرسالي الفاضل . ثم التحرك لنشر هذا المجتمع داخل الأمة الاسلامية كلها والله سبحانه وتعالى يؤكّد في بعض الآيات على هذه الفكرة فيقول :

« فآمن له لوط ، وقال اني مهاجر الى ربي انّه هو العزيز الحكيم » .

(٢٦/العنكبوت)

قد تهجر قومك بالابتعاد عنهم وتسكن مع المؤمنين في كهف كما فعل أصحاب الكهف أو في عزلة كما فعل أصحاب موسى أو ما أشبه ، أو حتى في بيوت يسمونها (بيوت الفريق) وهي بيوت العمل الرسالي أو العمل الثوري أنى كان ، فيمكنك أن تعيش فيها كما فعل أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله ، فقد كانوا يعيشون في دار زيد بن الأرقم ، المهم أن تهاجر بعيداً عن المجتمع الجاهلي ، واللامبالي ، لا أقول تهجر هذا المجتمع لتجعل بينك و بينه فواصل وحواجز يستطيع الاستعمار وأذنابه أن يستغلها ، ولكنني أقول العزلة المؤقتة لبناء المجتمع ، وهكذا فعل لوط (ع) . والامام الصادق (ع) يوجه الانسان الى هذه الناحية بطريقة معينة يبعده عن المجتمع العام ، يقول (ع) :

« ان الله عز وجل أوحى الى نبي من أنبياء بني اسرائيل إن أحببت أن تلقاني غداً في حظيرة القدس فكن في الدنيا وحيداً غريباً مهموماً محزوناً مستوحشاً من الناس بمنزلة الطير الواحد الذي يطير في أرض القفار و يأكل رؤوس الأشجار و يشرب من ماء العيون فاذا كان الليل أوى وحده ولم يأو مع الطيور . استأنس بربه ، واستوحش من الطيور » .

هذا الطير مثل يضرب به الله سبحانه وتعالى لأولئك الذين يفتشون عن هدفهم ، ولو كان بالابتعاد عن الآخرين ممن لا يعيشون واقعهم وتطلعاتهم وأهدافهم .

وفي الحديث القدسي :

« ان من أغبط أوليائي عندي عبداً مؤمناً ذا حظّ من صلاح ، أحسن عبادة ربه ، وعبد الله في السريرة وكان غامضاً في الناس ، فلم يُشر اليه بالأصابع ، وكان رزقه كفافاً فصبر عليه ، تعجلت به المنية فقلّ تراثه وقلت بواكيه » .

و يقول الامام علي (ع) نقلا عن عيسى (ع) :

« طوبى لمن كان صمته فكراً ، ونظره عبراً ، ووسعه بيته ، و بكى على خطيئته ، وسلم الناس من يده ولسانه » .

وفي حديث آخر عن الأمام علي (عليه السلام) :

« طوبى لمن لزم بيته ، وأكل قوته واشتغل بطاعة ربه ، و بكى على خطيئته ، فكان

من نفسه في شغل ، والناس منه في راحة » .

وفي حديث الامام موسى بن جعفر لهشام يقول (عليه السلام) :

« يا هشام .. الصبر على الوحدة علامة قوة العقل ، فمن عقل عن الله تبارك وتعالى اعتزل أهل الدنيا والراغبين فيها ، ورغب فيما عند ربه ، وكان الله أنيسه في الوحشة وصاحبه في الوحدة وغناه في العيلة ومعزّه من غير عشيرة ، ياهشام ، قليل العمل من العاقل مقبول مضاعف ، وكثير العمل من أهل الهوى والجهل مردود » .

وعن الامام الهادي (ع) يقول :

« لو سلك الناس وادياً وسيعاً ، لسلكت وادي رجل عبد الله وحده خالصاً » .

فتش ولو عن صديق واحد يكون في طريقك فهذا أفضل من عدة أصدقاء يمشون في طريق الشر.

ركيزة التجمع الأيماني :

كما بيّنا ان الوصول الى المجتمع الفاضل لا يكون الا عبر عملين متكاملين : الاول عبر بناء حواجز بيننا و بين المجتمع الجاهلي ، لكي لا نتأثر بسلبياته ، والثاني : ان نبني داخل هذا الحصن الذي نحصن أنفسنا به ، مجتمعنا المثالي الفاضل ، ولكن حينما ندخل حصن الايمان وحصن المجتمع الاسلامي فلابد أن نبني هذا المجتمع على أساس الحب في الله ، والبغض في الله ، هذا الحب وهذا البغض النابعان من ايماننا بقيمة محوريّة واحدة في كل الحياة ، تلك القيمة هي قيمة التقوى .

يقول الامام علي عليه السلام ، عن رسول الله (ص) ، أنّه قال لبعض أصحابه ذات يوم :

« يا عبد الله ، أحبب في الله ، وأبغض في الله ، ووال في الله ، وعاد في الله ، فانّه لا تنال ولاية الله الا بذلك ، ولا يجد رجل طعم الايمان وإن كثرت صلا ته وصيامه حتى يكون كذلك ، وقد صارت مؤاخاة الناس يومكم هذا أكثرها في الدنيا ، عليها يتوادّون ، وعليها يتباغضون ، وذلك لا يغني عنهم من الله شيئاً ، فقال له : وكيف لي أن أعلم أنّي

واليت وعاديت في الله عز وجل ؟ ومن وليّ الله عز وجل حتى أواليه ، ومن عدوّه حتى أعاديه ؟ فأشار له رسول الله الى علي (عليه السلام) فقال : أترى هذا ؟ فقال : بلى ، فقال : ولي هذا ولي الله فواله ، وعدو هذا عدو الله فعاده .. وال وليّ هذا ولو أنّه قاتل أبيك وولدك ، وعاد عدوّ هذا ولو أنّه أبوك وولدك » .

وعن الأمام الصادق عليه السلام قال :

« من أحب كافراً فقد أبغض الله ، ومن ابغض مؤمناً فقد أبغض الله .

ثم قال عليه السلام :

صديق عدو الله عدو الله » .

فاذا رأيت رجلاً يعادي الله بعمله وفكره ، فصادقته فانك تصبح عدوا الله سبحانه وتعالى .

وعنه عليه السلام :

« هل الدين الا الحب .. ان الله عزّ وجل يقول (قل إن كنتم تحبّون الله فأتبعوني يحببكم الله) » .

وعن فيصل بن يسار قال : سألت الصادق (عليه السلام) عن الحب والبغض أمن الأيمان هو؟ فقال : وهل الأيمان إلاّ الحب والبغض . ثم تلا قوله تعالى : « حببّ اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان اولئك هم الراشدون » .

وعنه عليه السلام قال :

« من حُبّ الرجل لدينه حبه لاخوانه » .

وعن العسكري عليه السلام قال :

« حب الأبرار للأبرار ثواب للأبرار، وحب الفجّار للأبرار فضيلة للأبرار، وبغض الفجّار للأبرار زين للأبرار، وبغض الأبرار للفجار خزيٌ على الفجّار» .

أن المحور في الحياة هم الأبرار، فاذا أحبوا أحداً دلّ ذلك على أنّه من الأبرار وهو زين له ، واذا أحبهم أحد فهذا شيء طبيعي ، واذا أبغضهم فاجر يدل عى أنهم على حق ، أنك اذا عاداك رجل فاجر فلابد أن تحمد الله وتعرف بأنّك على حق ، فمقياس الحب والبغض يدور حول محور واحد وهو محور البر والفجور .

وعن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال :

« من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله ، فهو ممن كمل ايمانه » .

وفي حديث آخر يقول :

« من أحب الله وأبغض عدوه ، لم يبغضه لوتر وتره في الدنيا ، ثم جاء يوم القيامة ، بمثل زبد البحر ذنوباً كفّرها الله له » .

وفي حديث آخر يقول :

« من أوثق عرى الايمان أن تحبّ في الله وتبغض في الله وتعطي في الله وتمنع في الله » .

وعنه عليه السلام قال :

« ان المتحابّين في الله يوم القيامة على منابر من نور ، قد أضاء نور وجوههم ونور أجسادهم ونور منابرهم كلّ شيء حتّى يعرفوا به ، فيقال : هؤلاء المتحابّون في الله » .

وعن الامام الباقر (عليه السلام) قال :

« أذا أردت أن تعلم أنّ فيك خيراً فانظر إلى قلبك ، فأن كان يحبّ أهل طاعة الله عزّ وجل و يبغض أهل معصيته ففيك خير والله يحبّك . وإذا كان يبغض أهل طاعة الله ويحبّ أهل معصيته فليس فيك خير، والله يبغضك ، والمرء مع من أحب » .

وعن الامام الصادق (عليه السلام) قال :

« كلّ من لم يحب على الدين ، ولم يبغض على الدين ، فلا دين له » .

وعن الباقر (عليه السلام) قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ودُّ المؤمن للمؤمن في الله من اعظم شعب الأيمان ، ألا ومن أحبّ في الله وابغض في الله واعطىٰ في الله ومنع في الله فهو من أصفياء الله » .

التكامل العضوي والتنظيم الداخلي

ماهو الفرق بين زبر الحديد ومحرك السيارة ؟ الفرق هو أن زبر الحديد لا تملك تنظيماً داخلياً ، فلو جئت بقطع من الحديد الخردة تتألف من البراغي والأسطوانات والمكابس وما أشبه ، وأوقدت تحتها طناً من البنزين فأنّها لا تتحرك بوصة واحدة . أمّا لو جئت بلتر واحد من البنزين ، وأوقدته في بيت النار في محرك السيارة ، فانّها ستتحرك مسافة عدة كيلومترات .

وهكذا الفرق بين المجتمع المنظّم والمجتمع الغير منظم . وفي القرآن نجد مثلاً لمجتمع غير منظم كان يتعرض لهجوم الأعداء دون أن يستطيع أن يصدهم . يقول تعالى :

« قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض ، فهل نجعل لك خرجاً على ان تجعل بيننا و بينهم سداً ٭ قال ما مكنّي فيه ربّي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم و بينهم ردماً ٭ آتوني زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطراً ٭ فما استطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقباً » .

لقد كانوا يواجهون مشكلة خطيرة تهدد حياتهم وكيانهم ، ولكنهم لم يعرفوا كيف يحلّونها برغم توفر كل عناصر الحل عندهم ، فما كان من ذي القرنين الا أن وحّدهم ونظم قواهم ووجههم بحيث يستفيدون من الامكانات والطاقات التي كانت متوفرة لديهم ، واذا بهم يقومون بانجاز صناعي حضاري وهو ذلك السدّ الضخم الذي حيّر أعداءهم وأفشل خططهم في الغزو والاحتلال .

والمجتمع الاسلامي الرسالي الذي ذكرنا ضرورة انشائه ولو كان ضمن مجموعة

صغيرة كمرحلة أولية ، يتميّز بالتنظيم والتكامل العضوي بين أفراده ، وهذا هو السر في انتصار المسلمين في بادىء أمرهم حيث كونوا مجموعات صغيرة من المجاهدين كانت تتحرك عبر الفيافي المترامية ، فاذا بهم يسحقون الجيوش الضخمة التي كانت مجهزة بكل الوسائل الحربية والامكانات المادية المتوفرة آنذاك .

وعندما ينادي الاسلام بضرورة التنظيم ، فانّه لا يريده على النمط الغربي الذي ينبني على مجموعة من الأجراءات المعقدة المتشابكة التي يصبح الفرد جزءاً منها ، ولا يعرف من أين يبدأ والى أين ينتهي في خضم ذلك الروتين المحيّر والمعطّل للكثير من النشاطات البشرية البناءة .

ان التنظيم في الاسلام يعني التعاون السهل الميسور بين المسلمين ، والتكامل العميق بين أفكارهم ومشاعرهم ونشاطاتهم في تجاه تطبيق شريعة السماء السمحة ، والتي تمكّن المجتمع من الاستفادة من كل طاقاته وامكاناته كما يستفيد محرك السيارة من كل قطرة من الوقود الموجود في خزانها .

انني لم أعثر في خلال تتبعي ودراستي للجيوش الاسلامية في التاريخ على كلمة تعبّر عما يسمى بالتعبئة (لوجيستيك) أي فن تحريك الجيوش ونقل المؤن والامدادات وما أشبه .

فقد كان المجاهدون الذين يؤلفون الجيوش الاسلامية في صدر الأسلام يقومون في الليل بتنظيف أسلحتهم ، وترتيب معداتهم بأنفسهم وكانت نساؤهم معهم يقمن بخدمتهم وتضميد جرحاهم ، وكانوا يندفعون للقيام بالأعمال العظيمة ، والانجازات الكبيرة بعفوية وبدون أي تعقيد او نظام روتيني جامد ، وبدون أن يكون لديهم ما يسمّى بالانضباط الحربي الذي يستخدم اليوم لمراقبة الجنود واكراههم على القيام بالأعمال المطلوبة عن طريق فرض العقوبات المختلفة .

وكان المجاهدون المسلمون في عز المعركة وفي الساحات الدامية يتفقهون ايضاً في الدين ، كما يقول القرآن الحكيم :

« فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين » .

(٢٢/التوبة)

هذه الآية نزلت ــ حسب أغلب التفاسير ــ حين كان المسلمون في غزوة مع رسول الله (ص) ، وقد كان بين المحار بين مجموعة من كبار المهاجرين والأنصار يلتفون حول النبي (ص) ، و يتلقّون منه تعليمات الرسالة الاسلامية ، وعندما يعودون الى قومهم ، كانوا يعلمونهم ما تعلموه ، فيشكلون بذلك جهازاً تنظيمياً لنشر التعاليم الاسلامية من الرسول (ص) الى الجماهير العريضة في وقت كانت وسائل النشر والاعلام بدائية ومحدودة .

والآن حينما نريد أن ننشىء ذلك المجتمع الحيوي الصغير القادر على استقطاب طاقات الأمّة نحتاج الى هذه الحالة التنظيمية التي لا يتحكم بها الروتين المعقد ولا المزيد من الشعارات والقرارات والدساتير التي لا يتعدى كونها حبراً على ورق ، وانّما تخلقها التعاليم الاسلامية العظيمة عبر توجيهاتها الصائبة التي تعود على الأمّة الاسلامية بالمكاسب الهائلة .

ومن هذه التعاليم :

اولاً : مبدأ الشورىٰ :

يقول القرآن الحكيم :

« وأمرهم شورى بينهم » .

(٣٨/الشورىٰ)

و يقول :

« وشاورهم في الأمر » .

(١٥٩/آل عمران)

وتقول الأحاديث الشريفة :

« أعقل الناس من جمع عقول الناس الى عقله ، وأعلم الناس من جمع علوم الناس الى علمه » .

« من شاور الرجال شاركها في عقولها »

ان المسلم ينبغي أن يعلم أن قراره في أي أمر، يجب الا يكون نابعاً من هواه وشهوته وجهله ، بل من عقله وارادته ، ومن رؤيته و بصيرته . لذلك فهو دائماً يفتش عمّن يستشيره في القضايا الهامة ، من اصحاب العلم والخبرة ، وأهل الاخلاص والتقوى ، و بهذا يكون قادراً على مزج فكره وتجربته مع ما يمكن أن يستفيده من أفكار وتجارب الآخرين ، فتكون قراراته بالتالي حكيمة ورشيدة دون أن يحتاج الأمر الى دراسات مطولة واجراءات معقدة ، لأنّ تفاعل العقول مع بعضها يختصر الزمن الى حد كبير، وهذه سنة طبيعية لا سبيل الى انكارها .

ثانياً : القيادة :

يهتم الاسلام كثيراً بمسألة القيادة في المجتمع و يضع لها مواصفات وشروطاً دقيقة ، ليضمن بذلك سير المجتمع في الطريق الصحيح ، ويحول دون تصادم وتناقض أفكار ونشاطات الأفراد مع بعضها البعض مما يخلق عقبات أمام تقدم المجتمع ان لم تؤدّي الى تراجعه وتخلفه .

والقيادة الصحيحة في المجتمع الاسلامي تتركز امّا في شخص الرسول (ص) ، أو في الائمة المعصومين من أهل بيته عليهم السلام ، الذين عينهم بأمر الله ، أو فيمن تتوافر فيهم صفات العلم والعدالة والتقوى والكفاءة والشجاعة من العلماء الأعلام الذين هم نوّاب الامام المعصوم (ع) في غيبته و يكون لهم وحدهم الحق في تعيين القيادات التنفيذية على رأس كل تنظيم داخل المجتمع .

يقول تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » .

(٥٩/النساء)

« انّما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة وهم راكعون » .

(٥٥/المائدة)

« فسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » .

(٤٣/النحل)

هذه الآيات وكثير غيرها تعطي مواصفات واضحة للقيادة الاسلامية ، وتضفي عليها أهمية بالغة بربطها مباشرة بطاعة الله وولايته .

ثالثاً : التشجيع المتبادل والنهي عن التثبيط :

الانسان بطبيعته يحتاج الى من يشجعه على العمل والنشاط ، ولذلك ترى المسلمين عندما يقوم أحدهم بمهمة فان الآخرين يقبلون عليه فيشجعونه . و بهذه الطريقة يعطي البعض الآخر العزيمة والارادة ، وقد تلعب كلمة تشجيع واحدة دوراً مؤثراً في صنع مصير انسان وتقويم مسيرة حياته . يقول تعالى :

« وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »

(٣ / العصر)

و يقول :

« ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة »

(١٧/البلد)

والتشجيع هو بعض أقسام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فاذا رأيت انساناً يصلي صلاة الليل فقل له أحسنت ، ان صلاة الليل نور ، ولا تقل له يامرائي ، ياكذاب ، يامنافق !

ان مثل هذا الكلام التثبيطي مدعاة الى الضلال والانحراف . والواقع ان التخذيل مرض اجتماعي متفش حالياً بيننا بشكل يبعث على الأسى لأنه يعرقل كثيراً من النشاطات البنّاءة ، والأعمال الصالحة التي يمكن أن تستفيد منها المجتمعات بشكل فعّال .

رابعاً : ازالة الحجب القائمة بين الأفراد :

ان نصف واجبات الاسلام ووصاياه على الأقل ، انما جاءت بهدف هدم الحواجز

التـي يمـكـن أن تـفـصـل المؤمنين عن بعضهم مثل العصبيات بسائر أقسامها وأسمائها ، والـكـبـر والـغـرور، والحـقـد ، والحسد ، وسوء الظن .. هذه القائمة الطويلة السوداء من الـصـفـات الـسيئة التي جاء الاسلام للقضاء عليها واجتثاثها من جذورها . وقد تتعجب مـن قـول الـرسـول (ص) : « انمـا بـعثت لأتمم مكارم الاخلاق » ولكن المجتمع الذي لا أخـلاق لـه والذي يفصل بين أبناءه الحسد والبغضاء ، ولا يثق فيه المرء بأخيه ، والذي لا يـقـوم على قاعدة الحب في الله والبغض في الله .. هذا المجتمع لا يمكن أن يصلّى أو يزكّي أو يـعـبـد الله أو يـبـني حضارة أو يعمل أي شيء مفيد ، إن مجتمع الحسد والبغضاء ليس مجتمعاً اسلامياً أبداً ، ولا يمكن أن ينبعث الخير منه .

إذن القضية الأساسية هي الحاجة الى مجتمع التكامل والتفاعل ، الذي يهدم الحواجز بين أبـنـائـه ، و يـنـظـم نفسه داخلياً ، وآنئذٍ يستطيع أن ينتصر على كل قوة خارجية تريد إذلاله واستعباده ونهب خيراته وثرواته .

وهـنـا نورد بعض الأحاديث الشريفة التي تعالج بعض الحواجز الشيطانية التي تفتك بالمجتمع والتي من الصعب على الأنسان أن يتخلص منها إلّا باتوكل على الله سبحانه .

عن رسول الله (ص) قال :

« الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » .

و يقول الأمام علي (ع) :

«اجتنب الغيبة فانها إدام كلاب النار» .

و يقول الرسول (صلى الله عليه وآله) :

« كذب من زعم انه ولد حلال وهو يأكل لحوم الناس بالغيبة » .

و يقول في النهي عن سوء الظن :

« احمل فعل أخيك على سبعين محملاً » .

و يقول :

« ضـع أمر أخيك على أحسنه حتىٰ يأتيك منه ما يغلبك ، ولا تظننّ بكلمة من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً »

و يقول الامام الصادق (ع) :

« من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته أذناه فهو من الذين قال الله عزوجل :

« ان الذين يحبون أن تشيعْ الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم »

فرواية أقوال وتصرفات الآخرين الغير لائقة وان كانت صحيحة ، هي من الغيبة التي ينهى الاسلام عنها ، وتعليل ذلك كما تشير اليه الآية الكريمة هو ان هذا الأمر مما يشيع الفاحشة في المجتمع فيشجع الآخرين و يعطيهم المبرر لارتكاب ذات الأعمال السيئة .

وفي حديث آخر يؤكد الامام (ع) فيه على هذه الفكرة فيقول :

« الغيبة أن تقول في أخيك ما هو فيه مما قد ستره الله عليه . فأمّا إذا قلت ما ليس فيه فذلك قول الله « فقد احتمل بهتاناً واثماً مبيناً » » .

و يؤكد رسول الله (ص) ، على بشاعة عمل ذو الوجهين ودور هذه الصفة في فصم عـــرى الاخوة الاسلامية وتفتيت المجتمع الرسالي فيقول :

« من مدح أخاه المؤمن في وجهه واغتابه من ورائه فقد انقطع ما بينهما من العصمة » .

وفي حديث مروي عن رسول الله (ص) يقول فيه :

« أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى ، يسقون من حميم الجحيم ، ينادون بالويل والثبور . يقول أهل النار بعضهم لبعض : ما بال هؤلاء الأربعة قد آذونا على ما بنا من الأذىٰ ؟! فرجل معلق في تابوت من جمر ، ورجل يجرّ أمعاءه ، ورجل يسيل فوه قيحاً ودماً ، ورجل يأكل لحمه ، فيقال لصاحب التابوت ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ فيقول ان الأبعد قد مات وفي عنقه أموال الناس لم يجد لها في نفسه أداء ولا وفاء . ثم يقال للذي يجر أمعاءه ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ فيقول ان الأبعد كان لا يبالي أين أصاب البول من جسده . ثم يقال للذي يسيل فوه قيحاً ودماً ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ فيقول ان الأبعد كان يحاكي ، فينظر الى كل كلمة خبيثة فيسندها ويحاكي بها (١) ثم يقال للذي يأكل لحمه ما بال الأبعد قد

---

(١) هذا هو الأنسان الذي يفتش عن السلبيات في المجتمع فينقلها من انسان لآخر ، كالذبابة التي تنقل الميكروبات فتنشر الأمراض .

آذانا على ما بنا من الأذى ؟ فيقول ان الأ بعد كان يأكل لحوم الناس بالغيبة ويمشي بالنميمة » .

هذا هو تنظيم الله سبحانه .. انه تنظيم لا يقوم على المزيد من الشعارات والقرارات الجوفاء ، وانما يقوم على تبادل الحب ورفع الحجب والتكامل العضوي في جوّ من الحيوية والنشاط والعزمة الشديدة لتطبيق أحكام السماء .

الصراع الحضاري

الصراع القائم بين الاسلام والجاهلية صراع ذو أبعاد مختلفة ، ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية وعسكرية و بالتالي فهو صراع حضاري شامل لا يختص بجانب من جوانب الحياة دون جانب آخر. وهذا الصراع الشامل لايمكن كسبه الا بتكثيف الجهود وتركيزها . فلا يمكن ان نقاوم الغرب أو الشرق الذين يسعيان للتسلط علينا وقهرنا ، عن طريق الثورة السياسية وحدها ، أو بالعمليات العسكرية فحسب ، أو بالثورة الثقافية فقط ، أو بالتحدي الاقتصادي والوصول الى الاكتفاء الذاتي في حقل الانتاج وانّما علينا أن نقاوم الحضارات المادية العدوانية ، بتأسيس حضارة أسلامية متكاملة الأ بعاد .

وحينما نقول حضارة فاننا نقصد بها التحول الثقافي والأجتماعي ومن ثم الاقتصادي والسياسي والعسكري والعمراني ، وفي كل الجوانب وعلى مدى واسع . وكذلك العمل من أجل تكوين كياننا ، لمقاومة الاعداء عن طريق تكثيف وتركيز كل الجهود . وذلك غير ممكن الا عن طريق البرامج الرسالية . ذلك لأن الحضارات المادية قد سبقت الحضارات الروحية من حيث الوسائل ، فلابد أن نتسلح بسلاح لايوجد عند أصحاب تلك الحضارات ، ونركب قاطرة أسرع من تلك التي امتطوها حتى بلغوا هذا المستوى ، وهذه القاطرة ليست فقط الأخذ بالعوامل المادية ، وإنما كذلك الأخذ بالبرامج الروحية .

وهذا لايعني ان نسد كل الابواب فلا نستفيد من تجارب الآخرين ولا نطّلع على ما يجري في المجتمعات الأخرى ، وأنّما علينا أن ننفتح على العالم ولكن دون أن ننسى تلك

الميزات الحضارية التي نمتلكها .. وتلك الاسلحة الحاسمة التي لا تزال بأيدينا ، والتي ينبغي أن نجعلها في حسابنا لنستفيد منها عملياً . فمن دون ذلك لا نصل ، الى اي واقع ايجابي .

ان الوصول الى الحضارة الحق غير ممكن الا عبر البرامج الروحية ، وان اولئك الذين يريدون أن يصلوا بأمتنا الى مستوى حضاري ارفع من الحضارات الغربية دون أن يأخذوا الجانب الروحي بنظر الاعتبار ، هؤلاء فاشلون سلفاً . وكل الأحصائيات العلمية والتحليلات السياسية والبحوث الاجتماعية تؤكد على فشلهم هذا ، لأنّ الفجوة تتسع يوماً بعد آخر و بكل أبعادها بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة .

فكيف نلحق بهم ؟ وكيف نردم هذه الفجوة الآخذة في الا تساع ؟

ان الجهود التي بذلت عبر القنوات القومية أو الوطنية ، أو القنوات الحزبية أو الاشتراكية وما أشبه كانت جهوداً جبارة ، ولكنها ليس فقط لم تنجح في ردم الفجوة بين الدول المتخلفة والدول المتقدمة وانّما ساهمت في زيادة اتساعها ، لأنّها كانت بضاعة الأجنبي ردّت اليه ، ولان هذه الجهود صبت بالتالي في تلك القنوات التي حفرتها الامبريالية بطريقة تعود مرة أخرى وتصب لصالحها .

وآخر تجربة غربية ماثلة أمامنا هي تجربة حزب البعث الذي اسسه رجل غربي الأصالة والفكر وهو ميشيل عفلق . الذي استوحى من الاشتراكية الاوربية والفلسفة القومية الاوربية جوهر نظريته وصبغها ببعض الألفاظ العربية ، وكما يقول في كتابه « في سبيل البعث » فأنّه أراد أن يوحّد الامة العربية في ظل الشعار المثلث المعروف « وحدة ، حرية ، اشتراكية » ذلك الشعار المتناقض في ذاته والمناقض لاعمال البعثيين وممارستهم .

وليس صدفة أن يفشل حزب البعث ، مادام فكره فكراً استعمارياً ، يصب في قناة الغرب . لذلك حينما نؤكّد على البرامج الروحية والمناهج السماوية وضرورة العودة الى كل التعاليم المحمدية لبناء حضارتنا المنشودة ، فاننا نستوحي هذا التأكيد من الوقائع الحية التي نعيشها والتي تعمق الألم والمرارة في نفوسنا .

لقد بقينا دهراً نستجدي الأفكار من هذا وذاك ، و بعد أن أخذناها وعملنا بها ، رأينا

أنّها أفكار تدعو الى عبوديتنا لهم مرة أخرى ، وتعمل على ذلتنا وتفتتنا واستضعافنا (١) .

أننا ولكي نردم هذه الفجوة بين بلداننا و بين البلدان المتقدمة ، ليس أمامنا طريق الا الرجوع الى تلك البرامج الروحية التي وضعها الأسلام . هذه البرامج التي هي ليست كفيلة فقط بأنتشالنا مما نحن فيه ، وانّما هي أيضاً طريق واضح ومستقيم للوصول بنا الى أسمى الأهداف في الدنيا قبل الآخرة .

وهنا نعرض شذرات من هذه البرامج تعلمنا كيف يجب ان يعامل أحدنا الآخر، علّنا نستضيء بنورها في طريقنا لأقامة الحضارة الأسلامية المتكاملة التي ننشدها بأذن الله .

عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قال :

« إنّ من إجلال الله ، إعظامُ ذوي القُربى في الاسلام »

وعنه أيضاً قال :

« من لم يرحم صغيراً ، ولا يوقر كبيراً فليس منّا »

وعن الصادق (عليه السلام) قال :

« لايعظّم حرمة المسلمين الاّ من عظّم الله حرمته على المسلمين . ومن كان أبلغ

يقول « نجاح واكيم » في كتابه العالم الثالث والثورة . ص ٧١ :

« ان الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية القائمة اليوم في العالم الثالث ليست نتيجة تخلف طبيعي متأصل فيها ، كما يزعم البعض ، كما انها ليست نتيجة توقف عن التطور أو بطىء في التطور اصابها عند مرحلة معينة تاريخ تعرضها للاستعمار فلم تستطع بعدها اي تقدم ، او انها لم تتمكن الاّ من تحقيق تطور طفيف . ولكن هذه الاوضاع هي ثمرة من نوع خاص فرضه الموقع الذي اجبرت عليه هذه البلدان بالقوة داخل النظام الاقتصادي الرأسمالي العالمي » .

اما عن نتائج هذه العلاقة الاستعمارية فيقول في ص ١٢٨ :

« وفي آخر تقرير اصدره البنك الدولي بعنوان (تقرير التنمية في العالم ١٩٨١) ورد ما يلي :

حجم ديون الدول النامية ارتفع من ٥٠،٤ مليار دولار في العام ١٩٧٠ الى ١٢٨،٤ ملياراً في العام ١٩٧٥ ثم الى ٢٥١،٧ ملياراً في العام ١٩٧٨ . و بلغ ٢٩٤،٤ مليار دولار في العام ١٩٧٩ ثم ارتفع مرة اخرى الى ٤٣٨،٧ ملياراً في العام ١٩٨٠ . وهذا يعني ان ديون الدول النامية تزداد سنوياً خلال السنوات العشر الاخيرة بمعدل ٢٠،٥ بالمائة » .

حرمة الله ورسوله ، كان أشدّ حرمة للمسلمين . ومن أستهان بحرمة المسلمين ، فقد هتك ستر إيمانه » .

ولكي يعمق الاسلام شعورك بالوحدة مع المؤمنين ، يقول :

« ان المؤمن ليسكن الى المؤمن كما يسكن قلب الظمآن الى الماء البارد » .

بل يقول لك حينما تجلس عند أخيك المؤمن فأكثر النظر الى وجهه فأنّ كثرة النظر تزيد الحب المتبادل ، يقول رسول الله (ص) :

« نظر المؤمن في وجه أخيه حباً له عبادة » .

و يقول أيضاً :

« الا وإنّ ود المؤمن من أعظم سبب الايمان . الا ومن أحب في الله وأبغض في الله ، وأعطى في الله عز وجل فهو من أصفياء المؤمنين عند الله تبارك وتعالى . الا إنّ المؤمنين اذا تحابّا في الله عز وجل وتصافيا في الله كانا كالجسد الواحد ، اذا اشتكى أحدهما من جسده موضعاً وجد الآخر ألم ذلك الموضع »

هكذا يرتفع مستوى الوحدة الايمانية بل الوحدة الروحية بين المؤمنين . و يؤكد على هذه الفكرة قول الأمام الصادق (عليه السلام) لأحد أصحابه الذي قال للأمام : « اني لألقى الرجل لم أره ولم يرني فيما مضى قبل يومه ذلك ، فأحبه حباً شديداً . فاذا كلمته وجدته لي مثل ما انا عليه له . ويخبرني أنّه يجد لي مثل الذي أجد له » . فقال الامام :

« صدقت يا سدير ، ان ائتلاف قلوب الأبرار اذا التقوا وإن لم يظهروا التودد بألسنتهم كسرعة اختلاط قطر السماء على مياه الأنهار . وان بُعد ائتلاف قلوب الفجار اذا التقوا وإن أظهروا التودد بألسنتهم كبعد البهائم من التعاطف وإن طال اعتلافها على مذود واحد » .

قضاء حوائج المؤمنين :

ومن جملة ما يؤكد الاسلام عليه في معرض التكامل الاجتماعي لبناء الحضارة ، هو ضرورة قضاء حوائج المؤمنين بعضهم لبعض . فالمؤمن عليه ان يطلب حوائجه من أخيه المؤمن ولا يستحي منه . وكلما يجد في نفسه حاجة يكشفها له بلا تحرّج . و يطلب منه في

نفس الوقت أن لا يتوانى في تقديم ما يتمكن تقديمه . وحينما تقضي حاجتي وأقضي أنا أيضاً لك حاجتك فأنت تتكامل معي وأنا أتكامل معك . لأنّك تستطيع أن تقوم بعمل لا أستطيع هذه اللحظة أن أقوم به ، وغدا قد أكون أستطيع القيام بهذا العمل وتعجز أنت عن ذلك . وهكذا فان عملية التعاون تبدأ من الجذور ومن الخلايا الصغيرة . وعندما يصبح المجتمع كله كتلة متراصة آنئذ لا يمكن اختراقها .

وتأملوا هذا الحديث للامام الصادق (ع) وهو يقول :

« أوحى الله عز وجل الى داود : ان العبد من عبادي ليأتيني بالحسنة فأبيحه جنتي ، فقال داود يارب وما تلك الحسنة ؟ قال : يدخل على عبدي المؤمن سرورا ولو بتمرة ، قال : فقال داود (عليه السلام) : حق لمن عرفك الا يقطع رجاءه منك » .

وعن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قال حينما سُئل أي الأعمال أحب الى الله :

« اتّباع سرور المسلم . قيل يارسول الله وما اتباع سرور المسلم . قال شبعة جوعه وتنفيس كربته وقضاء دينه » .

وفي حديث آخر يصور لنا مدى أهمية قضاء حوائج المؤمنين بهذا الاسلوب الرائع ..

يقول حنان بن سدير : كنت عند الامام أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) فذكر عنده المؤمن وما يجب من حقه ، فألتفت إليّ ابو عبد الله (عليه السلام) فقال لي : يا أبا الفضل الا أحدثك بحال المؤمن عند الله . فقلت بلى فحدثني جعلت فداك .. فقال :

« اذا قبض الله روح المؤمن صعد ملكاه إلى السماء فقالا : يارب عبدك ونعم العبد ، كان سريعاً الى طاعتك ، بطيئاً عن معصيتك وقد قبضته اليك فما تأمرنا من بعده ؟ فيقول الجليل الجبّار : إهبطا الى الدنيا وكونا عند قبر عبدي ومجّداني وسبّحاني وهلّلاني وكبّراني واكتبا ذلك لعبدي حتى أبعثه من قبره » .

ثم قال لي أزيدك ؟ قلت بلى فقال :

« إذا بعث المؤمن من قبره ، خرج معه مثال يقدمه امامه ، فكلما رأى المؤمن هولاً من أهوال يوم القيامة ، قال له المثال : لا تجزع ولا تحزن وأبشر بالسرور والكرامة من الله عزّوجلّ فما يزال يبشره بالسرور والكرامة من الله سبحانه حتى يقف بين يدي الله عز

وجل ويحاسبه حساباً يسيراً ، و يأمر به الى الجنة والمثال امامه . فيقول له المؤمن : رحمك الله نِعمَ الخارج معي من قبري ! مازلت تبشّرني بالسرور والكرامة من الله عز وجل حتى كان ما كان ، فمن أنت ؟ فيقول له المثال : أنا السرور الذي أدخلته على أخيك المؤمن في الدنيا ، خلقني الله لأ بشرك » .

هذه هي البرامج الاسلامية لبناء المجتمع الفاضل . وكم يكون راقياً ذلك المجتمع الذي يسعى لادخال السرور والفرح على قلوب سائر أبنائه .

وللامام جعفر الصادق (ع)حديث يبيّن فيه أن تعاون المؤمنين وترابطهم المادي والمعنوي أفضل من العبادات المستحبة .

عن المشمعل الأسدي قال : حججت ذات سنة فأنصرفت الى أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) فقال : من أين بك يامشمعل ؟ فقلت : جعلت فداك كنت حاجاً ، فقال : أوتدري ماللحاج من الثواب ؟ فقلت : ما أدري حتى تعلمني فقال :

« ان العبد اذا طاف بهذا البيت أسبوعاً ــ أي سبع مرات ــ وصلى ركعتيه وسعى بين الصفا والمروة كتب الله له ستة آلاف حسنة وحط عنه ستة آلاف سيئة ورفع له ستة آلاف درجة وقضى له ستة آلاف حاجة في الدنيا كذا وآدّخر له للآخرة كذا » .

فقلت جعلت فداك إن هذا لكثير.. فقال : الا اخبرك بما هو أكثر من ذاك ؟ فقال قلت بلى ، فقال (ع) :

« لقضاء حاجة امرء مؤمن أفضل من حجة وحجة حتى عد عشر حجج .. » .

فهل تملك نفسك بعد ما تسمع هذا الحديث وتؤمن به الا أن تهرع لقضاء اخوانك المؤمنين . وكم يكون سامياً ذلك المجتمع الذي يسعى بل يهرع كل واحد لقضاء حوائج اخوانه بهذه الروحية العالية والنية الخالصة . ثم ان النبي (ص) يقول :

« والله لقضاء حاجة المؤمن خير من صيام شهر واعتكافه » .

والامام الصادق يقول حديثا بالغ الأهمية نرجوا أن يصبح مناراً نهتدي به ..

« أنّ الرجل ليسألني الحاجة فأبادر بقضائها مخافة أن يستغني عنها فلا يجد لها موقعاً اذا جاءته » .

فحينما يسألك شخص حاجته فبادر الى قضائها ولا تماطل فقد يتغيّر الوضع

و يستغني عنها فتفوتك بذلك فرصة عظيمة ، و يقول (ع) في حديث اخر :

« من كان في حاجة أخيه المسلم كان الله في حاجته ما كان في حاجة أخيه » .

والاسلام في الوقت الذي يقول للمقتدر اقض حوائج اخوتك المؤمنين ، يقول للمحتاج أطلب من أخيك حوائجك .

عن الامام الصادق (عليه السلام) قال :

« اذا ضاق احدكم فليُعلم أخاه ولا يعين على نفسه »

أي يجب على من يقع في مشكلة أن يستعين بأخيه المؤمن على حلها ولا يتركها تستفحل .

وفي حديث آخر يشجعنا على الاجتماعات الايمانية و يقول :

« تبسّم المؤمن في وجه أخيه حسنة ، وصرفه القذى حسنة وما عُبد الله بشيء أحب الى الله من ادخال السرور على المؤمن »

اَوَلا تريد أيها المسلم ان تجلب لنفسك حب الله تبارك وتعالى ؟

وأكثر من هذا يقول الاسلام لو أن رجلاً كافراً قضى حاجة رجل مؤمن ، فانّ الله لا ينسى لذلك الرجل المشرك عمله الحسن .

عن عبيد الله بن الوليد الوصّافي قال : سمعت أبا جعفر(ع) يقول :

« ان في ما ناجى به الله عز وجل عبده موسى قال : أن لي عباداً أبيحهم جنتي واحكّمهم فيها . قال : يارب من هؤلاء الذين تبيحهم جنتك وتحكّمهم فيها ؟ قال : من أدخل على مؤمن سروراً . ثم قال : إنّ مؤمناً كان في مملكة جبّار فولع به فهرب منه الى دار الشرك ، فنزل برجل من أهل الشرك فأظله وارفقه واضافه ، فلمّا حضره الموت أوحى الله عز وجل اليه : وعزتي وجلالي لو كان لك في جنتي مسكن لأ سكنتك فيها ، ولكنها محرمة على من مات بي مشركاً . ولكن يانار هيديه ولا تؤذيه ، و يؤتى برزقه طرفي النهار . قلت من الجنة ؟ قال من حيث شاء الله » .

فليس المهم من أين يأتي رزقه في نار جهنم ، من الجنة او من اي مكان ، انّما المهم هو ان هذا المشرك الذي بقي مشركاً حتى مات و بسبب تعاونه مع المؤمنين الصادقين وخصوصاً هذا المؤمن الثائر الذي ولع به الطاغوت فهرب من بلاد الاسلام الى بلاد

الشرك خوفاً على دينه ، فأن الله لا ينسى لهذا المشرك عمله الحسن بل يجازيه خيراً .

ان الاسلام ليس فقط يريدنا ان نسارع نحو قضاء حوائج اخوتنا المؤمنين وانّما يشجعنا ايضاً على التعاون والتماسك والارتباط ببعضنا عبر عدة تعاليم مثل أخذ الزينة عند المساجد ، والتعطر ، والحضور في المساجد وسائر الاماكن المقدسة ، والاجتماع في المناسبات الاسلامية وحتى المشاركة في الاعراس وتشييع الجنائز .

الفصل الرابع



بين الواقع والطموح

يتصل هذا الموضوع بواقعنا اتصالا وثيقاً ، نظراً لما نشاهده في العالم الاسلامي من المآسي والويلات والحرمان ، ومن سطرة الطغاة والأجانب ، ومن عربدة إسرائيل واغتصابها لحقوق شعبنا الفلسطيني ، وتحولها من مغتصب لأرض وحقوق شعب ، الى سلاح مشهور على رقبة الأمة الاسلامية والى اداة فعّالة بيد الاستعمار في هذه البقعة المقدسة من العالم .

كل ذلك انّما جاء كنتيجة مباشرة لتخلف أمتنا . أن أمتنا ضعيفة ومفتتة ولا تملك من وسائل التكنولوجيا الحديثة ما تردع به الأعداء . فبينما تصنع اسرائيل الطائرات ، وتحصل على ثلث دخلها من بيع الأسلحة للعالم ، وبينما تقوم هذه الدويلة اللقيطة ببناء مجمع صناعي متكامل ، وتكاد تصبح في عداد الدول الصناعية في العالم ، لانزال نحن نلهث وراء الصناعة العالمية ، ونتسابق لشراء المنتوجات الجاهزة الصنع من هذه الدولة أو تلك ، وحتى لبناء جسر أو مدرسة أو لتنظيف مدننا ، فنحن نحتاج الى الشركات الأجنبية .

لقد زرت الرياض ، عاصمة الجزيرة العربية فرأيت عمالاً أجانب يعملون في تنظيف المدينة ، ولما سألت عن ذلك أجابني أحدهم مستنكراً شركة انجليزية تجلب عمالاً كوريين لتنظيف بلدنا !

ان للتخلف مفهوم واضح هو أن تبيع المواد الخام ، وتشتري كل شيء مصنّع . ونحن نشتري حتى المياه الغازية من الخارج . ولقد سألت مرة لماذا نستورد المياه الغازية معلبة

من اليابان ، ولا نقوم بتحضيرها بالرغم من أن العملية ليست أكثر من اذابة مسحوق في المياه المتوفرة عندنا ؟ قالوا في الواقع لا نقدر على صنع ذلك بمثل أتقانهم !

أن هذا التخلف الذي ينخر عظامنا هو سبب هذه المآسي التي نعاني منها ، اننا نلهث وراء الصناعة الأجنبية لهثاً ، بينما الأجانب يفتشون في بلداننا عن أسواق وعن مواد خام ، ليبيعونا كل شيء ، ومادامت حالتنا في هذا المستوى من السوء فلابد ان ننتظر المزيد من استكبار المستكبرين علينا ، واستهتارهم بحقوقنا .

ان الشيء الوحيد الذي يحكم العالم اليوم هو منطق القوة . ذلك المنطق الذي يجعل الأجانب يتدخلون في بلادنا و يضعون القوانين حسب ما يشاءون ، و يديرون أمورنا كما يريدون ولا يجدون أحداً يعترض عليهم ، فلا أحد قال لأمريكا لماذا أنشأت القواعد العسكرية في مصر والصومال وعمان ، ولماذا وضعت طائرات الأ واكس في الجزيرة ، العربية لمراقبة دولة الاسلام وحركة الشعوب في المنطقة ولم تنطلق صرخة حق في وجه الاتحاد السوفيتي الذي تدخّل في أفغانستان وذبح المسلمين هناك ودمّر قراهم وما يزال يعيث الفساد في تلك الأ رض المحروقة .

في عالم اليوم كن قو ياً يحترمونك ، ومادام هذا المنطق هو الحاكم فلماذا نبقى ضعفاء ومتخلفين ، والى متى ؟!

ما الذي ينقصنا عن الشعب الياباني الذي لم يملك غداة انتهاء الحرب العالمية الثانية الا ركام المدن المهدمة والمصانع المدمرة بالاضافة الى مئاة الألوف من القتلى والجرحى ، لكنهم نهضوا من كبوتهم وشقوا طريقهم بعزيمة صادقة حتى غزت صناعتهم اليوم أسواق العالم . ولقد كان معدل دخل الفرد الياباني بعد الحرب مباشرة لا يزيد على ثلا ثمائة دولار سنو ياً ، اما الآن فأن دخل الفرد في السنة (١٩٨٠ ــ ١٩٨١) قفز الى اكثر من اثني عشرة آلاف دولار سنو ياً .

هذا مع ان اليابان بلد مستعمَر ولا تزال أراضيه تحت الاحتلال العسكري الأمريكي .وكذلك ألمانيا الغربية ، التي تعتبر اليوم أقوى دولة أور بية في الأقتصاد . هذه الدولة التي خرجت من الحرب العالمية الثانية وهي تحمل ذكرى عشرة ملايين قتيل خسرتهم ، ولا تملك إلّا أنقاضاً لحضارة سادت ثم بادت .

انـنا ومع ما نملك من موارد اقتصادية ، وسعة أراضي ، وموقع جغرافي ، ترى ان دو يلة الـصـهـايـنة تعربد في المنطقة دون أن يرد عليها أحد بأي رد ، اللهم إلّا عربدة الأذاعات الـعربية الفارغة .. اسرائيل تعربد عبر طائرات الفانتوم حيث تقصف المدنيين في لبنان ، وتـقتل الأطفال الرضّع ، وفي مقابل ذلك ترى المؤتمرات العربية تلو المؤتمرات والتصريحات تـلـو الـتـصـريحـات ، والمـؤتمـرون والمصرحون هم أول من يعلم انهم يكذبون لأنهم حينما يـصرّحون بتصريحات ضد العدو الصهيوني ، فانه يتعاونون معه من خلف الستار ويحاربون ايران وكل الحركات الاسلامية والقوى التحررية الصادقة .

لماذا الحديث عن التقدم الحضاري :

إن الاسـلام هـو المـنـهاج الذي جاء لكي ينقذنا من تخلفنا كما أنقذ آباءنا من قبل . ولـكـن مـع الأسـف فأن هذا الجانب مهمل عادة في أحاديث المؤمنين وتوجهاتهم ، وهذا غيرصـحـيـح لأن هـنـاك تـطـلـعاً كامناً في نفوس الشعوب الاسلامية النامية يدعوهم الى اللحاق بركب الحضارة .

الغربيون كما الشرقيون يحاولون أن يسرقوا هذا التطلع وأن يجيروه في سبيل مصالحهم بـأن يـكذبوا على شعوبنا ، فمرة يأتون اليهم بنظام الرأسمالية و يقولون هذا النظام سوف يجـلـب لـكـم الـتـقدم والحضارة . ومرة يأتون لهم بالنظام الاشتراكي و يدّعون أنّه الوحيد الـقـادر على رفـع التخلف والحرمان . انهم يكذبون ليسرقوا تطلعنا ، و يستغلوا جهلنا وقلة وعينا .

لـذلك يجب على المفكرين الاسلاميين أن يركزوا على هذه المسألة ، و يبينوا أن سبب تخـلـفنا ، بالاضافة الى الاستعمار والثقافات الدخيلة ، هو بعدنا عن ديننا وقيمنا ، وفهمنا الخاطىء له .

الاسلام هو دين التقدم والحضارة . وهناك عدة عوامل يوفرها الاسلام لتحقيق ذلك :

الـعامل الأ ول : فك الأغلال النفسية والتحرر من الأغلال الاجتماعية . فالانسان بـطـبـيعته اذا تحرر من أغلاله يصبح نشيطا و بنّاءا وفاعلا في الحياة . ولكن الأغلال التي

يخلقها الجهل والجاهلية والعقد النفسية عند الانسان هي التي تمنع انطلاق البشر.
والاسلام يفك هذه الأغلال الواحد تلو الآخر يقول ربنا:
« و يضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم ».

(١٥٧/الأعراف)

فهو يضع عنهم غلّ الأتكالية وانتصار الآخرين .. يضع عنهم الاعتماد على الجن والخرافة والأسطورة وما أشبه من الأغلال الثقافية، ويحررهم من قيود الارتباط بالاشخاص على حساب المبدأ. فاذا قال لك الآخرون توقّف ولا تتحرك فلا تسمع لهم وانّما اتبع منطق الحق. هذه الأغلال وكثير غيرها يفكها الاسلام عن الناس و يدعهم ينطلقون و يتقدمون.

العامل الثاني: التمحور حول العمل الصالح.

إن الاسلام يعطي العمل الصالح القيمة الاساسية ويجعله محور التنافس في المجتمع. ففي أكثر من مائة وعشرين موضعاً، يؤكد القرآن الحكيم على الربط العضوي بين الايمان والعمل الصالح، و يصرح بأن الذين يرثون الأرض هم الصالحون. والصلاح ليس شيئاً جامداً، وانّما هو حركة وعمل في الاتجاه الصحيح. وهو ليس فقط في أمور الدين كالصلاة والصيام والزكاة والحج، وانّما كل عمل يحكم العقل والدين بصلاحه، فبناء المساكن صلاح، وتعبيد الشوارع صلاح، واقامة المصانع صلاح، وزراعة الأرض صلاح، وكل ما كان من شأنه عمارة الأرض فهو عمل صالح.

ومن جهة أخرى فان الاسلام يحارب العمل الفاسد، و يهاجم المفسدين بعنف شديد و يتوعدهم بأشد العذاب، يقول تعالى:
« انّما جزاؤ الذي يحاربون الله ورسوله و يسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يصلبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم »

(٣٣/المائدة)

و يقول ربنا:
« ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً ان رحمة الله قريب من

المحسنين » . (٥٦/الأعراف)

العامل الثالث : الأهتمام بالعلم .

فالعلم هوقاطرة التقدم ، وعلم الانسان هوسلاحه ضد الطبيعة وهو الذي يعطيه القدرة على تسخيرها . وكلمة العلم والعلماء لا تعني فقط العلم بالدين ، بالرغم من أن علماء الدين في الأسلام لهم ميزتهم الخاصة بهم ، الا أن العلم بصفته الشاملة هو الذي يؤكد عليه الاسلام بدليل أنّه يقول :

« اطلبوا العلم ولو كان في الصين » .

فهل كان الفقه في أيام رسول الله (ص) يدرس في الصين ؟ أم كانت هناك العلوم المتنوعة .

العامل الرابع : علمية العملَ وعملية العلم .

أي أن العلم لا يبقى غريباً وانّما يصبح موجها للعمل . والعمل لا يكون أعمى وانّما يتبصّر بالعلم .

العامل الخامس : التعاون .

يأمر الاسلام بالتعاون ، و يسن أنظمة من أجل التعاون البنّاء ، و يؤكد على خلقيات وآداب تقرّب الأفراد الى بعضهم لتسبب تعاونهم ولتتكامل فعالياتهم .

العامل السادس : حذف الزوائد التي تتطفل على حياة المجتمع .

ان الانسان انّما يسعى و ينشط في سعيه ، اذا عرف أن مكاسبه التي تأتيه من وراء السعي والعمل والجهاد ، ستعود اليه شخصيا بالنفع أو الى من يريد هو أن تعود اليه . أمّا الانسان الذي يُسرق جهده و يُستغل سعيه ، فانّه لا ينشط في السعي . والاسلام يؤكّد عبر قوانينه الصارمة على العدالة الاجتماعية و يقتل الطفيليات التي تمتص حقوق الآخرين . فحينما يحدد الاسلام الرأسمال ولا يدعه يتحكم في سعي الفقراء والكادحين ، كما ويحدد السلطة السياسية ولا يدعها تستغل جهود المستضعفين ، و يؤكد تأكيداً شديداً على الملكية الفردية في حدود العدالة الاجتماعية ، فان كل ذلك من أجل أن يقول للانسان ان سعيك يعود اليك ولا يعود الى غيرك . و بذلك يشجعه على العمل والسعي و بذل الجهد . وكمثل على ذلك حكمة الميراث في الأسلام اذ تقوم على أساس ان الانسان لا

يملك سعيه في حياته فقط ، وانّما حتى بعد مماته سوف يورث سعيه أولاده أو الآخرين ، و بهذا يشجع الأسلام على العمل والانتاج .

العامل السابع : تحديد الطرق الصالحة للعمل .

حينما يحدد الاسلام الطرق الصالحة للعمل ، و يبعد الانسان عن الكسل والجبن والهم ، وكذلك عن اقتراف المعاصي التي تسبب ضعفه وابتعاده عن الآخرين . فهوبذلك يبني المجتمع الحيوي النقي جسدياً وعقلياً .

وكلمة أخيرة هذا هو البرنامج الذي يضعه الاسلام الحق ، يبقى أن نطبّقه . انها قضية أساسية في حياة الشعوب النامية ، لأن العالم اليوم على أبواب الثورة الثالثة . وأننا لو بقينا هكذا ، فأن الفجوة بين البلاد النامية والبلاد الصناعية تتوسع . وقد تصل هذه الفجوة يوماً الى حد أن البلاد النامية لا يمكنها أن تلحق بركب الحضارة . وفرصتنا الوحيدة هي التحرك من الآن ، برغم صعوبة هذا العمل البالغة . وربما لو كنا قبل خمسين سنة قد عقدنا العزم على اللحقاق بركب الحضارة ، وشددنا الأحزمة وسعينا ، لكنّا قد ردمنا هذه الفجوة ولحقنا بمن سبقونا وربما تجاوزناهم .

إننا لايحق لنا ان نتغافل عن مصيرنا ومصير الأجيال القادمة وهذه ليست مسؤولية اجتماعية فقط ، وانّما هي أيضاً مسؤولية فردية .. أي كل انسان يجب أن يجسد الاسلام بتعاليمه الحضارية لكي يكون رائداً في مجال تقدم بلده . ليعقد كل واحد منا العزم على أن يقلل شيئاً ما من تخلف بلده الذي يعيش فيه .

لايكن همّ تجارنا أن يزيدوا من ثرواتهم . ولا يكن همّ علمائنا أن يستخدموا في احدى الشركات أو الوزارات ، وأن يبنوا بيتاً . ولا يكن همّ عمالنا زيادة الأجور، ولا يكن همّ حرفيينا وكسبتنا الحصول على مغانم مادية . بل ينبغي أن يكون همّ كل واحد منا أن يقدم بلده ، وهذا هو العمل الصالح وهذا هو الجهاد . الجهاد ليس فقط في ميادين القتال . لأنّ ذلك الجندي الذي يحارب في المعركة ولا يمتلك سلاحاً يضاهي سلاح عدوه ، انّما يحتاج الى جهودك أنت العالم في الجامعة ، وأنت العامل في المصنع وكل العاملين خلف الجبهة لتقدموا له أسلحة أكثر تطوراً وفعالية . اأتم في الواقع جنود قبل أن يكون حامل الرشاش وصاحب المدفع كذلك .

العوامل المؤثرة في الفرد

لكي ندرس المجتمع لابد أن نلاحظ الفرد، ليس لأن الفرد أبو المجتمع اذ قد يكون المجتمع أبا للفرد، وانّما لأن دراسة الفرد طريقاً لدراسة المجتمع ومفتاح لفهمه. ذلك أن الفرد مرآت للمؤثرات الاجتماعية، وبدراسته نستطيع أن نفهم المجتمع فهما أكبر.

ولدراسة الفرد هناك طريقتان، فقد يدرس دراسة خارجية، وقد يدرس دراسة ذاتية. والدراسة الخارجية هي أن تدرس فرداً وتقيس المؤثرات التي تتفاعل في كيانه. أما الدراسة الذاتية، فهي أن تدرس نفسك بأعتبارك كياناً شاعراً واعياً، وتقيس في ذاتك المؤثرات التي تتفاعل فيك.

والسؤال هنا الذي يحاول علماء الاجتماع الأجابة عليه هو:

ما هي العوامل المؤثرة في كيان الفرد؟

هناك عوامل عديدة تؤثر في كيان الفرد، فعامل المصالح، وعامل الاقتصاد، وعامل التاريخ والوراثة، وعامل الجغرافيا والبيئة، وعامل الشخصية، وعامل الارادة والقيم، وغيرها من العوامل التي يلخصها الاسلام في كلمتين.. العقل والجهل، وللعقل جنود سبعون، كما إنّ للجهل جنوده السبعون.

وهناك ملاحظتان في هذا الحقل، أحداهما تتعلق بالعلم والثانية بالرسالة:

الملاحظة الأولى:

أن العلم قد بلغ مرحلة من النضج بحيث أضحى يعترف بكل العوامل المؤثرة في

توجيه الانسان الفرد ومن ثم المجتمع . ولم يعد العلم اليوم يعترف بالمذاهب الجامدة التي تركز نظرها في واحد من العوامل وتعتقد أنه العامل الوحيد ، كالنظرية الماركسية التي ترى أن الاقتصاد هو المحرك الوحيد في التاريخ . أو الفرويدية التي تعتقد بأن العقد والحالات النفسية هي العامل الوحيد ، أو البعض الذين يرون ان الأثر الحاسم هو للجغرافيا .

إن العلم اليوم يعترف بكل العوامل ، وقد وصل مرحلة من النضج العقلي حتى أخذ يتواضع لكل المذاهب و يستوحي منها الأفكار والمعلومات الصحيحة دون تطرف أو تحيّز . ولكن ثمة عقبة كأداء لا تزال امام علماء الاجتماع لابد ان يبحثوا طويلا حتى يتجاوزنها ، وهي معرفة نسبة تأثير هذا العامل أو ذاك في صناعة المجتمع .

فهذه العوامل ليست مؤثرة تأثيراً متساوياً لا من حيث ذاتها ، ولا من حيث أفرادها .

فمن ناحية ذاتها نجد أن عامل الاقتصاد أقوى تأثيراً من عامل الجغرافيا . فمثلاً : الجزيرة العربية لها جغرافية معينة وأنواء خاصة كالحر الشديد صيفاً والبرد القارص شتاءاً ، وكذلك بهبوب الرياح الشديدة ، و بالرطوبة القاسية على شواطىء البحار . هذه الاجواء تؤثر في بناء شخصية مجتمع الجزيرة ، فيصبح مجتمعاً عنيفاً متحدياً يعيش في الواحات والمدن الصغيرة . ولكن حينما تفجّر البترول في أرض الجزيرة ، وتغيرت حالة المعيشة ، تغيرت تبعاً لذلك علاقة الانسان بالطبيعة . فبينما كان الانسان سابقاً محكوماً بالطبيعة ، أصبح ــ بفضل البترول ــ مسيطراً على الطبيعة بقدرٍ ما . ولهذا السبب نجد أن انسان الجزيرة قد تغير تغيّراً كبيراً .

فبينما كان في السابق يمتطي الجمل الذي يعتبره سفينة الصحراء ، تراه اليوم يركب أحدث السيارات والطائرات ، و يتحرك عبر طرق (أوتوستراد) المعبدة .

فمثلاً اختيار أبناء هذا المجتمع للألوان ، نجد قبل ثلاثين عاماً كيف أنه كان يختار الواناً شديدة وصارخة . أمّا الآن فهو لايختار الآ الألوان الهادئة ، وهذا دليل على أن النفسية الشديدة والعنيفة التي كان يواجه بها الطبيعة ، قد تغيرت بفضل البترودولار ، واصبحت نفسية أكثر هدوءاً وقرباً من الطبيعة .

وحينما نقول ان من عوامل التأثير في الفرد ، الاقتصاد والبيئة ، فلا يعني ذلك أن تأثير الاقتصاد يكون بنفس نسبة تأثير البيئة أو العكس كلا ، فبعض العوامل تؤثر بمقدار مئة درجة و بعضها بمقدار تسعين درجة و بعضها بمقدار ثمانين درجة وهكذا . وهذا نسميه الاختلاف الذاتي بين العوامل .

وهناك اختلاف فردي ، أي أن كل مرحلة وكل لحظة تاريخية محكومة بأحد العوامل أكثر من غيرها .

دعنا نضرب مثلاً عن عامل الشخصية القيادية في الثورة ، وتأثيره في المجتمع . فلا ريب أن للقائد من حيث صفاته وعوامله النفسية ، تأثيراً ملحوظاً على طبيعة المجتمع . ولعله اذا كان قائد الثورة الأسلامية في ايران مثلاً شخصاً غير الامام الخميني ، لكانت الثورة قد أخذت مساراً آخر . فكلما كانت الشخصية قوية كان أثرها في المجتمع أقوى .

وكذلك عامل الاقتصاد ، فللاقتصاد أثره ، ولكن بعض أنواع الاقتصاد له آثار حادة . مثلاً الاقتصاد في كوريا الجنوبية تأثر قبل الحرب الكورية و بعدها بسبب الانتماء الى المعسكر الغربي وتم تطوير صناعتهم عن طريق الدعم الغربي لها . والآن يبلغ معدل النمو في كوريا الجنوبية (١٢ الى ١٣٪ سنوياً) وهذا معدل مرتفع جداً . كما أن أجور العامل هناك ترتفع بمعدل (٢٠ الى ٣٠٪ سنوياً) وهذا بالطبع يؤثر تأثيراً كبيراً في المجتمع .

ومهمة علماء الاجتماع اليوم تتركز في معرفة نسبة التأثير لكل عامل ، فهم يريدون معرفة مثلاً أي العوامل كان له التأثير الأكبر في انتصار الثورة الاسلامية الايرانية ، هل أنه عامل الدين أم عامل الجوع والحرمان أم عامل الجغرافيا باعتبار أيران دولة نفطية مطلة على الخليج .

وهكذا عن طريق المقارنات والمقايسات ، وعن طريق دراسة الظروف المختلفة ، يفهم علماء الأجتماع فهما تقريبياً نسبة تأثير هذا العامل أو ذاك في المجتمع و بالتالي في التاريخ .

وهذا هو الذي يعطي التاريخ فرديته ، فالتاريخ لا يعيد نفسه بصورة متطابقة مئة في المئة ولكنه يعيد تطبيق السنن ، وتبقى لكل لحظة تاريخية سمة فريدة خاصة بها ، لا يمكن

أن نجدها في كل لحظات التاريخ أنّى كانت متشابهة ، كما أن لكل انسان شخصيته المتميزة نفسياً وروحياً وصورةً .

الملاحظة الثانية :

في دراستنا للفرد واثره في المجتمع هناك قضيتين نبحثهما ، الأولى : ما هو الواقع الآن ؟ والثانية ما ينبغي أن يكون عليه الواقع ؟

فالواقع هو الذي نعترف به و بوجوده ، ولكن لا نعترف بشرعيته . أمّا الحق فهو الذي نعترف بشرعيته ولكن قد لا يكون موجوداً . تدبّروا في هذه الآية الكريمة لتعرفوا أن نصفها حق ونصفها واقع .

يقول تعالى :

« زيّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والانعام والحرث » .

ولكن الآية ما تلبث أن تضيف قائلة :

« ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » .

(١٤/آل عمران)

المقطع الأخيرة من الآية الكريمة يؤكد على ما ينبغي أن يكون عليه الانسان ، بينما المقطع الأول يبين ما هو كائن . الكائن هو أن هذه (الشهوات) أو العوامل التي تؤثر في تحريك الانسان ، (عامل) حب النساء ، (عامل) حب البنين (عامل) حب الكماليات والمفاخر ، (عامل) حب اكتناز الذهب والفضة ، وركوب المراكب الجميلة الجذّابة (الخيل المسومة) ، وكذلك (عامل) حب الأنعام والحرث أي تراكم الثروة ، أن هذه العوامل موجودة ولكنها ليست العوامل النهائية ، ولا نعترف بشرعيتها ، انّما على الأنسان ان يقلع بنفسه عن أرض هذه العوامل الى سماء تلك القيم « والله عنده حُسن المآب »

وكذلك في قوله تعالى :

« إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها »

يؤكد على الواقع ، ولكن خاتمة الاية تؤكّد على ما ينبغي أن يكون عليه الواقع :

« لنبلوهم أيهم أحسن عملاً »

امّا الآيات القرآنية والنصوص الاسلامية التي تؤكد على الجانب الثاني فقط ، فليس لاهمالها الجانب الاول ، وانّما لأن وظيفتها هي عدم الاعتراف بشرعية الجانب الأ ول بل دفع الانسان الى الجانب الثاني .

واذا بحثنا جيداً في النصوص الاسلامية فسوف نتبين خيوط هذين الجانبين .. جانب الشيء الواقع ، وجانب الشيء الذي ينبغي أن يقع وهو الحق . أمّا في النظرة العابرة فان هذه الخطوط تتشابه علينا بحيث قد يظن أحد بأن الاسلام لا يعترف بأن للعامل الجنسي مثلاً أثره في حياة الانسان ، مادام الله سبحانه وتعالى يقول : « انّما اموالكم واولادكم فتنة » .

ان القرآن يعترف بمتاع الدنيا ، ولكنه يصفه بالغرور . ولا يقرّه شيئاً مشروعاً . وهذا هو الفرق بين الحق والواقع .

مراحل الحضارة

تتجمع العوامل المؤثرة في الفرد ، كما تتجمع في المجتمع لتصنع وجه التاريخ ، بالاضافة الى عامل الارادة والقيم . و بالتالي تكون نظرتنا الى التاريخ مستوحاة من نظرتنا الى تلك العوامل التي أشرنا اليها مع تينك الملاحظتين السابقتين التي كانت أولاهما مرتبطة بالعلم والثانية بالرسالة .

الدورة التاريخية .

الدورات التاريخية التي نراها عادة عبر التاريخ البشري ، حيث أن الأمم تنشأ ثم تتقدم ثم تنكمش ، ثم تتحدى ثم تنكسر ، ثم تتقدم ثم تنبعث لفترة قصيرة ثم تنتهي . هذه الدورات التي غالباً ما نجدها صحيحة في الحضارات لا تقع بطريقة واحدة في كل مكان ، ولا يمكن أن نعتبرها قضية مطلقة ، كالقضايا الرياضية التي قوامها القوانين المجردة والكلية ، مثلاً (٢×٢= ٤ دائماً) . الدورات التاريخية ليست هكذا ، وانّما تحتفظ بالجانب الانساني فيها وهو الجانب الأ رادي المتميز ، حيث أن كل عامل يؤثر في ظرف تاريخي معين تأثيراً بمقدار مختلف عن تأثيره في ظروف أخرى .

ويمكننا أن نقسم المراحل الحضارية للتاريخ بصفة عامة الى :

اولاً : المرحلة البدائية .

وهي عبارة عن مجموعة من البشر أجسادهم مجتمعة وأفكارهم متفرقة ، لا يحملون

رسالة ولا يطمحون لتحقيق هدف ، ولا يبحثون عن تقدم ، ولا يعنيهم الآ الحصول على ضرورات معاشهم . هذه المجموعة البشرية تبقى هكذا عبر مئات السنين ، تعيش في عزلة عن العالم وعن العلم ، كالعرب في الجاهلية ، وشعوب أخرى غيرهم .

ثانياً : المرحلة الرسالية .

ثم تنبعث فيها فكرة رسالية ، عادة ما تكون مستوحاة من نبي بعث اليهم مباشرة ، أو رسالة نقلت اليهم عبر وسيط بشري من غير الأنبياء . وحين تنبعث فيهم هذه الرسالة ، فانّها تقوم بدور معين ، ذلك الدور هو اشعارهم بوضعهم المتردي الذي يتوجب عليهم تغييره واعطاؤهم رسالة فوق تطلعاتهم المادية الضيقة ، حيث يتشبثون بها و يتمحورون حولها ، و يفجرون طاقاتهم من أجل تحقيقها . وأخيراً تحدد لهم برامج ومناهج ، وسلوكيات وأحكاماً وأنظمة معينة يسيرون عليها ، وهنا تنغرس النواة الأ ولى للمدنية التي لا تلبث أن تنمو حتى تحقق مدنية جديدة .

ثالثاً : مرحلة الأصطدام .

هذه المدنية تصطدم أول ما تنمو بما حولها ، من أفكار ومجتمعات صدمة عنيفة ، تؤثر فيها تأثيراً سلبياً ، فتنهزم أمام جيوش الأعداء . وتصاب بنواقص كثيرة . وجاء في القرآن الحكيم :

« ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات و بشر الصابرين » .

(١٥٥/البقرة)

هذه الآية تشير الى المشاكل التي تنشأ من بعد نمو الحضارة وتكوّن الأمة على أساس الرسالة .

وقد تسبب هذه الصدمة وهذا التحدي انكماشاً في هذه المدنية حتى ليبدو للذي يرى الصراع من بعيد أن هذه الرسالة وهذه الحضارة التي ابتنيت عليها قد انتهت ، ولم يبقى لها فرصة للانتصار على أعدائها ، وذلك بسبب الظروف الصعبة التي تعيشها ، والخلافات الداخلية التي تهزها .

ولكن مع هذا الأنكماش ، فأن هذه المدنية تتميز في هذه المرحلة بالشجاعة وروح

الأقدام والتضحية من أجل الأهداف التي تحملها .

كما أنها في هذه المرحلة ، لايهتم أبناءها بالأسلحة والتنظيم والوسائل العلمية والطبيعية من أجل كسب المعركة ، وأنما يتحركون في الأرض تحركاً إرتجالياً ، من أجل تحقيق أهدافها .

رابعاً : مرحلة المراجعة والتنظيم .

ولكن هذه الرسالة لا تلبث أن تجدد نفسها بعد سنين قد تطول وقد تقصر ، و يتجدد ايمان أتباعها بها ، لأنهم بعد أن ينهزموا شيئاً ما أمام الصعوبات والأعداء ، يعودوا و يتفكروا ثم يطرحوا على أنفسهم الأسئلة : لماذا انهزمنا ؟ وما هي الثغرات ؟ وكيف نتقدم ؟ .

وهكذا تنبعث فيهم الروح مرة أخرى فيتحركوا ، ولكن في هذه المرحلة تتميز أنطلاقتهم بعدم الاعتماد على الايمان وحده ، بل يتوجه الاهتمام الى التطوير والتنظيم ، وتهيئة الوسائل والسعي الى زيادة الحلفاء والحصول على الأسلحة ، والأخذ بكل الاسباب العلمية والمادية ، وذلك اعتباراً بما حصل لهم من دروس مرة ، ومن انتكاسات صعبة ، فينطلقوا . وتدوم هذه المرحلة فترة لابأس بها ، تنمو خلالها الحضارة وتتقدم ، وتحتفظ ذاكرتها بعبرها السابقة لكي لا تتكرر التجارب الفاشلة مرة أخرى .

خامساً : مرحلة التحجّر .

ولكن مع استمرار الوقت وطول الزمن ، تهترىء الذاكرة الحضارية ، وتنسى تجاربها تقريباً ، سواء التجارب الايمانية كالشجاعة والتضحية ، أو التجارب المادية التي حصلت عليها في المرحلة السابقة .

يقول ربنا سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم :

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم » .

(١٦/الحديد)

وقسوة القلب عبارة عن التحجّر ، بحيث أن الأمة تصاب بحالة التعب والأرهاق ، فتصبح في وضع لا تعطي فيه ولا تأخذ ، ولا تتأثر بحقائق الحياة ، ولا تستجيب للعوامل

الطبيعية والسنن الصحيحة ، فتصبح مثل الحجر الذي لا يتفاعل مع حوله .

والأمة ليست أنساناً واحداً ، وانّما هي أناس (قوم) يموتون و يأتي مكانهم قوم آخرون . فالأ بناء لا يتعبون بتعب آبائهم ، وانّما يكون التعب معنو ياً (قسوة القلب) كما يعبّر عنه القرآن . أي التبلد الفكري ، والتوقف الذهني . وحسب تعبير بعض المؤرخين توقف الابداع في كمبيوتر الحضارة .

سادساً : مرحلة التغني بالأمجاد .

بعد هذه المرحلة ، تبدأ مرحلة الصراعات الداخلية ، والأنانيات ، والقوميات ، والنعرات العنصرية والطائفية تعصف بتلك الحضارة . وتبدأ مرحلة صعبة ، تتشرذم فيها عناصرها ، وربما تصل الى مشارف النهاية . و بالتالي تسقط الدولة ، و يتفتت المجتمع ، وتنسى الأفكار .

إلّا انّ الغرور والكبرياء الناشيء عن الأمجاد السابقة يبقى . لأنّ الأمجاد تكون قد تحوّلت الى انجازات بعضها ظاهرة كالآثار المعمارية ، والأحداث التاريخية المرو ية التي لها خطها في تفسير شيء يسميه بعض المؤرخين بطيف الحضارة ، أي آخر مرحلة من انتهاء هذه الحضارة .

وهذه الحالة العاطفية التي تنبع من الانتماء الى الأمجاد ، والمكاسب التاريخية والافتخار بها ، تعود لتكون شيئاً ما ، وعادة ما يكون ذلك الشيء ألفاظاً ضخمة ، ولكن دون أن يكون فيها أي نوع من الابداع والتطو ير أو العطاء أو حمل رسالة حقيقية ، وانّما هي فقط طيف الحضارة أو حلمها . وهذه المرحلة غالباً ما تكون قصيرة الأمد ، و بعدها ينتهي كل شيء ، و بانتهائها ، تذهب آخر فرصة لهذه الحضارة في البقاء .

ان كل الحضارات عبر التاريخ ، وحسب ما يذكر المؤرخون ، مرت بهذه المراحل ، ولكن هل هذه المراحل حتمية وأنها دائماً بشكل واحد ؟

كلا ، انّها ليست حتمية .. لأن الحضارة يمكنها أن تستوعب تجارب الحضارات الأخرى في أول مراحلها ، فتضم الى روح التضحية والشجاعة والاقدام ، الأخذ بالعوامل المادية والسنن الطبيعية التي توصلت اليها الأمم السابقة ، ولا تدع مجالاً للغرور أن يصيبها و بذلك يمكنها أن تبقى فترة أطول .

أثر الغرور في الحضارة :

وهنا لا بأس أن أعرض تجربتين لبيان أثر الغرور في الحضارة ، دون أن أحاول المقارنة الدقيقة لأن الامثلة التي أضربها ليست حضارات وانّما هي دول . ولكن يمكننا أن نضرب بها أمثلة على واقع الحضارات .

المثال الأول : ألمانيا في عهد (بسمارك) حيث كان رئيساً للوزراء في « بروسيا » فجعل من هذه الولاية نواة لدولة اتحادية كبيرة في أوربا وهي ألمانيا الأتحادية ، بفضل جهوده ، وبفضل نشاط وحيوية الشعب البروسي .

إلّا أن بسمارك لم يلبث أن اغترّ بالسكك الحديدية الجديدة ، والأسلحة الحديثة ، والجيوش المنظمة ، والطاعة التامة والانضباط العسكري الكامل ، والتقدم الاقتصادي ، الذي وصلت اليه ألمانيا الأتحادية ، فقام يضرب ذات اليمين وذات الشمال ، وخاض حروباً عديدة الى أن ضعفت ألمانيا سريعاً وأصبحت دولة عادية ، بينما كان بالامكان أن تصبح لفترة طويلة مركز الثقل الحضاري في أوربا .

أما المثال الثاني فهو الولايات المتحدة الأمريكية . فقد عاشت الولايات المتحدة فترة طويلة نسبياً بعد استقلالها وازدهارها ، والسبب في ذلك لأن الشعب الأمريكي رفض كل المحاولات التي قامت لاقتحامه في الحروب ، والتدخلات في شؤون الدول الأخرى . فقد رفض وبكل شدة في سنة ١٩١٣م النظرية التي دعت الى احتلال المكسيك ، وقد كان سبب انتصار « روزفلت » على منافسه الانتخابي هو لرفعه شعار ابقاء أمريكا بعيدة عن مشاكل العالم ، وقد واجه معارضة من الشعب الأمريكي عندما انحرف عن هذه السياسة ، وقام بمحاولات عديدة لادخال الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية .

لقد كان الأمريكيون يعلمون ماذا يعني التدخل العسكري هنا وهناك وتحمل مشاكل « لا ناقة لهم فيها ولا جمل » وكانوا يعرفون بالضبط ماذا يعني ذلك وكانت ذاكرتهم لا تزال تحتفظ بالتجارب الأوربية القاسية ، لأنّهم أوروبيون انتقلوا الى أمريكا . فقرروا ألا يعيدوا التجربة هناك ، وظلوا فترة طويلة هكذا ، الى أن تم ادخالهم

أخيرا في الحرب العالمية الثانية و بعدها أصبحوا ورثة الاستعمار القديم ، وتدخّلوا في أكثر بقاع العالم والآن هم يعانون نقصاً كبيراً في كثير من المجالات بسبب هذه الأعمال ، وخصوصاً بعد الحرب الفيتنامية ، فقد أصيب الشعب الأمريكي بهزة عميقة في كيانه الداخلي ، ولا اعتقد أن بأمكان هذا الشعب أن ينسى هذه الهزة .

لقد كان الشعب الأمريكي في فترة ، من الشعوب التي لا تقهر . فموارده الكبيرة ، وقواه العظيمة ، وانجازاته التكنولوجية الباهرة . ولكن ثبت الآن بأن الأمريكيين ليس فقط يقهرون وانّما يتراجعون أيضاً .

الأرادة ودورها في وقف الأنهيار :

في حالة هبوط روح الحضارة ، والمدنية ، وتكون قسوة القلب ، أي تحول الحضارة الى حقيقة استاتيكية جامدة ، يمكن أن يلعب الفكر والثقافة والأرادة والقيم دوراً هاماً . فبعد أن تقسو القلوب ، وتتحول النظرات الرسالية الى توجهات مادية ، ويحين وقت الأنهيار فأنّ بالامكان و بتحول جذري داخل الحضارة و بهمة عالية من بعض أبنائها ، أن يوقفوا انهيارها وتدهورها . مثل ما حدث مع قوم يونس الذين يقص علينا القرآن قصتهم :

« فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلّا قومَ يونس لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » .

(٩٨/يونس)

فقد كان قوم يونس يعيشون في آخر لحظات حضارتهم ، والتدهور الذي كان يرتقب أن ينتهي بصاعقة من السماء ، تداركوه بعد أن هجرهم نبيهم ، ولاحت نذر العقاب الشديد ، فلجأوا الى علمائهم وسمعوا نصيحتهم ثم غيروا مسيرتهم ، وأوقفوا بذلك الأنهيار المحتوم .

هذه قضية هامة وفريدة في تأريخ الأمم . وأهميتها نابعة من انّها تدل على أن ارادة الانسان أقوى من مسيرة الزمان وظروفه .

الفصل الخامس



القيادة في المجتمع الأسلامي

أعطى الأسلام أهمية كبرى لمسألة القيادة بمفهومها العام وهو وجهة الانسان في الحياة ، كما أعطى أهمية مماثلة لها بمفهومها الخاص وهي القيادة السياسية والاجتماعية للانسان .

وحديثنا عن القيادة سيكون في بعدين ، القيادة كحالة اجتماعية ، والقيادة كتسلسل تنظيمي .

القيادة حالة اجتماعية :

قبل كل شيء لابد أن نعرف أن القيادة الرسالية هي قيادة القلوب وليست قيادة الأبدان . وهي قيادة الرضا وليست قيادة التسلط . وهي قيادة التسليم وليست قيادة الارهاب ، ومن دون ايجاد حالة الرضا التي هي الحالة القيادية في المجتمع ، يستحيل ايجادها في قمة الهرم التي تشكل القائد الأعلى لهذه الأمة .

إن من الصفات الاساسية للمسلم الرضا ، وذلك يعني ايمان الانسان بمحورية الحق في هذه الحياة . فاذا كان هناك انسان أسود اللون في مجتمع يكون السواد فيه ، قيمة سلبية فلا يجوز ان يموت قلقاً و يقول لماذا خلقني الله هكذا .

واذا كان هناك رجل قميء في مجتمع كل أبنائه طوال القامة فليس له أن يقلق نفسه و يغتاظ و ينظر الى الحياة عبر نظارة سوداء .

الرضا هو اعتراف الانسان وتسليمه واقتناعه بدوره المحدد له في الحياة و بحالته المتميزة في المجتمع ثم الشروع ابتداء من تلك النقطة للتحرك الى الامام ، والذي في أعلى الجبل ، الرضا بالنسبة اليه هو اعترافه بأنّه فوق الجبل ، وعليه أن يتحمل مسؤوليته كانسان واقف فوق القمة . أمّا الذي لا يزال في السفح أو الذي يعيش في الوادي فيجب أن يرى نفسه حيث هو حتى يبدأ من تلك النقطة المنحدرة فيرتفع الى الأعلى .

هذا هو معنى الرضا .. والمجتمع المسلم هو مجتمع الرضا . كل فرد فيه يؤمن بحجمه ودوره ، وتكون نظرته الى نفسه والى امكاناته والى موقعه الاجتماعي والى واجباته في هذا الموقع نظرة سليمة ، نظرة الحق ، نظرة لا تتبع الهوى أو الأماني . كالبعض ممن يعيش في مواقفه الأماني ، فيتمنّى أن يكون رئيس جمهورية ، و يتعامل مع أهله في البيت على هذا الأساس ، واذا ذهب الى عمله وهو مدرس مثلاً يتعامل مع طلابه وكأنّه الرئيس وهم رعيته ، واذا خرج الى السوق فهو يتعامل مع الباعة والتجار بهذه النظرة أيضاً . ان هذا الانسان لا يرى الحياة الا من خلال أمانيه وهذا خطأ كبير ينهى الاسلام عن الوقوع فيه .

والقرآن يعيب على طائفة من أهل الكتاب كانوا لا يعرفون الكتاب الا أماني ، يقول تعالى :

« ومنهم أميّون لا يعلمون الكتاب الا أماني »

(٧٨/البقرة)

ومن أعظم صفات المؤمنين ، هي صفة الرضا .. والقرآن الحكيم يعبّر عن هذه الصفة بعدة أساليب فقد يعبّر عنها بالرضا قائلاً :

« يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » .

(٢٧-٣٠/الفجر)

« وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية ، في جنة عالية » .

(٨ ــ ١٠/الغاشية)

وقد يعبر عنها باليقين قائلا :

« وجعلنا منهم ائمة يهدون بأمرنا ، لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » . (٢٤/السجدة)

وقد يعبر عنها بالصبر :
« انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » .

(١٠/الزمر)

وقد يعبر عنها بالتسليم :
« ان الله وملائكته يصلّون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلّموا تسليما » .

(٥٦/الأحزاب)

وقد يعبر عنها بالاسلام ، الذي هو تعبير عن التسليم :
« ان الدين عند الله الاسلام » .

(١٩/آل عمران)

« ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه » .

(٨٥/آل عمران)

وقد يعبّر عنها بالاطمئنان ، فيقول في قصة ابراهيم (ع) :
« قال أولم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي » .

(٢٦٠/البقرة)

فالرضا ، واليقين ، والصبر ، والاسلام ، والتسليم ، والطمأنينة ، والسكينة تعابير مختلفة لحالة واحدة ، هي قبول الواقع الحق والابتداء من منطلق الحق لبناء كيان التطلعات ، أي الابتداء من حيث هو ثم التحرك الى الامام والارتقاء الى الأعلى .

وانّما اختلف التعبير عن هذه الحالة . لأنّ أبعادها تختلف .. فباعتبار قناعة الانسان بما هو واقع في الخارج تسمى هذه الحالة بالرضا ، و باعتبار انعكاس هذه القناعة على النفس البشرية واعطائها الهدوء ، تسمى بالسكينة ، و باعتبار تطابق هذه القناعة مع الحق الخارجي ، تسمى باليقين ، و باعتبار أن هذه الحالة تسبب خضوع صاحبها لمناهج الله تسمى بالاسلام أو التسليم . فالحالة واحدة بينما الاعتبارات مختلفة وبمقتضى كل اعتبار يسمي القرآن هذه الحالة باسم معين .

كيف نحصل على الرضا ؟

ان الرضا واليقين والطمأنينة والسكينة .. أهداف كبيرة يجب أن يسعى الفرد من أجل تحقيقها في ذاته . أن ابراهيم (ع) كان يتضرع الى الله سبحانه وتعالى لكي يريه كيف يحي الموتى لكي يطمئن قلبه . ونحن بدورنا نسعى من أجل الحصول على اليقين عن طريق تأمل آيات الله في الكون . والتدبر في آيات الله في القرآن . ففي سورة الأنفال يقول القرآن الحكيم :

« انّما المؤمنون الذين اذا ذُكِرَ الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربّهم يتوكلون » .

(٢/الأنفال)

وفي سورة التوبة يقول تعالىٰ :

« واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايماناً ، فأمّا الذين آمنوا فزادتهم أيماناً وهم يستبشرون » .

(١٢٤/التوبة)

انّهم حينما يزدادون ايماناً يستبشرون ، لأنّ هذه الحالة هي حالة السكينة والرضا والهدوء النفسي فتظهر على وجوههم . ويمضي القرآن لتكملة الصورة فيقول :

« وأمّا الذين في قلوبهم مرض ، فزادتهم رجساً الى رجسهم وماتوا وهم كافرون » .

(١٢٥/التوبة)

وفي سورة الكهف يقول الله تبارك وتعالى :

« إنّهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم » .

(١٣-١٤/الكهف)

قلب الانسان في اهتزاز وقلق ، وكأن الايمان حزام أمن يربط اطرافه فلا يدعه قلقاً متوتراً .

وعند مواجهة الأعداء يحكي القرآن حالة المؤمنين وذلك في سورة الأحزاب :

« ولمّا رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ،

ومازادهم إلاّ ايماناً وتسليماً » .

(٢٢/الأحزاب)

وايمانهم بآيات الله و بوعده زادهم ايماناً وخلق في انفسهم شعوراً بالرضا والتسليم وهو تمام الايمان .

وفي سورة الفتح يقول القرآن الحكيم :

« هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا أيماناً مع ايمانهم » .

(٤/الفتح)

وفي سورة المجادلة :

« لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه » .

(٢٢/المجادلة)

هنا يعبّر القرآن الحكيم عن تلك الحالة النفسية التي يعيشها المؤمن وهي حالة السكينة والهدوء بأنّها بسبب تأييد من قبل الله سبحانه وتعالى .

ولأنّ المجتمع المسلم مجتمع الرضا والتسليم ، فأنّ طاعة القيادة فيه تصبح قضية طبيعية لأنّ الفرد هنا يعترف بمستواه الحق . و يرضى أن يتعامل على اساسه . بعكس الانسان الذي يرى نفسه فوق مستواه و يزعم أن الناس يسيئون اليه . مثلاً الذي يتصور نفسه بمستوى رئيس جمهورية ولكن يعامل كمعلم في مدرسة ، أو الذي يرى نفسه بمستوى المرجع الأعلى و يتعاملون معه كطالب علم بسيط ، أو من يرى أنّه ينبغي أن يكون مديراً لهذه الأدارة فينصب كاتباً بسيطاً . هذا الانسان يعيش القلق ولذلك من الصعب عليه أن يطيع قيادته . الا أن تفرض القيادة قراراتها عليه فرضاً فأنّه يفعل ذلك مرغماً ولا يعطي العمل حقه لانّ تطبيق القرار بدون ارادة الانسان ، يثبط رغبته ويحول دون ابداعه فتأتي النتائج مخالفة تماماً لما أرادته القيادة .

هذه حالة الدول البيوقراطية التي كلما بحثوا عن حل لمشاكلهم لم يتوصلوا الى شيء ماداموا لايبحثوا في الأسباب التي تكمن في نفسية الموظفين الذين لا يطبقون القرار باعتباره واجبا انسانيا واجتماعياً . وانّما يبحثون ابدا عن الطرق الملتوية للتهرب من

واجباتهم فترى الموظف ينظر خلال الدوام عشرات المرات الى ساعته مترقباً أنتهاء الدوام ليقفز من مكتبه الى خارج الدائرة .

والمجتمع الذي يعيش أبناءه القلق النفسي وحالة عدم الرضا والتسليم تصبح الطاعة فيه قسراً والقسر لا يدوم .

امّا في المجتمع الاسلامي فالقائد بامكانه أن يجلس ويخطط و يفكر و يقوم بالواجبات الأساسية للقيادة التي سنشرحها فيما بعد لأنّه يعلم أنّه حينما يقول كلاماً فالناس سيطبقونه بدون تردد بل برغبة وعزيمة .

وحالة القيادة تؤثر سلباً أو إيجاباً على قرارات القيادة فاذا فقدت حالة الرضا والتسليم في المجتمع يصبح حال قائده كحال الأمام علي عليه السلام حين يتأوه و يقول : « و يلكم أفسدتم عليّ رأيي » . قالها عندما ظهرت حالة التمرد والعصيان في صفوف أصحابه وأخذوا لا يطبقون قرارات القيادة بالشكل المطلوب ففي هذه الحالة يجد القائد نفسه حائراً لا يدري أي قرار يتخذ وكيف يخطط لأنّه كلما رسم خطة أفسدها الناس بعدم الطاعة والتسليم .

يقول الأمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) مخاطباً أولئك المتخاذلين الذين أفسدوا عليه رأيه ولم يطيعوه في حرب معاو ية ، حتى غزى جيش الشام مدينة الأنبار وقتل والي الأمام عليها حسّان بن حسّان البكري ، وجمع كثيرمن رجالها ، ونهب ما أستطاع نهبه من أموال وحلي :

« .. قاتلكم الله ! لقد ملأتم قلبي قيحاً ، وشحنتم صدري غيظاً ، وجرّعتموني نُغب التّهمام ـ الهم ـ أنفاساً ، وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان ؛ حتى لقد قالت قريش : إن آبن أبي طالب رجل شجاع ، ولكن لاعلم له بالحرب .

لله أبوهم ! وهل أحدٌ منهم أشدّ لها مراساً وأقدم فيها مقاماً منّي ! لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، وهأنذا قد ذرّفت على الستين ! ولكن لارأي لمن لايطاع » .

انّ المجتمع الذي تنعدم فيه حالة الطاعة لا تستفيد من القيادة الناجحة ولو كانت تجسد قمة القيادات كالامام علي عليه السلام .

التسلسل التنظيمي :

و بعد أن تتمتن الارضية القيادية داخل المجتمع (وهي حالة الرضا والاطمئنان) يأمر الاسلام بالتدرج القيادي أو التسلسل التنظيمي .

فماذا يعني ذلك ؟

ان المجتمع أشبه شيء بشجرة كثيفة الاغصان . فالشجرة لا تتصل أوراقها بالساق مباشرة ، وانّما عبر الفروع والاغصان المتدرجة في الكبر حتى تتصل بالساق وتستمد قوتها منه . أليس كذلك ؟

وكلما زادت الفروع التي تتفرع عن الساق الواحدة في مجتمع (أي زادت الحلقات في السلسلة القيادية) كلما كان هذا المجتمع أقوى . أمّا اذا فقد المجتمع ذلك التسلسل فوُجد فيه رأس الهرم ووجدت فيه القاعدة ، ولكن لا توجد بين الرأس والقاعدة الحلقات الوسيطة ، فان هذا المجتمع يكون ضعيفاً بل يصبح كالموجودات الطحلبية التي تفتقر الى الارتباط الوظيفي حيث تعمل كل خلية بمفردها وأن كانت ضمن كتلة واحدة .

ومشكلة مجتمعاتنا الاسلامية هي فقدان الوسائط القيادية . ففي هذه الأمة نجد القيادات العليا من الطليعيين ومن العلماء الربانيين كما توجد القاعدة العريضة المؤمنة المخلصة . ولكن هناك فجوة واسعة بين هذه القاعدة ، و بين القيادة . وهذا الأمر يعود الى نقصين أساسيين :

الاول : عدم وجود الطاعة الأمتدادية :

فأبناء المجتمع الاسلامي لا يطيعون قياداتهم طاعة امتدادية وانّما طاعة ذاتية . وهناك فرق بين الأثنين .

قد ترى شخصاً مؤهلاً للقيادة ، مؤمناً صادقاً عالماً زاهداً فتطيعه طاعة ذاتية ، وقد يأتيك رجل و يقول عندي أمر من القائد الأعلى أنّي وكيله عليك . فتطيع هذا الانسان لا لشيء الا لأنّه يحمل حكماً من ذلك القائد الذي تطيعه . هذه الطاعة تسمى أمتدادية . والمجتمعات الناجحة تقاس بمقدار طاعتها الأمتدادية لقياداتها .

ان مجتمع الرسول (ص) الذي كان يتسم بالحيوية والفاعلية كان يطيع قياداته

اعتبارياً ، فلأنّ الرسول (ص) يعطي حكم القيادة لهذا الانسان فانّه يطاع ، وقد يكون هذا الانسان أسامة بن زيد وهو شاب عمره ١٨ سنة ، يؤمّره رسول الله (ص) على رأس جيش فيه ثلاثة آلاف من المسلمين وفيهم كبار الصحابة .

هكذا كانت القيادة عند المسلمين وعند كل مجتمع متقدم . أمّا المجتمعات المتخلفة التي ننتمي اليها فهي لا تحمل هذه الصفة ولكنّها تطيع فقط من ترى فيه أهلية مباشرة للقيادة وليس من يحمل أمراً من قبل القائد الأعلى .

النقص الثاني : عدم وجود التشجيع الكافي للقيادات الوسيطة وهذا في القاعدة وينعكس على التسلسل التنظيمي ، وذلك في فقدان التشجيع الكافي للقيادات الوسيطة اذ كل واحد من القاعدة يريد أن يتصل مباشرة بالقائد الأعلى بطريقة أو بأخرى ، ولا يفكر أن هذا القائد لا يملك مئة قلب في جوفه يتمكن بها من أدارة كل الشئون مباشرة . ثم لنفرض أن عنده الامكانية الكافية لقيادة المجتمع ولكن أفلا يوجد في هذا المجتمع من يقوم بدور آخر ؟ هل انحصرت الاعمال كلها في القائد الأعلى . ان هذا النوع من التفكر الخاطىء يسبب وأد القيادات الوسيطة في الأمة بانعدام التشجيع الكافي لها .

ونستطيع أن نضرب مثلاً واضحاً من الواقع العسكري . فالجيش الذي يفقد ضباط الصف والعرفاء ، ورؤساء العرفاء وما أشبه ، ولا يملك الا كبار الضباط لا يستطيع أبداً أن يقوم بعمل ناجح و يفتقد القدرة تماماً على تنفيذ العمليات التكتيكية ، من عمليات الهجوم والدفاع التي تحتاج الى المفارز والأفواج والسرايا والكتائب وما يحتاج الى تدرج الأوامر الى الجنود من قبل القائد العام في الظروف المختلفة .

وهذا يسري أيضاً على الأعمال الانشائية والعمرانية وكذلك على الأنظمة الجامعية والنشاطات الأخرى في المجتمع .

القيادة والانبعاث الاسلامي الجديد

كيف يبني الاسلام القيادات الوسيطة بين رأس الهرم وهو القائد الاعلى و بين القاعدة المطبّقة لاوامره ؟

للأجابة على هذا السؤال لا بدّ أن نذكر :

اولاً : ان الطاعة في الاسلام خاصة بالله سبحانه وتعالى ، اذ لا يجوز ان يطيع المسلم أحداً من دون الله أنّى كان ، ويعتبر ذلك شركاً بالله ، ولكن هناك فرق بين الطاعة الذاتية والطاعة الأمتدادية ، فالطاعة الذاتية انما هي لله وحده لا شريك له . اما الطاعة الامتدادية التي تكون لله ولكن عبر عبد من عباد الله امر الله بأتباعه وطاعته ، فأنها تكون بإذن الله ايضاً ، فالله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الحكيم :

« وما أرسلنا من رسول الا ليطاع بإذن الله »

(٦٤ / النساء)

لماذا نطيع رسول الله ؟ ولماذا نطيع الامام ؟ ولماذا نطيع ولي الامر ؟ لان الله أمرنا بذلك . ولولا أن الله أمر بطاعة رسوله وطاعة اوليائه ، لكانت تلك الطاعة نوعاً من الشرك .

ثانياً : اننا لا نرى في القرآن الحكيم آية تأمرنا بطاعة أحد الا بعد أن تأمرنا بطاعة الله ، أو تذكر إذن الله في ذلك .

يقول تعالى :

« أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم » (٥٩ / النساء)

فتأتي طاعة الله أولاً ، ثم بعد ذلك يأتي الامر بطاعة الرسول وأُولي الأمر. وحتى أمر الله بالاهتمام والمحبة والمودة للوالدين والاقارب ، انما يأتي بعد الحديث عن عبادة الله ..
« الا تعبدوا الا اياه و بالوالدين إحساناً »

(٢٣ / الأسراء)

في البداية يذكّرنا بعبادة الله اي طاعة الله ، ثم بالاحسان الى الوالدين الذي هو ضمن طاعة الله ..
« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً »

(٢٦ / النساء)

فالطاعة اذن خاصة بالله سبحانه ، وآيات القرآن تعوّدنا على هذه الحالة ، فتجعل طاعتنا امتداداً لتلك الطاعة . وحينما تتعود النفس على هذا النوع من الطاعة ، يكون باستطاعتها ان تطيع أيّ انسان مهما كانت قناعتها به ومهما كانت صفاته ، لا لشيء الاّ لأنّ الله أمر بذلك ، وأذن به . وإذا سحب الله أمره وإذنه فأنّ ذلك الانسان يسقط مباشرة عن اعتبار الطاعة .

في رواية ان الامام الجواد (عليه السلام) الذي كان قد عُهد اليه بالامامة في باكورة شبابه ، كان له عم أبيه وهو من فقهاء الطائفة في زمانه ، وكان قد أبيضّت كريمته في التفقه في الدين ، وكان ذا جاه عريض في المجتمع ، ولكنه كان لا يقصّر في طاعته للامام الجواد (عليه السلام) . فجاء اليه بعض الناس فقالوا له : كيف تطيع هذا الشاب الصغير العمر وأنت بهذه المنزلة ، وكيف تعتبره اماماً لك وأنت رجل كبير وجاهك عند الناس عظيم ، وما أنت عليه من العلم والفقه ؟!
فقال لهم : ماذا لو أنَّ الله سبحانه لم يجد في هذه الشيبة صلاحية الامامة ، ووجدها عند هذا الفتى .
لقد كان هذا الشيخ يصفق حذاء الامام الجواد أمامه تكريماً له ، لان تكريم الامام وطاعته لم يكن لأنّه أكبر العائلة سناً كما هو الحال في التقاليد العشائرية . ولا لأنّه صاحب شيبة لذلك تتوجه اليه الانظار. وليس لانه مشهور عند الناس . أو لأنّه صاحب مال وافر، وانما لان الله أمر بطاعته ، فالطاعة لله و بإذن الله فقط .

ومن هنا تجد ان الامام علي (عليه السلام) حينما يبين لنا الحكمة في ان الله لم يزّود أنبيائه بالسلطة المادية أو بالثروة والمال يقول : «لان ذلك أبلغ في الاختبار وامتحان الناس» .

لو كان الانبياء أصحاب اموال وسلطة قوية ، لما كان هناك ابتلاء حقيقي للبشر في أتباعهم .

وأتصور أن هذه الفكرة تستنبط من قوله سبحانه وتعالىٰ في قصة نوح (ع) حينما جادله قومه وقالوا اننا لا نجد لك ولمن تبعك فضل علينا بل نظنكم من الكاذبين ، رد نوح عليهم ..

« أنلزمكموها وأنتم لها كارهون »

(٢٨ / هود)

أي انني لم آت برسالة وراءها قوة الحديد والنار، أو إغراء المال والثروة ، أو تكتيكات السياسة ، وانما جئت برسالة بيّنة ، يؤمن بها من يؤمن عن بيّنة ، ويكفر بها من يكفر عن بيّنة . فالايمان والكفر يجازى عليهما من قبل الله سبحانه وتعالىٰ اذا كان بكامل اختيار الانسان ووعيه حتى يصبح ذلك امتحاناً وفتنة للانسان ، وألّا تبطل حكمة خلق الخلق وانشاء الكون .

وحينما يحل الاسلام هذه العقدة من المشكلة السياسية والاجتماعية في المجتمع ، آنئذ ترىٰ ان القيادات الوسيطة تبرز الىٰ الوجود دون اي موانع أو عقبات . فالقائد الاعلىٰ وهو الولي الفقيه أو امام الامة ، يطاع باذن الله .. والذين ينصبّهم كولاة للاقاليم والاقطار هم أيضاً يطاعون باذن الله . وهكذا يستمر التسلسل التنظيمي الهابط من رأس الهرم القيادي حتى يصل إلىٰ قاعدة الهرم المتمثلة بعامة الشعب . فكل فرد يطيع الرئيس المباشر له ويكون بذلك قد أطاع الله سبحانه في النهاية . وتكون هذه الطاعة طاعة رضا وقناعة . وليست طاعة ذاتية . وتكون الامة كما كانت في عصر الرسول (ص) في إعلىٰ درجات الانضباط حيث تجد ان اسامة بن زيد الذي لم يكن قد تجاوز العشرين من العمر، يؤمّر على جيش كبير، وفي الجيش كبار الصحابة ، وأن الرسول (ص) يعطي الصلاحيات القيادية لبعض العناصر لحكمة معينة حتىٰ ولو كانت الجماهير لا تقبل

بـذلك لعدم فهمها لحكمة الرسول (ص) ولكن الجماهير كانت تخضع بالتالي ، لان طاعة هذا الانسـان انما هي طاعة لله .

ويـذكـر المؤرخون ان الانضباط التنظيمي في الجيش الاسلامي كان أعلىٰ انضباط عرفته الجيوش عبر التاريخ . فاذا قال القائد شيئاً ، سكت الجميع .

مواصفات القيادات الوسيطة :

والـنـقـطـة الاسـاسـيـة الـتـي يـنـبغي أن نشير اليها في التسلسل القيادي في المجتمع الاسـلامي هي أن القيادات الوسيطة لا بدّ ان تتصف بذات المواصفات التي يتصف بها رأس الهـرم . والقائد الاسلامي لا يختار القيادات الوسيطة انطلاقاً من وجاهتها وشهرتها او ثروتها .. وانما يختارها وفق مقياس الحق وهو التقوىٰ .

انـه يخـتـار الا تـقـىٰ والا كـفـأ والاعلم والافضل ادارة ووعياً .. ولأن الناس يتبعون الـقـائـد بـلا مناقشة و باذن الله فسوف يتبعون من يعيّنه القائد على أمر من الامور ، وبهذا الا تباع ستتوفر للامة الاسلامية فرصة وجود قيادات فاضلة جداً ونابعة من عمق الواقع .

واذا لـم تـكـن الخـيرة بيد القائد الاعلىٰ ، كما هو الحال في الامة الاسلامية اليوم ، وأرادت المـجـمـوعات الاسلامية أن تختار قياداتها الموقعية الميدانية .. كما لو افترضنا أن هـنـاك تجـمـعـاً اسلامياً مصغَراً في بعض ولايات الهند او بلاد أفريقيا او قرىٰ اندونيسيا . فـأن المـقـيـاس الـذي يختـار الـقائد على ضوءه هو مقياس التقوىٰ (ان اكرمكم عند الله اتقـاكم) وليس على اساس انه أكثر لباقة وطلاقة لسان . أو لانه الاكبر سناً . او لانه الاسـبـق في الـنـضـال ، او لانـه أكثر مالاً وجاها .. فهذا هو الانحراف ، بل هو الشرك الخـفـي . فـاذا اخـتـاروا الا تـقـىٰ والاعـلـم والاكفأ ادارة ، وبالتالي اذا انطلقوا من قيم الاسـلامـيـة في اختيارهم فسوف تكون هذه الخيرة من قبهلـم سبباً في ديناميكية التجمع وفي المـزيـد من فاعليته ، وسبباً في أن كل واحد من أفراد ذلك التجمع سيسعىٰ لتحصيل ذات الـقـيـم الـتـي اختاروا القائد انطلاقاً منها . ولكننا اذا اخترنا القائد باعتباره اكثر مـالا مـثـلاً ، فـأن كـل واحـد سـيـقـول حـسـنـاً سأحاول الحصول على المال الكثير حتىٰ

يختاروني قائداً . ولو اخترنا القائد باعتبار قبيلته ، او عشيرته ونسبه ، فكل واحد سيسعىٰ للتطبيل والتزمير والدعاية لقبيلته وعائلته لكي ينتخب قائداً ، وهكذا يكون تركيز المجتمع على القيم الجاهلية الزائفة .

ولو كانت القيادة تنشأ في بلد باعتبار أن الحاكم من منطقة تكريت مثلاً كما هو الحال في عهد نظام صدام في العراق . فأنّ مثل هذه السلطة لا يهمها كفاءة من توليهم المناصب انما المهم لديها الولاء التكريتي . فالملازم حسن ابن عم الرئيس ، يجب أن يكون وزيراً للدفاع حتىٰ ولو كان حديث التخرج من الكلية العسكرية ، وكان يوجد في الجيش العراقي من يحمل أعلىٰ الرتب العسكرية ! وفي ظل هذه النظرة الضيقة سيكون همّ الكثيرين منصبّاً على التزلف الى العائلة الحاكمة ، لأن هذا هو الطريق الوحيد لاحراز المكاسب والحصول على المنافع .

ان على التجمعات الاسلامية أنّى انشئت ان تحذر من التورط في الانحراف الرئيسي ، وهو الانحراف في اختيار القادة وفق المقاييس الجاهلية . فمنذ البدء يجب أن تختار قياداتها وفق المقاييس والمفاهيم الاسلامية الحقة .

وفي روايات كثيرة يبين لنا الاسلام كيفية اختيار القيادة وسنورد بعضها في الفصول القادمة ان شاء الله .

رجال الانبعاث الاسلامي الجديد :

والان أود ان اذكّر بمسألة هامة أمهد لها ببيان هو أن الحضارات البشرية تجليات بعد انطواءات فهي تسير بين قطبي الكمون والظهور (حسب التعبير الفلسفي) فتكمن وتختفي لفترة ، ثم تنبعث من جديد في فترة أخرىٰ . فنرىٰ الحضارة الهيلينية مثلاً اختفت لفترة ثم ظهرت بأسم آخر وبشكل آخر ولكن جوهرها بقي ذات الجوهر . وتسمّىٰ الفترة بين ظهور وظهور بفترة السبات وفي فترة السبات تبقىٰ مجموعة من الناس خازنة للحضارة تحتفظ بقيمها وأساليبها وارتباطاتها وعلاقاتها ، حتى تأتي مرحلة مواتية لانبثاق هذه الحضارة من جديد . فمثلاً ما يسمىٰ بالحضارة الغربية التي هي امتداد للحضارة

الهيلينية ، ظلت لفترة من الوقت في سبات عميق . ثم بعد فترة واذا بها تبدأ من جديد وتنطلق . وخلال هذه الفترة التي دامت قرونا ، الذي حافظ على هذه الحضارة وقيمها في الفترة بين سنتي ٣٧٠ الى ١٦٥٠ للميلاد هي الكنيسة . وكما تكتب التجارب في كتاب وتسجل في سفر ويبقى في مكان أمين حتى يأتي من يضع محتوياته موضع التنفيذ ، كانت الكنيسة تحافظ على الحضارة المسيحية . علماً بأن الكنيسة في الفترة التي أشرنا اليها والى بداية ظهور الاسلام وانتشاره ، كانت تقريباً على حق باعتبار ان الرسالة الالهية القائمة آنذاك كانت رسالة المسيح عيسى بن مريم (ع) .

ونحن في العالم الاسلامي نعيش اليوم نهاية فترة سبات طويلة بدأت منذ القرن السابع الهجري حين انطوت الامة على نفسها ، وقعد الناس قادة وعلماء في بيوتهم ، وانتهت بانبعاث الثورة الاسلامية في ايران الذي لم يكن الا جزءاً من ظهور وتجلي الحضارة الاسلامية .

دعنا نتسائل : خلال هذه الفترة من الذي حافظ على الاسلام ؟

هل الذي حافظ على الاسلام الحق هي هذه العسكرتارية الحاكمة والمتحكمة في البلاد ؟

هل الذي حافظ على الاسلام هم المثقفون بأساطير وخرافات الجاهلية ؟

هل كانت الجامعات المتأثرة والمقلدة لافكار الغرب والشرق هي التي تكفلت بذلك ؟

كلا .. انما الذي حافظ على المكتسبات الحضارية للامة الاسلامية هي الحوزات العلمية وتلك الصفوة من المؤمنين الذين صانوا العلم والهدى ، وحافظوا على العلاقات الايمانية بينهم واحتفظوا بمكاسب الحضارة .

وحين نشهد البعث الاسلامي اليوم ، فان ذلك لم يأتِ من الجامعات ، ولم ينطلق من أروقة السياسة ولا من المجالس البرلمانية ، ولا من غرف القيادة العسكرية ، ولا من دور النشر التي همها ترجمة الكتب المؤلفة في الشرق والغرب .. انما هذه الانبعاثة الجديدة جاءت على يد شخص هو الامام الخميني (حفظه الله) قضى عمره في المحافل العلمية في حوزة قم متأثراً بذات الاساليب والقيم الاسلامية التي طبّقها النبي محمد (ص) .

ان هذا البعث يجب ان ينطلق من هذه الحوزات لان الثقافات والافكار الغربية والشرقية التي حاكتها وقلدتها جامعاتنا وساستنا وعسكريونا ونوّابنا في المجالس وطبقاتنا المرفهة ، لم تكن قادرة على تفجير البعث الاسلامي ، بل كانت بضاعة جاهلية ردت الى أصحابها .

ان البعث الاسلامي انطلق من هناك ، وهذا هو تفسير ما يقوله كبار المفكرين الغربيين معترفين بأن لا خلاص للأمة الاسلامية الا على يد علماء الدين .

يقول المفكر الغربي (هاملتون جب) الذي يسميه الكتّاب الغربيون بالعلّامة :

« لا يمكن للامة الاسلامية ان تصل الى مستوى من الحضارة الا على يد علماء الدين » .

علماء الدين .. خريجو الازهر ، مراجع النجف وكربلاء ، وقم وقيروان وغيرهم ، هم الذين طردوا الاستعمار العسكري من البلاد الاسلامية . من كان السنوسي ، ومن كان المهدي ، ومن كان الافغاني ، ومن كان الشيرازي ومن كان عبد الكريم الخطابي ، ومن كان عبد القادر الجزائري ؟

من كان هؤلاء الذين نهضوا في وجه الاستعمار ؟ في أي جامعة من جامعات الشرق أو الغرب درسوا ، ومن أي منهل من مناهل الفكر شربوا ؟

لقد كانت ثقافتهم ثقافة أسلامية خالصة ، ولذلك تمكنوا من إنقاذ البلاد الاسلامية من سيطرة الأجانب العسكرية .

أمّا أولئك الساسة الذين خضعوا للثقافة الغربية وتأثروا بها ، فلم يتمكنوا الا أن يعيدوا البلاد الاسلامية هدية متواضعة الى أسيادهم ، لان ذواتهم كانت تدين بالعبودية للشرق والغرب ولم يكونوا يرون خلاصا لنا الا بأتباع الشرق أو الغرب . كانوا مهزومين نفسيا ، بل أنهم كانوا من أبناء الشرق والغرب ولم يكونوا من أبناء الأمة الاسلامية حقا ، وان انتموا مادياً (فيزيقيا) الى بلاد الاسلام ، والمادة لا تستطيع ان تصنع شيئا في عالم السياسة ، لان الروح هي التي تعمل كل شيء .

لذلك تجد ان القيادات الاسلامية التي ندعوا اليها والتي نشير الى مراكزها ومنطلقاتها ومرابض رجالها ، هي التي تستطيع ان تنقذ بلادنا من أيدي الشرق والغرب ،

وأن تبعث روحاً جديدة في هذه الأمة ، وتبني حضارة تليدة وجديدة بأذن الله وهي الحضارة الاسلامية . وهذه هي قمة الهرم التي ندعوا اليها في التجمع الاسلامي ، والتي تأتي خالصة من نفس الينبوع الذي تفجر على يدي النبي الأعظم (ص) والأئمة المعصومين (عليهم السلام) .

والعالم اليوم ينتظر البعث الاسلامي على يد أولئك الذين حافظوا على الحضارة الاسلامية خلال فترة الرقاد العميق في العالم الاسلامي . أما تلك الفئات والطبقات والاحزاب والمنظمات التي انساقت مع الشرق والغرب واستعبدت عبودية ثقافية من قبل الأجانب ، فأنها لا تزيدنا الا ضلالة وتيها وابتعادا عن ذاتيتنا وعن أصالتنا وحضارتنا .

مواصفات القدوة :

في حديث شريف يرسم لنا المقياس الذي على ضوئه يجب أن يختار القائد :

« اذا رأيتم الرجل قد حسن سمته وهديه ، وتماوت في منطقه وتخاضع في حركاته ، فرويدا لا يغركم ، فما أكثر من يعجزه تناول الدنيا وركوب الحرام منها لضعف بنيته ومهانته وجبن قلبه ، فنصب الدين فخاً لها فهو لا يزال يختل الناس بظاهره فأن تمكن من حرام اقتحمه » .

فهذا النموذج من الناس ، وهو الأنسان الذي يتخاضع في حركاته ولا يتحدث الا بلين وبصوت خافت ، ويمشي بوقار ، ويتصنع صفات الأخيار ، يحذرنا الأمام منه ويقول : لا يغرّنكم هذا ، فأنه قد يكون ذئباً في آهاب شاة ، وقد تكون روحه روحاً فاسدة ، الآ أنّ ضعفه وذله وصغاره في أعين الناس ، هو الذي يمنعه من ان يقتحم الحرام ، وليست أرادته .

ثم يقول (عليه السلام) :

« واذا وجدتموه يعف عن المال الحرام ، فرويدا لا يغركم فأن شهوات الخلق مختلفة . فما أكثر من يثبو عن المال الحرام وان كثر ، ويحمل نفسه على سؤها قبيحة فيأتي منها محرماً ما وجدتموه يعف عن ذلك فرويدا لا يغرّنكم حتى تنتظروا ما عقده عقله ، فما أكثر

من تـرك ذلـك أجمع ، ثم لا يرجع الى عقل متين فيكون ما يفسده بجهله أكثر مما يصلحه عقله » .

قـد يـكـون الـرجـل يـعف عن المال الحرام ولكنه لا يعف عن الشهوات الاخرى فلا يـغركم عفافه عن المال الحرام ، وقد يكون متقيا يعف عن سائر الشهوات ولكن لا يكفي ذلـك لا تـبـاعه وجعله قدوة فقد يكون انسانا متقيا وورعا ولكنه لا يعود الى عقل سليم ، فـيـقـول الامـام انـظروا الى عقله ، فأذا وجدتم عقله متينا فرويدا لا يغرنكم حتى تنظروا أمع هواه يكون على عقله ، أو يكون مع عقله على هواه .

في حالة وحدة الرايات في مسيرة عريضة واحدة ، لا تعرف أن هذا الانسان يمشي مع عـقـلـه أم مع هـواه ، ولكن حينما تتفرق السبل آنئذ يُكتشف الرجل في أي اتجاه يسير ، وكـيـف محبتـه للرئـاسات الباطلة ، وزهده فيها . فأن من الناس من يترك لذة الاموال والـنعم المباحة المحللة فيترك ذلك أجمع طلبا للرئاسة حتى اذا قيل له اتق الله أخذته العزة بـالا ثـم فحسبه جهنم وبئس المهاد . وقد يكون الرجل تاركاً لكل الشهوات وعقله سليم ووعـيـه كـاف ولـكنه يسقط اذا امتحن في مضمار الرئاسة « الولايات مضامير الرجال » كـمـا في الحـديـث ، وحينما تأمره بالمعروف تجده يتكبر وتأخذه العزة بالأثم ، لان عقدة الـرئـاسـة تمـنـعـه مـن تـقـبـل الـنـصـح من أي كان . لذلك ترى أن هذا الانسان الزاهد المـتـعـفـف ، عـندما يتسلط عليه حب الرئاسة ، فأنه يقتحم ميادينها ، وقد حجبت بصره وبصيرته حجب داكنة فيقتحم المهالك ، ولا يهتم اذا هلك قومه وشعبه وتضررت أمته .. المهم أن يبقى هو سيادة الرئيس فهذا يكفيه . وهو لا يريد الأكل والشرب والراحة ! وانما يـريـد الـرئـاسـة فـقط . « فهو يتخبط تخبط عشواء يقوده أول باطل الى أبعد غاية الخسارة ويمـده ربـه بـعـد طلبه لما لا يقدر عليه في طغيانه فهو يحل ما حرم الله ويحرم ما أحل الله لا يـبـالي بمـا فات من دينه اذا سلمت رئاسته التي قد شقي من أجلها فأولئك الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم عذابا مهينا » .

ونتسائل : ما هي أذن صفات القائد الذي يجب أتباعـه ؟

يقول الأمام (عليه السلام) :

« الرجل ، كل الرجل هو الذي جعل هواه تبعا لامر الله ، وقواه مبذولة في رضا الله ،

يرى الذل مع الحق اقرب الى عز الابد ، من العز في الباطل ، ويعلم أن قليل ما يحتمله من ضرائها يؤديه الى دوام النعيم في دار لا تبيد ولا تنفذ ، وان كثير ما يلحقه من سرائها ان اتبع هواه يؤديه الى عذاب لا أنقطاع له ولا يزال ، فذلكم الرجل نعم الرجل فبه فتمسكوا ، وبسنته فأعملوا ، والى ربكم فتوسلوا فأنه لا ترد له دعوة » .

بعدما يحدد الامام مقاييس ثابتة لتقييم الرجال ويحدد مواصفات القائد ، آنئذ يقول لك تمسّك بذلك الرجل الذي لا يريد أن يعز نفسه مع الباطل ولكنه يتمسك بالحق ولو أدى ذلك الى ذلته عند الناس . فالعز في الدنيا محدود حتىٰ لو دام سبعين عاما ثم ماذا بعد ذلك اذا كان صاحب ذلك العز سيحترق بنار جهنم يوم القيامة مع عقارب كالبغال وحيات كالجبال وزبانية تعذيب يتميزون غضبا . فماذا ينفع أن ملايين البشر يمدحونه ويعظمونه ؟!

لقد كان أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مثالاً صادقاً لهذه الصفات التي يحددها لنا الأمام عليه السلام .

يقول الأمام علي (عليه السلام) وهو يصف أصحاب الرسول (ص) :

« لقد رأيتُ أصحاب محمَّد (صلى الله عليه وآله وسلم) فما أرى أحداً يُشبِهُهم منكم لقد كانوا يُصبحِون شُعثاً غُبراً ، وقد باتوا سُجَّداً وقياماً ، يُراوحون بين جباههم وخدودهم ، ويقضون على مثل الجمر من ذِكر معادهم كأنَّ بين أعُينهم رُكَبَ المِعزَى مِن طُول سُجودهم ، إذا ذُكرَ الله هَمَلتْ أعيُنهم حتّى تَبُل جيوبَهم ، ومادُوا كما يَميدُ الشّجر يوم الريح العاصف ، خوفاً من العقاب ورجاءً للثواب » .

أو ليس هؤلاء هم الذي يجب ان نتمثل هداهم ونقتدي بسيرتهم ونختار قياداتنا وفق مواصفاتهم . ان هؤلاء لم يكونوا أنبياء وانما كانوا أصحاب محمد (ص) اقتبسوا من نور الرسالة شعلة اوقدت في قلوبهم محبة الله وخوف القيامة واثيرت في نفوسهم تلك الفطرة السليمة التى أودعها الله في كل انسان ، ونحن باستطاعتنا أن نكون مثلهم .

وعنه (عليه السلام) في حديث آخر يقول وهو يتأوه شوقاً الى أولئك الذين كانوا على عصر الرسول (ص) ، فاستشهدوا أو ماتوا ، وتركوه وحيداً :

« أين القوم الذين دُعوا إلى الاسلام فَقبلوه وقرأوا القُرآن فَأَحكموه وَهيجُوا إلى

الجهاد فَوَلِهوا وَلَهَ اللِّقاح ــ الناقة ــ إلى أولادها ، وسلبوا السيوف أغمادها وأخذوا بأطراف الارض زحفاً زحفاً ، وصفاً صفاً ، بعضٌ هلَكَ وبعضٌ نجا . لا يُبَشَّرون بالأحياء ، ولا يُعزَّون عن الموتى . مُرْهُ العيون من البكاء ، خُمص البطون من الصيام ، ذُبلُ الشفاه من الدعاء ، صُفْرُ الالوان من السهر ، على وجوههم غَبَرَة الخاشعين ، أولئك اخواني الذّاهبون ، فحق لنا أن نظمأ إليهم ونَعُضَّ الأ يدي على فِراقهم » .

انظروا الى هؤلاء .. فمن جهة تراهم حينما يدعوا الى الجهاد يهرعون اليه كما تهرع الأم الى أولادها ، ويواصلون جهادهم في أطراف الارض زحفا زحفا ، وصفا صفا ، ومن جهة أخرى عندما يسدل الليل استاره تجدهم غبر الوجوه خمص البطون ، مره العيون من البكاء ساهرين الليل في التهجد والعبادة .

ان المجتمعات المتقدمة ، ينقاد أفرادها لرواده وهم أصحاب العقول النيرة ذات الأ بتكار والأ بداع ، وذات الرؤية البعيدة والتطلعات السامية .

وأصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كانوا تلك الصفوة القادرة على الأ بداع والأجتهاد ، وهؤلاء هم الذين كانوا يقودون الامة الأسلامية في بداية تكونها ، واذا قرأت عن صحابياً من أصحاب رسول الله (ص) كان والياً في بلد من البلدان ، فأعرف أنّه كان يمثل محوراً لكل تحرك في ذلك المجتمع .

وفي الثورات الشعبية ، وبالرغم من أنّ الثورة تقوم بها الجماهير، الّا ان الذين يوصلون الثورات الى أهدافها هم مجموعة بسيطة من الثوار المخلصين المتفانين من أجل الأهداف التي يحملونها .

والاسلام انما يريد تغيير الأقلية الحاكمة في المجتمع لتكون هذه الأقلية القائدة ، مختارة على أسس سليمة وليس على أعتبارات زائفة .

بين العلم والمال

تعتمد الحياة على قاعدتين أساسيتين هما العلم والعمل . والعمل حينما يتكثف ، يتحول الى رصيد متراكم يسمى مالا . فالمال في الواقع ليس الا عملاً مركزاً ومتراكماً . أما العلم فهو جانب الرؤية الى الحياة ، ومعرفة الأنظمة الحاكمة فيها ، وطريقة تسخير الأرض وما فيها ، ومعرفة النظام الكوني الذي نعيش فيه .

وحينما نقيس العلم والمال ، فلا ريب أن العلم يسمو على المال ، ذلك لأنه لولا معرفة الانسان بالحياة ، لما كان هناك فرق بين البشر وبين سائر الأحياء ، بل لم يكن هناك فرق بين الانسان وبين الطبيعة ، والانسان انما سخّر الطبيعة بعلمه ، لذلك نجد في الآيات القرآنية تذكرة بهذه الحقيقة ، حيث يقول الله سبحانه وتعالى في قصة نبينا آدم (عليه السلام) :

«وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء .. ــ الى أن يقول ــ واذ قال ربك للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس أبى واستكبر .. »

(٣١ - ٣٤ / البقرة)

ان الملائكة سجدوا للانسان لأن الله علّم الانسان ما لم يعلم ، حينما زود الله أبانا آدم بالعلم . واذا كانت الملائكة هي الحقائق الغيبية الموكلة بالطبيعة ، فلقد أسجد الله للانسان كل الطبيعة وسخّرها له ، بأستثناء شيء واحد هو نفس الانسان الأمارة بالسوء ، التي تمثل تمرّد إبليس وعصيانه لأمر الخالق جل شأنه . وإذا استطاع الانسان أن

يخضع نفسه الأمارة بالسوء ، عندها ينتصر على الشيطان وبذلك تكون الطبيعة قد سخرت للانسان بشكل تام ، ويكون قد حقق السيادة الكلية على الكون ، وذلك ما يريده الله عزوجل .

كيف يستطيع الانسان ان يخضع نفسه الشهوانية لعقله النيّر وينتصر على عدوه الأكبر الشيطان ؟

ان ذلك يتم بالعلم أيضاً ، ذلك العلم الألهي الذي أودعه الله سبحانه وتعالى في الانسان . ان ابليس حينما عصى وتمرد لم يخرج عن حكم الله وسلطانه ، والله عزوجل قادر على أخذه متى شاء ، فكذلك الانسان الذي يحمل العلم الالهي يستطيع أن يقهر ابليس وينتصر عليه اذا أراد ذلك .

يقول تعالىٰ :

« انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون »

(٩٩ /النحل)

ويقول :

« ان عبادي ليس لك عليهم سلطان إلاّ من اتبعك من الغاوين »

(٤٢ / الحجر)

ويقول :

« فقاتلوا أولياء الشيطان إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً »

(٧٦ / النساء)

إنّ الانسان إذا سُلب علمه أصبح ليس فقط كسائر الحيوانات ، بل وأقل قيمة وأضل سبيلاً ، والسبب لأن الحيوانات التي لم تزوّد بالعلم ، قد زودت بالغرائز ، وبالقدرة على التكيف مع ظروف البيئة وقوانين الحياة ، بينما الانسان لم يزود على نفس المستوى بهذه الأشياء ، وانما زود بأفضل من ذلك وهو العقل ، الذي يتعلم به الطريق الى الأنتصار على الطبيعة . فمثلاً الحمام يطير في السماء بغريزته وقدرته على التكيف مع المجال المغناطيسي للأرض . لذلك تجد الحمامة تستطيع أن تهتدي الى عشها ولو كان يبعد عنها عشرات الكيلومترات ، دون أن تخطىء . ولكن الانسان لا يستطيع أن يطير ولا يمتلك في جسمه

جـهـازاً راداريـاً ، غير أنـه بعقله وعلمه استطاع أن يتفوق على الحمامة ، فاخترع الطائرات السريعة الجبّارة ، وأخترع أجهزة الرادار الالكترونية التي مكنته من الوصول الى كل بقعة مـن بـقـاع الأرض بـحـريـة وسـهولة وسرعة ، وبغير العلم كان سيصبح محتاجاً كما كان يحتاج نبي الله سليمان الى الهدهد ، وكما كان الناس قديماً يحتاجون الى الحمام الزاجل .

كـذلـك الـقـدرة الـسـمـعـيـة عـنـد الانسان فأنها أقل بكثير مما عند بعض الحيوانات كـالحصـان أو الـقـط مثلاً ، ولكن الانسان المزود بالعلم استطاع ان يخترع أجهزة سمعية كـالـتـلـفـون والـلاسـلـكـي واذا به يتفوق على تلك الحيوانات بمراحل ويتمكن من سماع أصوات تحدث على بعد آلاف الأميـال .

بين العلم والمـال :

وفي مـقـارنـتـنـا بين الـعـلـم والمال ، نجد أن المال أقل قيمة من العلم . ولو قارنّا أيضا الـعـمـل بالعلم ، لتوصلنا الى أن العمل لا قيمة له الاّ اذا اهتدى بضوء العلم . لذلك تجد عليا (ع) في حديثه المعروف لكميل بن زيـاد يبين فيه أفضلية العلم على المال فيقول :

« يـا كـمـيـل ، العِلمُ خيرٌ من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال . والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو على الأنفاق ، وصنيع المال يزول بزواله .

يا كميل ، هلك خُزّان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدّهر » .

ولكن هل يستطيع العلم وحده أن يقود المجتمع ويدير شؤونه ؟

وهل تنجح دولة تقام على أسس علمانية مجردة وبعيدة عن القيم ؟

هـذان الـسـؤالان حـيـنما نطرحهما على الاسلام ، يجيب بسرعة ويقول كلا . فالعلم بـدون التقوى لا ينفع شيئاً بل سيكون ضرره أكبر من نفعه . ان العلم طاقة كبرى ، كما أن المـال طـاقـة كـبـرى أيـضـاً ، اذا وجّه العلم أو المال باتجاه الشر فسوف يكون ضررهما كـبـيـرا بـقـدر خـطـورة وعـظـمـة هاتين الطاقتين . ان العلم والمال اذا أسيء استعمالهما سيكونان سبباً لتدمير العالم عن طريق انتاج الأسلحة النووية المدمرة .. واذا وُجّها توجيهاً خـاطـئـاً ، سـيـكـونـان أداة بيد الأجهزة الحاقدة في العالم ، التي تسعى لتحطيم الحضارة

الانسانية ، كجهاز الـ (C.I.A) والـ (K.G.B) وغيرهما . ان العلم حينما لا يحدد بالتقوى ، فأنه يصبح أداة بيد شخص مثل بلعم بن باعوراء الذي استعمل علمه لتدمير حياة المجتمع عن طريق دعمه لسلطة الطاغوت فرعون . وبيد شخص مثل شريح القاضي الذي أفتى بقتل الحسين بن علي في جريمة نكراء لم يشهد ولن يشهد لها التاريخ مثيلاً .

وكما قال الشاعر :

لـو كـان في الـعـلـم مـن دون الـتـقـى شـرف
لـكـان أشـرف خـلـق الله أبـلـيـس

لذلك يفصل الاسلام وبكل قوة السلطة عن أصحاب المال ، ويؤسس نظاماً إقتصادياً واجتماعياً رصيناً لا ينفذ فيه صاحب المال الى مركز السلطة في البلد . وهذه قضية أساسية في تركيبة المجتمع الاسلامي . وهكذا بالنسبة الى العلم . فمع أنّ الاسلام يعطي المزيد من الوجاهة لأهل العلم والعلماء ، فهو أيضا يفصل فصلاً واضحاً بين العلماء الأبرار الاتقياء ، وبين علماء الشر أمثال بلعم بن باعوراء وشريح القاضي .

وبهذا الفصل يبعد عن المجتمع أولئك الذين يستخدمون العلم من أجل شهواتهم ، وبالتالي يجعلون العلم تابعا للمال . فالانسان الذي يسترزق بعلمه ، فيبيع علمه ومعارفه لما يؤمّن له مصالحه ، هذا الانسان يجعل أصحاب المال والثروة قادة للأمة ، وليس العلم وأصحاب العلم .

ان الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك . وكما يقول الحديث الشريف عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

« اذا وجدتم العلماء على أبواب الملوك فبئس الملوك وبئس العلماء ، واذا وجدتم الملوك على أبواب العلماء فنعم الملوك ونعم العلماء » .

وإذا أردنا مثلا لهذه الحقيقة المرّة التي طالما حطمت العالم وسحقت المحرومين وعذبت البشرية المستضعفة ، فيكفينا ان ننظر الى البنتاغون ، وأن نبحث في أروقة البيت الابيض والكرملين ، وفي كل مكان يباع فيه العلم لصاحب المال والسلطة . لنجد ان بروفسوراً ذكياً مستوعباً لكثير من العلوم قضى عمره في البحث والدراسة ، يأتي ويصبح موظفاً بسيطاً عند رجل أعمال مثل (ديفيد روكفلر) ليدعمه بالعلم الذي خلقه الله من

أجل تحرير الانسان من نير الطبيعة ، ومن ضعفه وعجزه ومحدوديته ، ليقهر المستضعفين ويهضم حقوقهم .

ان بيع العلم هو ان يخترع رجل خبير في الكيماويات بعض العقاقير التي يستفاد منها لانتزاع الاعترافات من السجين لادانته ثم لاعدامه بهذه الاعترافات .

لذلك ترى القرآن الحكيم يؤكد دائماً على عدم بيع العلم بدراهم معدودة لأنه مهما كان الثمن المدفوع كبيرا ، فأنه لا يسوىٰ شيئاً أمام العلم الذي هو دائما أغلى من كل شيء . وأول ما يفعله الاسلام هو فصل العلم عن المال ، ثم فصل العلم الذي لا يستند على التقوى عن ادارة المجتمع . لذلك الأسلام لا يقول إن أكرمكم عند الله أعلمكم بالرغم من ان القرآن الحكيم يقول : « فضَّلَ الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » ، وانما يقول : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

فالعلم فضيلة ولكنه لا يكون قائداً وقائماً في قمة الهرم الاجتماعي إلّا حينما يكون مؤطراً بالتقوى .

والذي يحدد الاتجاه الصحيح للعلم هو الله عزوجل عبر برامجه المنزلة على أنبيائه ، لذلك لا تجد آية أو رواية تذكر العلم وتعطي للعلماء أهمية إلّا وتشترط أن يكون هؤلاء العلماء في الخط الصحيح . في الحديث عن الامام العسكري (عليه السلام) يقول :

« من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مطيعاً لأمر مولاه مخالفاً لهواه فللعوام أن يقلدوه » .

وكم نجد من الأحايث التي تحذّرنا من خطورة علماء السوء ، وتصف لنا عذابهم يوم القيامة . في رواية أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) رأى في ليلة المعراج رجلاً يقرض لسانه بمقاريض من نار ، فسئل جبرائيل قائلاً : حبيبي جبرائيل ، من هذا الرجل ؟! فقال جبرائيل : هذا هو العالم الذي استفاد من علمه بغير الطريق الصحيح . فعلماء السوء يوم القيامة يكونون داخل تابوت نتن وأفواههم تؤذي أهل النار على ما هم فيه من الأذى والكرب الشديد ، وفي حديث للامام الصادق (ع) ، عن علماء السوء وأخلاقهم يقول :

« أولئك أخطر على الاسلام من جيش شمر بن ذي الجوشن الذي قتل جدي

الحسين » .

وفي مقابل هذه الفئة من علماء السوء ، هناك العلماء الابرار وهم القدوة الحقيقية للمجتمع لأنهم من جهة مزودون بطاقة العلم ، ومن جهة ثانية مزودون بقدرة توجيهية لهذه الطاقة . فلا يستغلون العلم من أجل تكريس شهواتهم وتحقيق مآربهم الشخصية ، ولا يستفيدون من العلم لأجل الحصول على بعض الدراهم والوقوف على أبواب الملوك أو على أعتاب أصحاب الثروة والمال .

هذه هي خلاصة رؤية الاسلام حول قيادة المجتمع في ان رأس الهرم الاجتماعي يجب أن يكون تقياً ، قبل أي شيء ثم يكون عالماً كفؤاً ادارياً وهكذا الصفات الأخرى في القيادة الاسلامية .

صفات القائد في القرآن :

حينما يبين القرآن الحكيم صفات القائد الاسلامي ، فأنه يدقق في اختيار الالفاظ ولا يستعمل التعابير الشائعة ، وهذا لحكمة هي ان التعابير العربية تعابير واسعة وذات ايحاءات ومعاريض « حسب تعبير الأئمة » فحين تريد العرب ان تعبّر عن الظلام .. فمرة تقول الغلس ، ومرة تقول الغسق وأُخرى الدهمة ، وهكذا تعبّر بكلمات عديدة حسب درجات الظلام . فهناك ظلام مشوب بالنور ، وهناك الظلام العادي ، وآخر الظلام الحالك ، فلكل درجة من درجات الظلام لفظة خاصة بها ، وكذلك في سائر الامور .

والصفات الأساسية للقيادة الاسلامية صفات ذات درجات مختلفة متفاوتة . مثلا صفة العلم ، فقد يكون علم عادي ، وقد يكون علم اليقين ، وقد يتحول علم اليقين الى حق اليقين ، وقد يسمو حق اليقين فيصبح عين اليقين . فالعلم هو العلم ، ولكن استيعاب الانسان للعلم ورؤيته للحياة عبر هذا العلم ، تختلف من انسان لآخر ، وهكذا تختلف وتتدرج سائر الصفات .

ويشترط الاسلام في أولئك الذين يريدون أن يصبحوا أئمة الناس ان يكون لديهم أعلى درجات الصفات الأساسية للقيادة العامة وفي مقدمتها التقوى . فالتقوى التي يجب

ان يتزود ويتسلح بها الامام القائد هي التقوى التي تصل الى درجة الصبر والاستقامة امام عواصف الشهوات ونزول المصائب واشتداد المكاره . فلا تتأثر ارادته الصلبة بالضغوط المختلفة وإن عظمت وتصاعدت . لذلك تجد القرآن الحكيم يقول :

« وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون »

(٢٤ / السجدة)

من هنا وعبر حكمة أخرى سنذكرها في بحوثنا القادمة إن شاء الله ، فان الاسلام لا يرضى بأن يقودك انسان عالم تقي أياً كانت درجة علمه ويقينه . بل يجب ان تبحث عن أعلم الناس وأتقاهم وتتخذ منه اماما لك . والله سبحانه قد جعل هذا الانسان إمامك لانه كلما زادت وتكثفت قيمتي العلم والتقوىٰ في شخص ، كلما كانت قيادته أقوى وأرسخ وأفضل عند الله سبحانه وتعالى ، ولانه الاضمن والاقرب الى الاحتياط على الدين والدنيا . لذلك تجد القرآن الحكيم حينما يذكّرنا بشروط القيادة الاسلامية ، يبين لنا كلمتين ، كلمة الأحبار وكلمة الربيون . فالربيون هم العلماء المحضّون في الله ، الأتقياء أولا والعلماء ثانيا ، ولذلك فانهم القادة الحقيقيون للمجتمع . ولكن في حالة افتقادنا للربيّين ، آنئذ تأتي مرحلة الأحبار ، وهم العلماء أولا والأتقياء ثانيا ، يقول تعالى :

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونورٌ يحكم بها النبيّون الذين أسلموا للذين هادُوا والربّانيّون والأحبار بما استُحْفظوا من كتاب الله »

(٤٤ / المائدة)

صفات الربيّين :

قال نوف :

أقبلنا الى مسجد الكوفة لنرى عليا (ع) في قضية فاذا به (عليه السلام) مع مجموعة من أصحابه ، وفيما بينهم ابن اخي همام بن عبادة بن خثيم وكان من أصحاب البرانس (أي العبادة) وهمام هذا كان ممن يلازم عليا (ع) ، فأقبلنا معتمدين لقاء أمير المؤمنين ،

فألفيناه حين خرج يؤم المسجد فأفضى ونحن معه الى نفر مبدّنين ، قد أفاضوا في الاحدوثات تفكها وبعضهم يلهي بعضا (أي يقضون وقتهم بالاحاديث الفارغة) فلما أشرف عليهم أميرالمؤمنين أسرعوا اليه قياما فسلموا ، فرد التحية ثم قال من هؤلاء القوم ؟ قالوا أناس من شيعتك ياأميرالمؤمنين ، قال لهم خيرا ، ثم قال ياهؤلاء مالي لا أرىٰ فيكم سمة شيعتنا وحلية أحبتنا أهل البيت ، فأمسك القوم حياء ، قال نوف فأقبل عليه جندب والربيع فقالا ما سمة شيعتكم ، أوصفهم ياأميرالمؤمنين ؟ فتثاقل عن جوابهما وقال اتقيا الله أيها الرجلان وأحسنا فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، فقال همام بن عبادة وكان عابدا مجتهدا ، أسألك بالذي أكرمكم أهل البيت .. وخصكم وحباكم وفضلكم تفضيلا الا أنبئتنا بصفة شيعتكم فقال لا تقسم فسأنبئكم جميعا وأخذ بيد همام فدخل المسجد فصلى ركعتين أوجزهما وأكملها وجلس ثم أقبل علينا وحف القوم به ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على التبي ثم قال :

« أما بعد فان الله جل ثناؤه وتقدست اسماؤه خلق خلقه فألزمهم عبادته ، وكلفهم طاعته ، وقسم بينهم معايشهم ، ووضعهم في الدنيا حيث وضعهم وهو في ذلك غني عنهم لا تنفعه طاعة من أطاعه ، ولا تضره معصية من عصاه منهم ، لكنه تعالى علم قصورهم عما تصلح عليه شؤونهم وتستقيم به دهماؤهم في عاجلهم وآجلهم ، فرتبطهم بأذنه في أمره فأمرهم تخييرا ، وكلفهم يسيرا ، وأثابهم كثيرا ، وأمر سبحانه بعدل حكمه وحكمته بين الموجف من أنامه الى مرضاته ومحبته وبين المبطىء عنها والمستظهر منهم على نعمته بمعصيته ، فذلك قول الله عزوجل « أم حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون » ـــ ثم وضع أمير المؤمنين عليه السلام يده على منكب عبادة فقال ـــ الا من سأل عن شيعة أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم في كتابه مع نبيه تطهيراً ، فهم العارفون بالله ، العاملون بأمر الله ، أهل الفضائل والفواضل منطقهم الصواب وملبسهم الاقتصاد ومشيهم التواضع ، بخعوا لله تعالى بطاعته وخضعوا له بعبادته فمضوا غاضين أبصارهم عما حرم الله عليهم ، واقفين أسماعهم على العلم بدينهم ، نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالذي نزلت منهم في الرخاء رضوا عن الله بالقضاء ، فلولا الآجال التي كتب الله لهم لم تستقر

أرواحـهـم في أجـسـادهـم طرفة عين شوقاً إلى لقاء الله والثواب وخوفاً من العقاب ، عظم الخـالـق في أنـفـسـهـم وصـغـر مـا دونه في أعينهم فهم والجنة كمن رآها فهم على أرائكها متـكـئـون وهـم والـنـار كـمـن رآهـا فهم فيها معذبون ، قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة وأجـسادهم نحيفة وحوائجهم خفيفة وأنفسهم عفيفة ومعرفتهم في الاسلام عظيمة صبروا أيـامـا قـلـيـلـة فـأعقبتهم راحة طويلة وتجارة مربحة يسّرها لهم رب كريم ، أناس أكياس أرادتـهـم الـدنـيـا فـلـم يـريـدوها وطلبتهم فأعجزوها ، أما الليل فصافون أقدامهم ، تالون لاجزاء القرآن يرتلونه ترتيلاً ، يعظون أنفسهم بأمثاله ويستشفون لدائهم بدوائه تارة ، وتارة مـفـتـرشـون جـبـاهـهـم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم ، تجري دموعهم على خدودهم يمجـدون جـبـاراً عـظـيـمـاً ، ويجأرون اليه جل جلاله في فكاك رقابهم ، هذا ليلهم ، فأما الـنـهـار فحلماء علماء بررة أتقياء براهم خوف بارئهم فهم أمثال القداح ، يحسبهم الناظر الـيـهـم مرضى وما بالقوم من مرض ، أو قد خولطوا وقد خالط القوم من عظمة ربهم وشدة سـلـطـانـه أمـر عـظـيـم ، طاشت له قلوبهم ، وذهلت منه عقولهم ، فاذا استقاموا من ذلك بـادروا الى الله تـعالى بالأعمال الزاكية لا يرضون له بالقليل ، ولا يستكثرون له الجزيل ، فـهـم مـتـهـمـون ومـن أعـمـالهم مشفقون ان زكي أحدهم خاف مما يقولون وقال أنا أعلم بـنـفـسي مـن غـيـري ، وربـي أعـلم بي . اللهم لا تؤاخذني بما يقولون ، واجعلني خيراً مما يـظـنـون واغفر لي ما لا يعلمون ، فانك علام الغيوب ، وساتر العيوب . هذا ومن علامات أحدهم ان ترى له قوة في دين ، وحزماً في لين ، وايماناً في يقين ، وحرصاً على علم ، وفهماً في فـقـه ، وعلماً في حلم ، وكيساً في رفق وقصداً في غنى ، وتجملاً في فاقة ، وصبراً في شدة وخـشـوعـاً في عـبـادة ، ورحمةً للمـجـهـود ، وإعطاءً في حق ، ورفقاً في كسب ، وطلباً في حـلال ، وتـعـفـفـاً في طـمـع ، وطـمـعاً في غير طبع ودنس ونشاطاً في هدى ، واعتصاماً في شـهـوة ، وبراً في استقامة ، لا يغره ما جهله ، ولا يدع احصاء ما عمله ، يستبطيء نفسه في الـعـمـل ، وهو من صالح عمله على وجل يصبح وشغله الذكر ، ويمسي وهمه الشكر ، يبيت حـذراً مـن سـنة الغفلة ، ويصبح فرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة ، ان استصعبت عليه نـفـسـه في مـا تـكـره ، لـم يـعـطها سؤلها فيما اليه تشره ، رغبته في ما يبقىٰ وزهادته فيما يفنىٰ » .

وهكذا أخذ الامام علي (ع) يعدد صفات المتقين حتى كان من أمر همام ما كان حيث ان هماماً عليه الرحمة صاح صيحة ووقع مغشيا عليه ، فحركوه فاذا هو قد فارق الدنيا رحمة الله عليه ، فاستعبر الربيع باكيا وقال لأسرع ما أودت موعظتك ياأمير المؤمنين بابن أخي ولوددت لو أني مكانه ، فقال أمير المؤمنين « هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها . أما والله لقد كنت أخافها عليه » .

ان هذه أيها الأخوة صفات المؤمنين الصادقين الذين يريد الاسلام ان يكونوا قدوة للمجتمع وقادة وأئمة للبشرية ، والله سبحانه وتعالى زودنا بالعقل لكي نتخير ونبحث عن الأفضل ، فان كان هؤلاء هم خير لنا فلنبحث عنهم ، ولا بد اننا سوف نجد أمثالهم ، لان الارض لا تخلو من حجة لله .

معالم القيادة الاسلامية

في تحديدنا لمعالم القيادة الاسلامية ، لا بد ان نقف طويلاً نظراً لموقع القيادة الاسلامية في التجمع الرسالي الهام والخطير. ولأنّ المجتمع الايماني أنما تتجسد صبغته وتتبين حقيقته عن طريق قيادته . فالقيادة هي تجلٍ لحقيقة المجتمع . وقبل الدخول في صلب الموضوع ، هناك قضيتان رئيسيتان مرتبطتان بالقيادة هما :

الأولى : ما ترتبط بالقوة الفاعلة في المجتمع ، والموجهة له والمسيطرة سيطرة كاملة على طاقات وقدرات وامكانيات المجتمع .

الثانية : ما ترتبط بمظاهر هذه القوة وتجلياتها وتجسيدها في اشخاص معينين .

في القضية الاولى لا بد أن نتوغل عميقا في ابعاد المجتمع لنكتشف ان السيطرة في هذا المجتمع لمن . واما في القضية الثانية فلا بد ان نرجع الى القوانين والانظمة التي تحدد ظاهر القيادة .

جوهر القيادة في المجتمع الفاضل :

المجتمع كجسد الانسان بحاجة الى القيادة ولكن اي عضو في جسد الانسان ينبغي ان يقود سائر الاعضاء . هل الرجل أم اليد أم العين ؟

بالطبع العين هي التي تقود الجسم ، وليس للرجل القوية التي يقوم عليها الجسم أن تدعيّ قيادته ، لان القيادة ليست للأقوى .

والعين كذلك لوحدها لا يمكنها أن تقود الجسم بالصورة الصحيحة من دون وجود العقل ، فالعين قد تخطىء في أعطاء الجسم التفسير الصحيح لما تراه أمامها ، فقد تقول له أن أمامك مستنقع يمكنك أن تعبره بسهولة ، وإذا هو في الحقيقة لجة عميقة ، وهنا يتدخل العقل ليعطي القرار الصحيح في الوقت المناسب .

وهكذا المجتمع الفاضل لا تقوده القوة الكامنة فيه ولا يقوده اقتصاده ، ولا يعطي الحق لرجل أو فئة تقول باننا نحن الاقوى ، نحن نملك الدبابات ، ونملك اُلوف المسلّحين . المجتمع الفاضل لا يفعل ذلك ، وانما يقول لمراكز القوى في الساحة ان قوتكم لا تنفع شيئا ما لم يوجهها البصر والبصيرة . فلو اشتبك فيل اعمى مع قطة بصيرة في عراك فأن الذي سيغلب هو القط بالرغم من ضخامة الفيل . فالقوة بغير البصيرة طاقة عمياء ، والعمى يؤدى الى الهلاك ، فلا بد من العلم لتوجيه القوة . وكذلك العلم وحده لا يكفي ، فالمجتمع الفاضل لا يعطي كامل قيادته للعلم ، لان العلم اشبه شيء بالعين التي قد تضل وتزيغ . فلو اراد انسان ان يقود نفسه بعلمه ومعارفه فقط ، فسرعان ما سيجد نفسه امام منعطفات خطيرة ، لان الحياة معقّدة والاسئلة الحائرة فيها أكثر ملايين المرّات من الاسئلة التي أجاب عنها العلم .

لذلك فالعلم يجب ان يؤطر بالتقوى لان التقوى هي اتباع برامج السماء ومناهج الله ، وبذلك تربط الانسان وشئونه بالخالق الذي هو اعرف واعلم بالحياة وما يصلحها وهو الذي خلق الانسان وقدر معايشه ودبّر اموره .

هذا هو ما يلخص القضية الاولى في القيادة ، وهي قضية جوهر القيادة في المجتمع ، وهذا الجوهر هو قيادة العلم المؤطر بالتقوى ولكن دعنا نقارن بين هذا الجوهر الذي يؤكده الاسلام ، ويطرح مئات القوانين والوصايا من اجل المحافظة عليه ، وبين المفاهيم السائدة في التجمعات الجاهلية . أننا نجد في المجتمعات الجاهلية ان الحق للقوة ، وليست القوة للحق ، وان العلم تابع وليس متبوعا ، وان العلماء على ابواب الملوك ، وليس الملوك على ابواب العلماء ، وبالتالي نجد ان القوة المسلحة ، وكارتلات النفط والشركات الكبرى والامبريالية الاقتصادية .. هي التي تقود العالم وهي التي تخطط لكل شيء ، حتى للثقافة ، وللجامعات . في الولايات المتحدة مثلا هناك ادارة بأسم البنتاغون لها يد في

مراكز التوجيه في جامعات الولايات المتحدة الامريكية ، ولها شبكة واسعة في العالم كله . تتوجه الى كل فكر وقّاد ، وكل انسان ذكي متفوق فتحيطه بمجموعة من الجواسيس وتنشر حوله خيوطها حتى توقعه في شركها ، ثم تلقيه في مسيرة الفساد والضلال اي في مسيرة الـ (C.I.A) .

لقد اصبح العلم في الجاهلية الحديثة تابعاً للمال ، وتابعا للقوة . فاذا ألّفت كتابا تقول فيه الحق لله وفي الله ، وكان هذا الكتاب من أفضل وأروع ما كتب من النواحي العلمية والادبية والابداعية ، ثم ذهبت به الى دور النشر التي تقودها الرأسمالية فانها ترفض طبعه . واذا طبعته على نفقتك الخاصة فلن تجد من يقبل القيام بنشره وتوزيعه .

واذا اردت أن تقول الحق .. فتقول للأمريكيين أن قتل الأ برياء في فلسطين وجنوب لبنان بالاسلحة الامريكية الفتاكة التي تقدم للصهاينة بسخاء ان هذا ينافي وثيقة حقوق الانسان ومبادىء الامم المتحدة . فهل تستطيع ان تبلّغ صوتك الى العالم ؟ هل شبكات التلفزيون والاذاعات ودور النشر التي تخضع لتوجيه الأستكبار والامبريالية العالمية تذيع كلامك وتنشر مقالاتك ؟ هذا ما لا يحدث في الواقع . ومن هنا نعرف مدى مأساة الانسان في الجاهلية الحديثة ، حيث ان جوهر الانسانية وهو العلم والمعرفة ، اصبح تابعا للشهوات ومصالح المستكبرين المتسلطين .

بين المظهر والجوهر :

اذا اردت ان تصلح ما افسدته الرأسمالية في العالم ، وتقول يجب اولا ان نقضي على الرأسمالية ثم نحلّ محلها نظاما اصلح ، فقد تقترح ان يكون هذا النظام هو ملكية الدولة ، أي انّ الدولة هي التي تملك وليس للأفراد حقّ الملكية مطلقا .

ولكن ما هو الفرق بين الرأسمالية الغربية وبين الاشتراكية الشرقية ؟

الفرق في المظهر وليس في الجوهر. وهؤلاء الذين يزعمون ان هناك فرقا بين الرأسمالية والاشتراكية ، في الحقيقة لم ينفذ بصرهم الى جوهر هذين النظامين .

أننا نرى مثلا (خروتشوف) في الاتحاد السوفيتي يملك ما يملكه (دافيد روكفلر) في

الولايات المتحدة الامريكية ! بيد ان روكفلر يسمي نفسه رأس الامبريالية التي تقود الرئيس الامريكي نفسه ، وبالتالي الرئيس الامريكي يكون تابعا له ، بينما خروتشوف يسمى نفسه الرئيس السوفيتي وهو رأس الامبريالية ايضا . وهذا يشبه الفرق بين الاسبوع والسبعة ايام .

وحينما زار خروتشوف الولايات المتحدة الامريكية ووقف يحيي الناس ، جاء اليه أحد الرأسماليين الذين يقودون السلطة هناك وقال : انا رجل كنت عاملا بأحد المناجم في الولايات المتحدة بعدما هاجرت اليها ، ولكنني اصبحت الآن أملك الملايين ، فهل هناك عامل في الاتحاد السوفياتي يستطيع ان يفعل مثلما فعلت ؟ وهل نظامكم يتيح مثل هذه الفرصة ؟

أجابه خروتشوف الذي كان اخبث منه وادهى ، قائلاً : سوف أخلع ثيابي امامكم لترو آثار الصعاب التي تحملتها حينما كنت اعمل حمّالا بمنجم في أوكرانيا .

إذن لا فرق بينهما . فاذا عمقت النظر وارهفت البصيرة ، ترى أن كلا الشخصين يحتل نفس المركز ، ولكن هذا يقود العالم عن طريق المال وباسم صاحب المال ، وذاك يقود العالم عن طريق المال ، ولكن ليس باسم صاحب المال وانما باسم الشعب ، غير ان المال بيده ومقدرات الشعب في قبضته . فلا فرق بينهما الا المظهر الذي يحاولون ان يوهموا الناس بانه هو الحقيقة وهو ليس شيئا في الواقع .

اما الاسلام فانه يأتي ويقول لا للشرق ولا للغرب ، بل يجب فصل القوة والمال عن التوجيه والقيادة . والسؤال هنا : كيف يستطيع الاسلام تكريس هذه الحقيقة ؟

النظم الاجتماعية لها جذور نفسية ، إذا لم تكن متجذرة في النفوس ومتفاعلة مع عقائد المجتمع فأنها ستنهار . فحينما تجد البلاد الشرقية والغربية تخضع للقوة ، وتخضع لسلطة اصحاب المال ، فذلك لان الجاهلية مترسخة في نفوسهم . اما اذا نزعوا الجاهلية من أنفسهم فأن هذه القوة لا تستطيع ان تخضعهم .

ان العالم يعلم بأن العلم يجب أن يقود فطرة الانسان ، ويعلم بان المخ هو مركز القيادة في الجسم وليس اليد أو الرجل ، ولكن لا يستطيعون تطبيق هذه الحقيقة ، لانهم لا يقدرون على ذلك ما دامت جذور الجاهلية مترسخة في نفوسهم . اما الاسلام فأنه يأتي

ويقتلع هذه الجذور اولا ليعطي الانسان فرصة وحرية لاختيار قيادته الصحيحة .

فهو يقول للأنسان أنت المسؤول على المحافظة على حريتك ، والحياة تبدأ منك لا من الآخرين .

« لا تكن عبد غيرك ، وقد جعلك الله حرا » .

الحرية ملك لك ، فلماذا تستهين بها وتدعها تسرق من قبل المجرمين . والقرآن الحكيم حينما يحدثنا عن المستضعفين الذين لا يهاجرون من بلادهم ، ولا يعملون من أجل رفع الاستضعاف عن أنفسهم يصفهم بالظالمين :

« ان الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيم كنتم ، قالوا كنّا مستضعفين في الارض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها »

(٩٧ / النساء)

أليست أرض الله واسعة ، فلما لم تهاجروا فيها ؟!

ثم إنّ الاسلام يقول ان الخضوع للقوة انّى كانت انما هو خضوع للطاغوت وهو شرك . فمفهوم الشرك في الاسلام من اكثر المفاهيم تعرضاً للتحريف والتحوير. حتى أصبح الشرك في نظر المسلم اليوم هو السجود للصنم المصنوع من الحجر. ان هذا جزء بسيط من مفهوم الشرك . اما الشرك في الاسلام فهو ان تشرك مع الله غيره في العبادة .. ان تطيع الله وتطيع غير الله .. ان تكون هناك قيادتان لك ، قيادة سماوية وقيادة ارضية .. ان تقول ان الله في السماء اما الارض فهي لقيصر وللسلطة الحاكمة .. ان تقول كما قالت المسيحية المنحرفة ان مع الله قوى اخرى تدير الحياة . أو كما قالت الفارسية القديمة : « صلاح مملكت خويش خسروان دانند » اي الملوك هم الذين يعرفون صلاح بلادهم ، وما اشبه من هذه الكلمات النابعة من الجهل والجاهلية . فهذا هو الشرك .

الشرك ان تقول لله جل جلاله صاحب الجلالة ، وتقول لعبد الله المخلوق الضعيف ، والعميل أيضا : صاحب الجلالة ايضا . ليس الشرك ان تذهب الى قبر ولي من أولياء الله وتدعو الله عنده ، وانما الشرك ان تجلس في بيتك وكل ما يقوله الحاكم المرتبط بالشرق والغرب ، او بالهوى تحني رأسك له وتقول سمعا وطاعة .

ان مفهوم الشرك مفهوم مظلوم ، وكلمة الشرك من أكثر الكلمات مظلومية . وكأن

الشرك لا يوجد الآ عند البوذيين أو الذين يعيشون في مجاهل افريقيا..! بينما الشرك يعيش بين ظهرانينا ! وفي أمتنا الاسلامية وللأسف الشديد هؤلاء الذين يتخذون الحكام الطواغيت اولياء من دون الله ، يأتمرون بأمرهم ويضربون القرآن والسنة عرض الحائط ، اليسوا في شركهم اشد بشاعة من اولئك الذين يعبدون الاحجار صراحة ؟! يقول الله تبارك وتعالى في القرآن الحكيم :

« افحسب الذين كفروا ان يتخذوا عبادي من دوني اولياء إنّا اعتدنا جهنم للكافرين نزلا »

(١٠٢ / الكهف)

فالطاعة والولاء لغير الله شرك ، ومن يفعل ذلك فهو مشرك مهما تشدّق بالاسلام .

ان الله يعلم بان هؤلاء الذين يتبعون الطاغوت ويخضعون لملوك الفساد ويتخذون عباد الله اولياءهم من دون أمر الله سبحانه وتعالى ، يخدعون انفسهم ويحسبون ان عملهم حسنا فيقول سبحانه وتعالى في الآية التي تليها :

« قل هل ننبؤكم بالأخسرين أعمالاً * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا »

(١٠٣ - ١٠٤ / الكهف)

يحسبون ان بنائهم للمساجد الفخمة واطعامهم لبعض المساكين وقيامهم ببعض الاعمال الظاهرية ، سيدخلهم الجنة ، وهم في الواقع مشركون بالله لطاعتهم للحكومات الظالمة التي تحكم بغير ما أنزل الله . ثم يقول القرآن عن هؤلاء مرة اخرى :

« اولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه »

صلاتهم ، وصيامهم ، وزكاتهم ، وحجهم ، هذه كلها تحبط بالشرك بالله أي بخضوعهم للطاغوت .

« فحبطت اعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا * ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا »

(١٠٥ - ١٠٧ / الكهف)

ولو اردنا ان نستمر في الحديث حول هذه الفكرة ، فان الحديث يطول لان نصف

القرآن يحدثنا عن عبادة الله التي تعني الخضوع المطلق له ، والكفر بالطاغوت وبكل من يريد أن يتجبر في الارض بغير الحق . ولا يكتفي الأسلام بذلك بل يبين الجوانب الخفية من الشرك كاحترام صاحب الجاه لجاهه ، وصاحب المال لماله .

في الحديث عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) قال :

« من أتىٰ غنياً فتواضع لغناه ، ذهب الله بثلثا دينه » .

فالذي يحترم الاغنياء لانهم أغنياء ، يدخله الله عزوجل النار ، لان هذا الاحترام سيجره الى الخضوع لهم ، وبالتالي الى سيطرة هؤلاء على الناس .

في سورة عبس يذكرنا القرآن الحكيم بقصة ذلك الرجل الذي جاءه رجل اعمى فقير فاعرض عنه ، بينما كان العابس يُجل الاغنياء ويحترمهم ، يقول تعالىٰ :

« عَبسَ وتولّى * أنْ جاءه الاعمى * وما يُدريك لعله يزكّى * او يذّكر فتنفعه الذِكرى * أمّا من استغنىٰ * فأنتَ له تَصدّى * وما عليكَ الّا يزّكى * وأمّا من جاءكَ يَسعىٰ * وهو يَخشى * فأنتَ عنه تَلَهّىٰ » (سورة عبس)

فتجد القرآن يؤنبه ويوبخه على موقفه هذا حيث اتخذ الغنى مقياسا لتقييم الناس .

وفي قصة قارون يحكي القرآن عن الناس الذين كانوا معجبين بقارون ، وكان كل واحد منهم يتمنىٰ لو كان يملك مثل ما يملك قارون ، واذا بهم حينما خسفت بقارون وبداره الأرض قالوا :

« وَيْكَأنَّ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أنْ منَّ الله علينا لخسف بنا وَيكأنّه لا يفلح الكافرون » (١)

ان احترام الغني لغناه نوع من الشرك ، وهكذا حال اليهود الذين كانوا يعتقدون انهم اغنياء وان الله فقير ، لان المستضعفين الذين اتبعوا الانبياء كانوا فقراء ، وهكذا كان قوم نوح . حينما قالوا لنوح (ع) وهو يدعوهم الى الايمان بالله .

« وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذِلُنا باديَ الرأي » (٢٧ / هود)

---

(١) قصة قارون الآيات ٧٦ - ٨٢ / القصص .

كان هذا اعتراضهم ، وهو ان الفقراء وضعفاء الحال هم الذين اتبعوه ، ولم يتبعه الاغنياء وكبراء القوم .

وهكذا نجد الكثير من النصوص الأسلامية تركز على ان الهوىٰ يجب أن لا يتجه لاصحاب المال والسلطة ، وإنما ان يتجه حبك ورفرفات عواطفك حول الصادقين المخلصين المتقين ولو كانوا فقراء ، حول الأمام علي (عليه السلام) الذي لا نحترمه لغناه ولا لسلطته ، وإنما لما تجسد في حياته وفي اعماله ومواقفه من صفات حسنة .

يقول عليه السلام عن نفسه وهو الصادق ، في رسالة لعامله على البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري ، الذي بلغه عنه أنه دُعى الىٰ وليمة قوم ، فأسرع اليها :

« أما بعد ، يابن حُنيف : فقد بلغني أنّ رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلىٰ مأدبة فأسرعت إليها ، تُستطاب لك الألوان ، وتُنقل لك الجفان . وما ظننت أنك تُجيب طعام قومٍ عائلُهُم مجفّو ــ اي فقيرهم مطرود ــ ، وغنيّهم مدعوّ. فأنظر إلىٰ ما تقضمه من هذا المقضم ، فما أشتبه عليك عِلمُهُ فألفِظه ــ أطرحه ــ ، وما أيقنت بطيب وُجوهه فَنل منه .

ألّا وإنّ لكل امام مأموم يقتدي به ويستضيىء بنور علمه ، الا وان امامكم قد اكتفى من دنياه بطمرَيه ــ الثوب البال ــ ومن طُعْمِهِ بقرصيه ألّا وإنكم لا تقدرون على ذلك ، ولكن أعينوني بورع واجتهادٍ وعفةٍ وسدادٍ ، فَوالله ما كنزتُ من دنياكم تِبْرا ــ فتات الذهب والفضة قبل أن يُصاغ ــ ولا ٱدَّخرتُ من غنائمها وَفْرا ــ مالاً ــ ، ولا أعْدَدت لبالي ثوبي طِمْرا ، ولا حزت من أرضها شبرا ، ولا اخذت منه الّا كقوت أتان دَبِرَةٍ ــ الناقة التي عقر ظهرها فقل أكلها ــ وَلَهِيَ في عَيْني أوْهىٰ وَأهْونَ مِن عَفْصَةٍ مَقِرَةٍ ــ مُرّة ــ . بلى ! كانت في أيدينا فَدَكُ (١) من كُلّ ما أظلّتهُ السماء ، فشَحّتْ عليها نُفُوسُ قَوْمٍ ، وسَخَتْ عنها نُفُوسُ قومٍ آخرين ، وَنِعْمَ الحُكْمُ لله ، وما أصْنَعُ بِفَدكٍ وغَيرِ فَدَك ، والنّفْسُ مَظانُّهَا في غد جدث ــ القبر ــ تنقطع في ظُلْمَته آثارُها

---

(١) فدك : قرية لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان قد صالح أهلها على النصف من نخيلها بعد خيبر ، وقد أعطاها ابنته فاطمة الزهراء (عليها السلام) قبل وفاته .

وَتَغيبُ أخبارُها ، وحُفْرَةٌ لو زِيدَ في فُسْحَتِها ، وأوْسَعَت يَدَا حافِرِها لأضغَطهَا الحَجَرُ والمَدَرُ، وسَدَّ فُرَجَها التُّرابُ المُتَراكِمُ ، وإنَّما هِيَ نَفْسي أرُوضُها بالتَّقوى لِتَأْتيَ آمِنَةً يَومَ الخَوْفِ الأكبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلى جَانِبِ المَزْلَقِ ، ولو شِئتُ لاهْتَدَيتُ الطَّريقَ إلى مُصفَّى هذا العَسَل ولُبَابِ هذا القَمْح ، ونَسائِجِ هذا القَزِّ، ولكنْ هيهاتَ أنْ يَغْلِبَني هَوَايَ ، ويَقُودَني جَشَعي الى تَخَيُّرِ الأطعِمَة ، ولَعَلَّ بالحِجاز أو اليَمَامةِ مَنْ لا طَمعَ لهُ في القُرْصِ ولا عَهْدَ لَهُ بالشِّبع ، أوَ أبيتُ مِبْطاناً وَحَولي بُطونٌ غَرْثَى ، وأكبادٌ حَرَّى ، أوَ أكُونَ كَما قال القائلُ :

وحَسْبُكَ داءً أنْ تَبيتَ بِبطْنَة وحَوْلَكَ أكبادٌ تَحُنُّ إلى القِدِّ

أأقنع من نفسي أنْ يُقال هذا أميرُ المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدّهرِ، أو أكونَ أُسوةً لهم في جُشُوبَةِ العيش ، فما خُلِقتُ ليشغَلَني أكلُ الطيبات كالبهيمة المَرْبوطة هَمُّها عَلَفُها ، او المرسلة شغلُها تقمُّمُها ، تكتَرِش من أعلافِها ، وتَلهوعمّا يُرادُ بها ، أوْ أُتْرَكَ سُدىً ، أو أُهمَلَ عابثاً ، أوْ أجُر حَبْلَ الضَّلالةِ ، أوْ أعتسِفَ ـ ركب الطريق على غير قصد ـ طريقَ المتاهة » .

هذا هو امام المسلمين حقا ومن يقتدي به ويسير على نهجه ويجسد تعاليمه فقد ربح ، وفازت امة تتبع اماما كعلي عليه السلام ، وافلحت لعمري في الدنيا والآخرة .

كيف يضمن الأسلام إستقلال العلم

ما هي علاقة العلم بالمال ، وما هو الضمان الذي يعطيه الأسلام للعلم لكي يبقى مستقلاً وبعيداً عن ضغوط الجبابرة وعن استغلال القوى المنحرفة في المجتمع ، وكيف يحصّن العلماء أنفسهم أمام هذه الضغوط الهائلة ؟

قبل الأجابة على هذه الأسئلة لا بد أن نعرف ان ما في العالم من تقدم ورقي انما هو رهين العلم والعلماء ، وليس رهين الحكام والجبابرة . ولكن مشكلة البشرية ان الطغاة كانوا يسرقون دائماً مكاسب العلماء ويجيّرونها لصالحهم .

فعلى طول التاريخ كان العلم أداة فعالة بأيدي الطغاة والجبابرة لتطويع الشعوب وترويضها ، لقد كان لكل فرعون هامان يؤيده ويؤازره ، وبلعم بن باعوراء يؤمن له التغطية الدينية المزيفة ، وكان لكل معاوية رجال أمثال كعب بن الأحبار ، ولكل يزيد رجال أمثال شريح القاضي ولكل طاغوت سواء كان يستتر بستار الدين ، أو بستار مادي ، مجموعة من العلماء الخدمة .

فلولا كسينجر وأمثاله ، لم يستطع نيكسون أن يلعب بمصير العالم ، ولولا بريجنسكي وأمثاله لم يستطع كارتر أن يقوم بما قام به من افساد في الأ رض ، ولولا سوسلوف لم يستطع بريجنيف ومن قبله خروتشوف أن يروّضوا ربع مليار انسان في الاتحاد السوفياتي ويعبثوا بمقدرات العالم ، ولولا ميشيل عفلق وطارق عزيز وامثالهم ، لما كان بمقدور صدام حسين ان يلعب بمقدرات العراق وشعبه ، ولولا الصحفيون الذين يبيعون أنفسهم لهذا الطاغوت أو ذاك ، لما استطاع الطغاة خداع الشعوب واغوائهم .

وتأكيدنا على استقلالية العلم ، لا يعني عدم التأكيد على أهمية العلم ذاته ، والمكاسب العلمية الهائلة التي بلغتها البشرية بالعلم . فتخلف بلداننا ليس لوجود الأنظمة الفاسدة فيها وتسلط الديكتاتوريات الأرهابية والفاشية عليها فحسب ، وانما هو لعدم اهتمام شعوبنا بالعلم والتعلم .

فالتخلف واقع فاسد له مظاهر عديدة منها الأنظمة الفاسدة ، ومنها البؤس والحرمان ، ومنها تفشّي الجهل والأمية ، ومنها فقدان العناية الصحية ، ومنها ضعف القوة العسكرية .

ونتساءل .. لماذا نجد شعباً آسيوياً هو الشعب الياباني الذي يعيش في منطقة فقيرة في الموارد الطبيعية من معادن ونفط ، وغير استراتيجية في العالم ، يتقدم يوماً بعد يوم ، ويبدأ الثورة الثالثة في عالم الصناعة ، ويغزو بأنتاجه أسواق أوربا وأمريكا ؟

يجيب الباحث الأمريكي جان جاك سوفان مؤلف كتاب (التحدي العالمي) على هذه المسئلة فيقول :

« اذا كان ثمة عامل يفسر النجاح الياباني ، فهو البحث الدائم الجماعي عن المعرفة . وعندما أعلن « دانيال بيل » « وبيتر داركر » وبضعة آخرون بداية مجتمع ما بعد الصناعة الذي تحل فيه المعرفة كمورد أساسي محل رأس المال ، لم يكونوا يتخيلون الى أي حد سيشق هذا المفهوم الجديد طريقه وبسرعة خاطفة في جميع الأوساط القيادية في اليابان ، ثم في كل شرائح الشعب . لقد أجمع البلد على الأهمية القصوى التي يجب ان تولى لمتابعة التعليم والمعرفة باستمرار طوال سنوات العمر » (١) .

ضمانات استقلال العلم :

هناك عدة ضمانات يعطيها الأسلام لأستقلال العلم هي :

---

١ ــ الباحث أحد أساتذة جامعة هارفارد وأسمه (عزرا بوغل) أقام في اليابان مدة طويلة ليتعرف على السبب الحقيقي لتقدم الشعب الياباني ثم كتب كتاباً بأسم (اليابان بطل العالم) .

أولاً : اعطاء العلم قيمة ذاتية ، ليكون العلم والعلماء وليس المال والسلطة محوراً يستقطب حوله قدرات الجماهير وطاقاتهم وأمكانياتهم .

جاء في الحديث عن الأمام الحسن العسكري عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أشدّ من يتم اليتيم الذي انقطع عن ابيه ، يتم يتيم انقطع عن إمامه ، لا يقدر الوصول اليه ، ولا يدري كيف حكمه فيما يبتلي به من شرائع دينه » .

فمع أن اليتيم الذي يفقد أباه في صغره يخسر الكثير من حياته ، الا أن من ينقطع عن أمامه هو أشد خسارة منه ، ذلك أنه بأنقطاعه عن أمامه يخسر الطريق الذي يصل عبره الى سعادته في الدنيا والآخرة .

وعنه عليه السلام قال : قال عليّ بن الحسين عليه السلام :

« أوحى الله تعالى الى موسى (ع) : حببّني الى خلقي ، وحبب خلقي اليّ . قال : يارب كيف أفعل ؟ قال : ذكّرهم آلائي ، ونعمائي ليحبوني ، فلإن ترّد آبقا عن بابي ، أو ضالا عن فنائي أفضل لك من عبادة مائة سنة بصيام نهارها وقيام ليلها ، قال موسى : ومن هذا العبد الآبق منك ؟ قال : العاصي المتمرّد ، قال : فمن الضال عن فنائك ؟ قال : الجاهل بإمام زمانه تُعرّفه ، والغائب عنه بعدما عرفه ، الجاهل بشريعة دينه ، تعرّفه شريعته ، وما يعبد به ربه ، ويتوصل به الى مرضاته . ثم قال علي بن الحسين عليهما السلام : فأبشروا علماء شيعتنا بالثواب الأعظم ، والجزاء الأ وفر » .

وعن الرضا عليه السلام قال : « يقال للعابد يوم القيامة : نِعمَ الرجل كنت همّتك ذات نفسك وكفيت الناس مؤونتك فادخل الجنة ، ألا ان الفقيه من أفاض على الناس خيره ، وأنقذهم من أعدائهم ، ووفرّ عليهم جنان الله وحصّل لهم رضوان الله تعالى . ويقال للفقيه : ياأيها الكافل لأ يتام آل محمد الهادي محبيهم ومواليهم ، قف حتّى تشفع لمن أخذ عنك ، أو تعلّم منك ، فيقف فيُدخل الجنّة معه فئاماً وفئاماً حتىٰ قال عشراً ، وهم الذين أخذوا عنه علومه ، وأخذوا عمّن أخذ عنه ، وعمّن أخذ عمّن أخذ عنه الى يوم القيامة ، فأنظروا كم فرق بين المنزلتين » .

إنك اذا ألفّت كتاباً ، فكل من قرأ كتابك واهتدىٰ به ، يستطيع أن يدخل معك الجنة ، أو حتىٰ من قرأ كتاباً مقتبساً من كتابك وهكذا الى يوم القيامة . والأمام حين

يقول فئاما وفئاماً والفئام في اللغة يعني مائة ألف انسان ، فأنه ليس للوقوف عند هذا الحد وانما هو تعبير عن الكثرة الهائلة .

ومن وصايا الرسول (ص) للأمام علي عليه السلام : « ياعلي لا فقر أشد من الجهل » .

وعنه صلى الله عليه وآله قال : « فضل العالم على العابد سبعين درجة بين كل درجتين حضر الفرس سبعين عاماً ، وذلك أن الشيطان يدع البدعة للناس فيبصرها العالم فينهىٰ عنها ، والعابد مقبل على عبادته لا يتوجه لها ولا يعرفها » .

وعن الصادق عن رسول الله (ص) قال : « فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم » .

وعن الرسول صلى الله عليه وآله قال : « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » .

وعن الصادق عليه السلام قال : « معلم الخير تستغفر له دواب الأرض وحيتان البحر وكلّ صغيرة وكبيرة في أرض الله وسمائه » .

وعنه عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « يجييء بالرجل يوم القيامة وله من الحسنات كالسحاب المركوم أو كالجبال الرواسي فيقول : يارب أنّى لي هذا ولم اعملها ؟ فيقول : هذا علمك الذي علمتّه الناس يعمل به من بعدك » .

ولكن لا ننسىٰ أن اشد الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم خالفه الى غيره . وكما يقول الأمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى (فكُبكبوا فيها هم والغاوون ..) قال : نزلت في قوم وصفوا عدلاً ثم خالفوه الىٰ غيره .

وفي تفسير قوله تعالى (ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) قال الامام الباقر عليه السلام : « من استخرجها من الكفر الى الايمان » .

وعن علي عليه السلام قال : « لم يمت من ترك أفعالاً يقتدىٰ بها من خير ، ومن نشر حكمة ذكّر بها » .

ويمثل الرسول (ص) العلماء كنجوم السماء يهتدىٰ بهم في ظلمات البر والبحر فيقول : « مثل العلماء في الأرض كالنجوم في السماء يهتدىٰ بها في ظلمات البرّ

والبحر ، فاذا طمست أوشك ان تضل الهداة » .

وعن الرسول (ص) قال : «ما أهدىٰ المرء المسلم الى أخيه هدية أفضل من كلمة حكمة يزيده الله بها هدىً ويرده عن ردى » .

وعنه صلى الله عليه وآله قال وهويبين منزلة العلماء في الجنة : « ألا أحدثكم عن أقوام ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم يوم القيامة الأنبياء والشهداء بمنازلهم من الله علىٰ منابر من نور، فقيل : من هم يارسول الله ؟ قال : هم الذين يحبّبون عباد الله الى الله ، ويحبّبون عباد الله إليّ ، قال : يأمرونهم بما يحبّ الله وينهونهم عمّا يكره الله ، فإذا أطاعوهم أحبهم الله » .

كل هذه الأحاديث وعشرات أمثالها ، أنما هي لتبيين قيمة العلم والعلماء وأن العلماء هم محور المجتمع ، وهذا هو من الضمانات الأساسية لأستقلال العلم عن المال والقوة .

الضمانة الثانية : تزكية دوافع طلب العلم

ان الطالب الجامعي حين يوقّع على وثيقة يتعهد بموجبها أن يخدم المعهد الذي يدرس فيه ، لمدة خمس سنوات او عشر سنوات ، فأنما يوقّع على وثيقة ارتباطه بذلك المعهد ، لأن المعهد لم يوفر الأمكانات لهذا الطالب الآ لكي يستخدمه بعد تخرجه في المجال الذي يخدم مصالح المعهد نفسه ، وهكذا يصبح العلم وبصورة آلية تابعاً للمال ، فترىٰ أن الطالب يطلب العلم لا لكي يخدم الجماهير، وانما لكي يصبح شيئاً عند الناس ، كأن يصير وزيراً يخدم في أحد وزارات السلطة الطاغية .

ان النصوص الاسلامية تؤكد وبشدة على ضرورة نظافة نية طالب العلم ، بأن يكون طلب العلم لله . وحينما يكون لله ، يكون للجماهير اي للمصلحة العامة .

في الحديث المأثور عن الأمام علي (عليه السلام) ، هذا الأمام الذي ضحىٰ بنفسه من أجل هذه الرسالة التي حملها ، وعلينا حين نريد أن نحيي ذكرىٰ هذا الأمام ، أن نبين رسالته والتي منها هذا الحديث الشريف . يقول عليه السلام :

« طلبة هذا العلم على ثلاثة أصناف ، ألا فأعرفوهم وأعيانهم :

فصنف يتعلمون للمراء والجهل ، وصنف منهم يتعلمون للأستطالة والختل ، وصنف منهم يتعلمون للفقه والعقل .

فأمّا أصحاب المرآء والجهل ، تراه مؤذياً ، ممارياً ــ مجادلاً ــ للرجال في أندية المقال ، قد تسربل بالخشوع ، وتخلّى من الورع ــ فظاهره خاشع ولكن لا توجد في قلبه ذرة خشوع ــ فدّق الله من هذا حيزومه ــ أي قصم ظهره ــ وقطع منه خيشومه ــ أي أرغم أنفه ــ .

وأما صاحب الأستطالة والختل ، فأنه يستطيل على أشباهه من أشكاله ، يتواضع للأغنياء من دونهم ، فهو لحلوائهم هاضم ، ولدينه حاطم . فأعمى الله من هذا بصره وقطع من آثار العلماء أثره .

وأما صاحب الفقه والعقل ، تراه ذا كآبة وحزن ، قد قام الليل في حندسه ــ ظلامه ــ وقد أنحنى في برنسه ــ لباس الزهد ــ يعمل ويخشى ، خائفاً من كل أحد الا من كل ثقة من أخوانه ، فشدّ الله من هذا أركانه ، واعطاه يوم القيامة أمانه » (١)

انه لا يثق بمن يحومون حوله من شياطين الأنس ، هؤلاء الذين يدورون حول العلماء ، ويشكلون بطانتهم الفاسدة ، التي عبرها يستطيع اعداء الدين التأثير على العلماء .

الضمانة الثالثة : أقصاء علماء السوء من المجتمع

وهذا يكون عبر اعطاء الناس قيماً ثابتة و واضحة يستطيعون عبرها التعرف على علماء السوء ، وبالتالي لعنهم وطردهم من ساحة المجتمع .

والقرآن الحكيم يضرب لنا أمثالاً تاريخية لعلماء السوء ، ويسمي بعضهم بالكلب والبعض الآخر بالحمار .

---

١ ــ الأحاديث منقولة من كتاب بحار الأنوار الجزء الثاني باب الهداية والتعليم وفضلهما .

يقول تعالى وهو يحدثنا عن قصة بلعم بن باعوراء العالم في بني إسرائيل الذي استخدم علمه لضرب نبي الله موسى (عليه السلام) ورسالته :

« واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين »

(١٧٥ / الأعراف)

الغواية هي الضلالة بوعي . فقد يضل انسان طريقه وهو غافل ، وقد يضل طريقه عامداً ، فهذا الأنسان كان واعياً ولكنه لم يتبع وعيه ، فأضلّه الله وكان من الغاوين

« ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد الى الأرض وأتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذّبوا بآياتنا »

(١٧٦ / الأعراف)

فقد كان بأمكان ابن باعوراء ان يسمو بعلمه الى اعلى عليين ، ولكنه أخلد الى الشهوات فكان مثله كالكلب الذي يلهث بمناسبة أو من غير مناسبة . وهذا تشبيه لعالم السوء الذي يدلي بعلمه بمناسبة أو من دون مناسبة .

وفي سورة المؤمن يحدثنا القرآن الحكيم عن العلماء الذين يغترّون بعلمهم ، ويتصورون أنّ ما عندهم من علم يكفيهم ، فيستهزؤون برسالات الله . ولكن هؤلاء ينسون أنّ ما عندهم من علم ما هو الاّ قطر من بحر ، لذلك يحيق بهم ما يجهلونه فيهلكهم ويدمرهم :

« فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون »

(٨٣ / المؤمن)

وفي سورة الجمعة يقول تعالى :

« مثل الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفاراً بئس مثل القوم الذين كذّبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين »

(٥ / الجمعة)

وفي السُنّة أحاديث كثيرة تهدف ذات الهدف الذي يدور حديثنا عنه وهو فصل

علماء السوء عن المجتمع .

ففي الحديث عن الأمام علي (عليه السلام) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) :

« العلماء رجلان ، رجلٌ عالم آخذ بعلمه فهذا ناج ، وعالم تارك لعلمه فهو هالك ، وإنّ اهل النار ليتأذون بريح العالم التارك لعلمه ، وإنّ أشدّ أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً الى الله عزوجل فاستجاب له وقبل منه وأطاع الله عزّوجل فأدخله الله الجنة ، وأدخل الداعي النار بتركه علمه واتباعه الهوى » .

ثم قال (عليه السلام) :

« الا إنّ أخوف ما اخاف عليكم خصلتان ، اتّباع الهوى وطول الأمل ، إمّا اتّباع الهوىٰ فيصد عن الحق وطول الأمل فيُنسي الآخرة » .

يعلل الأمام السبب الذي يدعو العالم الى ترك علمه ، ويقول هو إتباع الهوىٰ ، وطول الأمل . فالعالم الذي يعلم بأن الموت ورائه ، لا يفكر أبداً بالأنحراف .

لذلك جاء في الحديث عنه عليه الصلاة والسلام قال :

« من أطال الأمل أساء العمل » .

والرسول صلى الله عليه وآله يقول :

« من كان يأمل أن يعيش غداً فانّه يأمل أن يعيش أبدا » .

وهو الذي يقول عن نفسه وهو الصادق صلى الله عليه وآله :

« والذي نفس محمد بيده ما طرفت عيناي الا ظننت أنَّ شفريَّ لا يلتقيان حتىٰ يقبض الله روحي ، ولا تلقّمت لقمة إلّا ظننت أنّي لا أسيغها حتىٰ أغصَّ بها من الموت » .

إنّ العالم الذي يتبع علمه ، يعلم ان عشرات الألوف من أسباب الموت تحيط به ، من كل جانب ومكان ، والذي يحفظه انما هم الملائكة الذين سخّرهم الله لحفظه ، وحينما يحين أجله ، فإنه لا يملك حول ولا قوة لدفع الموت عنه ، فالحفظة الموكلون به قد أنتهت مهمتهم وصدر اليهم الأمر بمغادرته ، فيقع حينئذ ضحية أول سبب من أسباب الموت يعترضه .

وفي الحديث عن الأمام علي (عليه السلام) يقول :

« قطع ظهري رجلان من الدنيا .. رجل عليم اللسان فاسق ، ورجل جاهل القلب ناسك ، هذا يصدّ بلسانه عن فسقه ، وهذا يصد بنسكه عن جهله ، فاتّقوا الفاسق من العلماء ، والجاهل من المتعبدين ، أولئك فتنة كل مفتون ، فانّي سمعت رسول الله (ص) يقول : ياعلي ، هلاك امتي على يدي كل منافق عليم اللسان » .

وعن عيسى بن مريم (عليه السلام) وهو يشّبه علماء السوء بتشبيه لطيف قال :

« الدنيا داء الدين ، والعالم طبيب الدين ، فاذا رأيتم الطبيب يجرّ الداء إلى نفسه فاتهموه ، واعلموا انه غير ناصح لغيره » .

فاهم صفات علماء الدين الذين يجب ان يصبحوا قادة للامة ، هو الزهد . وفي دعاء (الندبة) الذي يحدد الأمام فيه صفات أولياء الله الصالحين نقرأ هذه الفقرة :

(وشرطت عليهم الزهد في درجات هذه الدنيا الدنية وزخرفها وزبرجها) .

فالله سبحانه منح أوليائه قيادة الناس بعد أن أخذ عليهم العهد بأن يزهدوا في متاع الدنيا وزينتها . وهذا أهم الشروط التي أشترطها الله على عباده الذين خولّهم مسؤولية الأمامة .

من كلام له صلى الله عليه وآله لابي ذر الغفاري قال :

« ياأبا ذر إنّ الله تبارك وتعالى أوحىٰ إلىٰ أخي عيسى (عليه السلام) : ياعيسى لا تحبّ الدنيا فأنّي لست أُحبّها ، وأحبَّ الآخرة فأنّما هي دار المعاد .

ياأبا ذر إنَّ جبرئيل أتاني بخزائن الأرض على بغلة شهباء فقال لي : يامحمد هذه خزائن الدنّيا ولا ينقصك من حظك عند ربّك . فقلت : ياحبيبي جبرئيل ، لا حاجة لي فيها ، إذا شبعتُ شكرت ربّي ، وإذا جعت سألته » .

وعن أمير المؤمنين الأمام علي (عليه السلام) قال :

« ان في جهنم رحى تطحن ، افلا تسألوني ما طحنها ؟ فقيل له : وما طحنها ياأمير المؤمنين ؟

قال : العلماء الفجرة ، والقراء الفسقة ، والجبابرة الظلمة ، والوزراء الخونة ، والعرفاء الكذبة » .

وعن الامام الصادق (عليه السلام) قال :

« اذا رأيتم العالم محباً للدنيا فاتهموه على دينكم ، فانَّ كل محبّ يحوط ما أحبّ » .

لماذا ؟ لان حب الدنيا رأس كل خطيئة .

وأوحى الله تعالى الى داود (عليه السلام) :

« ياداود لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتونا بالدنيا ، فيصّدك عن طريق محبّتي ، فان أُولئك قطّاع طريق عبادي المريدين . إنَّ ادنى ما انا صانع بهم ، أن أنزع حلاوة مناجاتي من قلوبهم » .

وفي تفسير الآية الكريمة « والشعراء يتبّعهم الغاوون » قال الامام ابوجعفر الباقر (عليه السلام) :

« هل رأيت شاعرا يتبعه احد ؟ انما هم قوم تفقهوا لغير الدين ، فضلوا واضلوا » .

ويبين الأمام الصادق (عليه السلام) في حديث له دركات العلماء الأشرار في نار جهنم فيقول :

« ان من العلماء من يحب أن يخزن علمه ، ولا يُؤخذ عنه ، فذاك في الدرك الأول من النار .

وأن من العلماء من اذا وُعظ أنف ، واذا وعَظ عنف فذلك في الدرك الثاني من النار» .

فاذا أراد أن ينصح الناس ويرشدهم ، كان كلامه بعنف وغلظة ، أما اذا نصحه الآخرون ، فانه يستنكف من قبول الموعظة .

« ومن العلماء من يرى أن يضع العلم عند ذوي الثروة والشرف ، ولا يرى له في المساكين وضعاً فذاك في الدرك الثالث من النار» .

فهذا يجعل علمه تبعاً لأهواء التجار ، وأصحاب الجاه والنفوذ ، ورؤساء العشائر ، ولا يعطي علمه للمستضعفين حتى يتحرروا به من مسكنتهم .

« ومن العلماء من يذهب في علمه مذهب الجبابرة والسلاطين ، فأن ردّ عليه شيء من قوله ، أو قصّر في شيء من أمره غضب ، فذلك في الدرك الرابع من النار» .

« ومن العلماء من يطلب أحاديث اليهود والنصارى ليعزز بها علمه ، ويكثر بها

حديثه ، فذاك في الدرك الخامس من النار» .

وهؤلاء هـم العلماء الألتقاطيون الذين يريدون أن يرفعوا أنفسهم حتى لو كان بذلة الدين وتحطيم الرسالة .

« ومن العلماء من يضع نفسه للفتيا ويقول : سلوني ، ولعلّه لا يصيب حرفاً واحداً ، والله لا يحب المتكلفين ، فذاك في الدرك السادس من الناس » .

هؤلاء الذين يطلبون الرئاسة وهم ليسوا لها أهلاً .

« ومن العلماء من يتّخذ علمه مروّةً وعقلاً فذاك في الدرك السابع من النار» .

وهؤلاء الذين يستفيدون من علمهم في سبيل الأستعلاء على الناس ، كالكهنة الذين كانوا في بعض مراحل التاريخ أعلى كعباً من الملوك ، وهم الذين كانوا سيتغلون الجماهير بعلمهم وفطنتهم ، ولم يوضّفوا علمهم من أجل السلاطين ، ولا من أجل اصحاب المال والنفوذ ، وأنما من أجل أنفسهم ، أرضاءً لشهوة التسلط والتحكم عندهم .

أن الأحاديث في هذا المجال كثيرة ، والتي أوردناها في هذا الباب هو جزء بسيط منها .

العلماء ورثة الأنبياء :

كان الحديث يدور عن ذم علماء السوء الذين باعوا علمهم من أجل شهواتهم ، اما العلماء الصادقون الذين تعلّموا لله وعملوا لله ، وطبّقوه على أنفسهم قبل أن يصدعوا به ، وقاوموا في سبيل ذلك كل الضغوط وصمدوا كالجبل الأشم في وجه كل الأنحرافات ، فهم الذين يجب أن نعرفهم حق المعرفة كي نتمسك بهم ونتخذهم قدوات صالحة لنا في الحياة .

هؤلاء هم العلماء الذين تجد في الأحاديث الشريفة صفاتهم ، أنهم ورثة الأنبياء ، وأنهم خلفاء الرسول ، وأنهم كأنبياء بني اسرائيل ، وإن منزلتهم مع الشهداء والصدّيقين ، وإنّ نومهم بالليل خير من قيام العبّاد ، وان جلوسهم في بيوتهم خير من سفر المجاهدين ، وإنّ مدادهم خير من دماء الشهداء ، وان من نظر الى وجوههم وأبواب

بيوتهم ، كتب الله سبحانه له ذلك عبادة ، وإن من سئلهم مسئلتين ، أعطي في الآخرة مدينتين ، كل منها أكبر من الدنيا مرّتين ، والذين اذا مات أحدهم ، ثلم من الأسلام ثلمة لا يسدها شيء ...

إن ثمن كل هذا التعظيم وهذه المنزلة الرفيعة التي يعطيها الأسلام لعلماء الدين الربانيين ، هو صمودهم في خنادق الرسالة يتحدون كل الضغوط ، وينهضون بالناس في وجه كل ظلم وانحراف ، وفي وجه كل طاغوت متسلط لاهمّ له غير اطفاء نور الله واستعباد الناس وسحقهم .

ضرورة الامامة الشرعية

في الحديث الشريف :

« مجاري الامور بيد العلماء بالله ، الامناء على حلاله وحرامه » .

ومجاري الامور تعني ازمة الامور ، أي قيادتها وتوجيهها .

والعلماء بالله ، هم العلماء الذين يتصلون بالله سبحانه وتعالى ، ويستمدون منه ويكون علمهم في خط تحقيق الاهداف التي امر بها الله جل شأنه .

وكلمة العلماء كلمة مطلقة وغير مقيدة ، وفي هذا الحديث لا نجد تفسيراً لها ، فمن هم هؤلاء العلماء ؟ وفي اي حقل علمي يكون تخصصهم ؟ هل في حقل الفيزياء أم الكيمياء ، أم الطبيعة ، أم علم طبقات الأرض ، أم التاريخ ، أم الطب .. ؟

ويبدو ان هذا الاطلاق يدلل على العموم وعلى ان العالم يجب ان يكون عالماً بالقضايا التي يريد ان يديرها والتي تخص كيان الامة ومصيرها .

فحينما يقول الحديث ان مجاري الامور بيد العلماء ، فأنه يقصد بذلك أولئك العلماء الذين يفهمون تلك المجاري ، ويعرفون طبيعة القضايا التي يتوجب عليهم ان يهتموا بها ويعالجوها . ولكن بشرط أن يكون هؤلاء العلماء في خط الله ، ولتحقيق اهداف السماء ويجب الّا تكون معرفتهم بالقضايا الاجتماعية والانسانية بعيدة عن الاسلام وبمنأى عن التقوى . بل يجب أن يكونوا : العلماء بالله .. الامناء على حلاله وحرامه .

ضرورات العالم :

إنطلاقاً من هذا الحديث ، ومن آيات وأحاديث ونصوص أخرى ، وحتى من وحي العقل نقول :

ان القائد للمجتمع الاسلامي يجب ان يتفاعل لديه نوعان من العلوم :

الأول : ما يرتبط بواقع الحياة .

الثاني : ما يرتبط بالقيم .

فالعالم الذي يقود السياسة يجب ان يكون عالما بأمرين : بالسياسة ومدركاً لابعادها ، وكذلك بالدين ويفقه أحكامه بالنسبة الى السياسة .

والعالم الذي يقود الاقتصاد كذلك يجب ان يكون عالما بأمرين : بالاقتصاد وابعاده ، وكذلك بالدين واحكامه في الاقتصاد .

وكذلك في حقل الاجتماع ، وعلم النفس والتربية وسائر الحقول الانسانية والاجتماعية .

أما من يعرف القضايا السياسية فقط دون ان يعرف حكم الله في السياسة ، فهذا لا يحق له ان يقود الناس وان ينصّب نفسه حجة عليهم ، لانه لا يعرف حكم الله في مجال السياسة . لذلك من ابسط الضرورات الدينية واوضحها ان الطغاة الذين يتحكمون بالبلاد الاسلامية ، لا يمثلون الاسلام ابدا ، وليسوا هم أولي الامر كما يدعي بعضهم لانهم اساسا لا يعرفون احكام الله .

وكذلك العكس ، فالعالم الذي يعرف العلوم الاسلامية ، ويعرف التاريخ ، دون ان يعرف زمانه وما يجري حوله ، فهذا هو الاخر لا يحق له ان يقود الناس ، لأن معرفة الاحكام الشرعية دون معرفة موارد تطبيقها ، ومتغيرات الظروف الاجتماعية التي تتغير وفقها بعض الاحكام الشرعية ، قد يكون ضررها اكبر من نفعها .

جاء في الحديث الشريف عن الامام المهدي (عليه السلام) :

« أما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها الى رواة احاديثنا فهم حجتي عليكم وأنا حجة الله عليهم » .

الحوادث جمع حادثة ، والحادثة في اللغة هي الظاهرة المتغيرة . والشريعة الاسلامية فيها من المرونة ما يستوعب كل التغييرات والتطورات .

لذلك نحتاج الى الفقه ، والفقهاء وحدهم الذين باستطاعتهم ان يستنبطوا احكامها المناسبة من الشريعة .

ومن هنا يأتي عدم جواز تقليد الاموات تقليداً ابتدائياً ، وفي رأي كثير من الفقهاء ، لا يجوز تقليد الاموات حتى استمراريا . وكذلك في المسألة التي لم تعمل بها في حياة المجتهد ، لا يجوز لك ان تقلده فيها بعد مماته .

كل ذلك لأن متغيرات الزمان تتطلب فقيهاً يعرفها ويعرف الحكم الشرعي فيها . اما اذا لم يعرف الفقيه احكام الشرع بالنسبة الى متغيرات الزمان ، وتصدّى للمرجعية فهو ليس بقائد وامام .

وهذا اخطر ما أبتليت به الامة الاسلامية منذ بداية انطلاقها والى الآن ان يتصدىٰ للقيادة ادعياء العلم الذين لا يعرفون زمانهم .

يقول الامام علي (عليه السلام) في وصيته لكميل :

« ياكميل : الدين لله تعالى فلا يقبل الله تعالى من احد القيام به الاّ رسولاً أو نبياً او وصياً .

ياكميل لو كان هناك انسان واحد في العالم واراد ان يعمل باسلام فهل يحق له ذلك ؟ (ثم يجيب (ع) ويقول) كلا ، الاّ أن يكون حجة » .

الانسان الواحد اذا كان موجودا ولم يكن حجة ولم يكن متصلا بالوحي اي لم يكن اماما ، فان عمله لن يكون صحيحا ، لانه عمل دون تقليد وبلا اتباع للامام الشرعي ، لا يكون لله ، ولن يرضى الله عنه .

ويقول الامام في حديث آخر :

« لو كان هناك رجلان لكان أحدهما إماماً والثاني مأموماً » .

لأنه من دون الامام لا نتمكن ان نتخذ القرارات الصحيحة في خضم متغيرات هذا الزمان . ومن هنا نجد فقرة من حديث الأمام العسكري (عليه السلام) في وصفه للعلماء الذين يجب على العامة إتباعهم :

« عارفاً بأهل زمانه » .

وفي حديث آخر ..

« العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس ».

ذلك لان الأحكام تتغير في اطار القيم الثابتة وفق متغيرات الزمان ، فنرى مثلاً أن الأمام علي (عليه السلام) يجلس في بيته بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) خمس وعشرون سنة ، ولكنه في فترة أخرى ، وحينما يتطلب منه الأمر أن يخوض المعارك ، نراه يقتحم الصفوف ويذيق أعداء الدين الويل .

وهكذا الأمام الحسن (عليه السلام) ، في فترة حمل السيف ضد جيش الشام ، ولكن حينما تتطلب المصلحة أن يصالح معاوية ، تراه يصالح .

وحينما يتطلب الظرف الثورة على الظالمين وتقديم أكبر التضحيات في سبيل فضح حكم بني أمية ، الذين لو قدّر لهم البقاء لمسخوا الاسلام الحق وبدّلوه بمجموعة أباطيل لا تخدم الاّ جورهم وفسادهم ، نرى أن الأمام الحسين (عليه السلام) لا يتوانى في ذلك ، فيقدم نفسه وأهل بيته وأصحابه قرابين في سبيل الله .

ويتبدل الظرف ويأتي دور الأمام زين العابدين علي بن الحسين (عليهما السلام) ، فينتهج منهاج تأليف الأدعية ، وشراء العبيد وتربيتهم تربية رسالية ثم عتقهم لينشروا الأسلام في أرجاء الوطن الأسلامي الذي كان يتسع يوماً بعد آخر .

أما مرحلة الأمام الباقر والصادق (عليهما السلام) فكانت تتطلب منهما تزريق الوعي في جسم الأمة وبث المعارف الأسلامية ، ونشر الفقه .

وتأتي مرحلة الأمام الكاظم (عليه السلام) والتي كانت الظروف فيها مهيئة للثورة ، نراه يقوم بالأعداد لها .

ثم تأتي مرحلة الأمام الرضا (عليه السلام) فنراه يقبل بولاية العهد للمأمون العباسي ما دامت مصلحة الرسالة تتطلب ذلك .

ثم يأتي بعده الأمام الجواد ثم الهادي ثم العسكري ثم المهدي المنتظر (عليهم السلام) وكل منهم نراه قد انتهج المنهاج الذي كان الظرف الخاص به يتطلبه .

ان الأئمة جميعاً كانوا في طريق الحق ، ولكن الزمان كان يختلف ، لذلك اختلفت

قراراتهم السياسية .

ان الرجل السياسي الذي لا يعرف من احكام الدين في السياسة شيئاً ، لا يكفيه أن يقرأ كتاباً في السياسة الأسلامية ، لان هذا الكتاب لا يمكنه ان يطبق ما فيه على الظواهر السياسية المتغيرة .

وكذلك لا يكفي عالم الدين ان يأخذ بنظر المستشارين في القضايا السياسية ، وانما يجب أن يكون هو عالماً بالسياسة .

لذلك فمن الاسباب والعوامل الرئيسية لانتصار الثورة الاسلامية ، ان الله هيأ لايران عالماً كالامام الخميني (حفظه الله) الذي كان طوال حياته مراقبا للأحداث السياسية ، وشاهداً على مجريات الأمور ومتوغلاً في فهم كل المتغيرات في الساحة .

لذلك يجب علينا ان نفهم ونعي من الذي ينبغي ان يقودنا ، ومن الذي نجعله بيننا وبين الله .. فقد لا يقبل الله عذراً للانسان الذي يتّبع رجل الدين الذي لا يعترف بان السياسة جزء من الاسلام ، انه لا يحق للمسلم أن يتبع مثل هذا الانسان مهما كان يحمل من علم وورع .

ان الله سبحانه وتعالى اودع في الانسان العقل وأعطاه القرآن ليقرأه وليتدّبر فيه ، ثم ينظر هل أن أقوال هذا العالم او ذاك تتناسب مع آيات الذكر ام لا .

وحينما يقول الامام المهدي (عجل الله تعالى فرجه) في حديثه الشريف :

« إنّهم حجتي عليكم وأنا حجة الله عليهم » .

فهذا يعني أن هؤلاء العلماء انما هم استمرار لخط الأئمة ، الذين علمونا أن السياسة ليست شيئاً يختلف عن الدين وانما هي من صميمه ، والآ لجاز للحسين (ع) ان يلتجأ الى جبل ويعبد الله فيه ولا يتدخل في الشئون السياسية .

المطلوب ثورة ثقافية :

ان للقضية وجهة أخرى ، وهي ان طلبة العلوم الدينية ، يجب ان يلتقوا مع طلبة العلوم الحديثة في خط واحد . فيصبح العالم بالسياسة عالما بالدين . والعالم بالدين عالما

بالسياسة . اننا يجب أن نقضي والى الأبد على الانفصام الذي اوجده التخلف والاستعمار في بلادنا .. فالتخلف ابعدنا عن عصرنا ، والاستعمار ابعدنا عن ديننا .

وهذا الهدف لا يمكن تحقيقه من دون بذل جهود مكثفة ، لان هناك عوامل كثيرة تدعو الى تجهيل علماء الدين وطلبة العلوم الدينية وابعادهم عن قضايا السياسة والاجتماع والاقتصاد ، والى ابعاد طلبة العلوم الحديثة عن القرآن والسنة والتاريخ الاسلامي .

ان تقدم الاسلام وانتصاره يحتاج اليوم الى اولئك العلماء الذين مدادهم افضل من دماء الشهداء ، وهم العلماء الذين يرسمون بمدادهم حلولا لمشاكل الامة بصورة جذرية وناجحة .

ان الامة الاسلامية الآن في حالة انفصام ، وفي حالة تفتت ذاتي ، فالمهندس لا يعرف من دينه الا كلمات قشرية ، وكأن الدين لا يرتبط بالهندسة ، والطبيب يفكر بأن علمه بعيد عن الدين ، وعالم الدين في بعض المناطق يزعم بأن السياسة ليست من الدين وهذه هي المأساة .

وان من المستحيل لأمتنا ان تتقدم دون القضاء على هذه المأساة . هذه كلمة قالها «هاملتون» قبل خمسين عاما ، وأكد عليها كل المفكرين المنصفين من الغربيين حيث قالوا بأن حضارة الأمة الاسلامية لا تتحقق الا على يد علماء الدين . وهذه الكلمة يؤكدها «توينبي» ايضا في كتابه «المختصر لدراسة التاريخ» بالاضافة الى ان تلك الفكرة قد اثبتتها كذلك تجارب عصرنا التي مررنا بها حتىٰ الآن .

في ايران العهد البائد ، وبعد الثورة البيضاء التي اعلنها الشاه المقبور ، كانت الزراعة الايرانية لا تنتج للشعب الا سبعمائة الف طن فقط من القمح سنويا ، والان وبعد كل المآسي وكل الافساد الذي سببه ما سموه بالاصلاح الزراعي ، وكل التدمير المنظم لزراعة ايران ، فان انتاج القمح قد بلغ وبعد أقل من ثلاث سنوات على إنتصار الثورة الاسلامية حوالي خمسة ملايين وخمسمائة الف طن سنويا ، انظروا .. الى هذا الفرق ، ان هذه هي الحضارة الحقة .

الحضارة هي أن يقود المجتمع عالم الدين الملم بالسياسة ، لا رجل ينكر السياسة ، ولا رجل سياسة لا يعترف بالدين . لقد تُرجم في ايران من الكتب العلمية وخلال سنة

واحدة وهي السنة التي سميت بسنة الثورة الثقافية اكثر من ثلاثة آلاف كتاب ، وهذا اكثر مما ترجم في عهد الشاه المقبور .

لقد حاول الشاه والانظمة العميلة في هذه البلاد ان يكرّسوا تخلفنا ، ويكتفوا بترديد الشعارات وان يرسلوا أولادنا الى الغرب والشرق لا ليتعلموا العلم ، وانما ليبحثوا عن كل رذيلة هناك ، ويأتوا بها هدية الى بلادنا .

نحن حينما نقول الثورة الثقافية ، فلا نعني فقط ان نحصل على معلومات حديثة مضافة الى المعلومات الدينية او العكس ، وانما نريد ايجاد بنية جديدة وكيان جديد لثقافة العصر أنه كيان يعتمد في أرضيته على قيم الاسلام والرسالة ، وينمو من أجل المستضعفين ، ومن أجل الفقراء الذين سحقهم الاستبداد والاستغلال .

اننا نريد ان نربي دكتورا في الطب ، وفي نفس الوقت يكون ناصح ديني ، وناصح اخلاقي ، ومربّ لمرضاه . نريد ان يصبح الطب قضية انسانية بيد الاطباء ، وهكذا في الهندسة ، وعلم التاريخ والجغرافيا ، وعلم السياسة وسائر العلوم الانسانية والطبيعية ، وسنثبت للعالم ذلك .

ولقد فهم بريجنسكي مستشار الرئيس السابق كارتر للأمن القومي ، القضية ايضا حينما قال : « أن الذي يجري في ايران هو بعث اسلامي أصيل » .

نعم انه بعث اسلامي ، وانها روح جديدة ولدت في هذه المنطقة ، وهذه الروح من أهم وابرز ابعادها هي ربط العلم بالدين ، والقضاء على تلك اللعنة التاريخية التي جرت في فرنسا ابان الثورة العلمية حيث أبعدوا العلم عن الدين ، وسببوا هذه المآسي للبشرية .

وفي ظل هذا التلاحم بين العلم والدين ، تبقى الأمة على أصالتها وتظل محتفظة بقيمها ، وترى انه حينما يأمر الامام الخميني (حفظه الله) مثلا بضرورة صناعة الطائرات في ايران ، وبناء القاعدة المتينة للاقتصاد والصناعة الثقيلة في البلاد ، فأنه لا يريد بذلك أن يسلبها دينها وقيمها وارتباطاتها وعلاقاتها وجذورها . انها ترى الذي يأمرها بهذا يعطيها أيضاً فرصة صيام شهر رمضان . وان الذي يأمرها أن تنجب أفضل العلماء في الفيزياء والهندسة وما أشبه ، يأمرها ايضا أن تلتزم بالصدق والوفاء ، وأن لا تنسى العلاقات الأجتماعية ، لذلك فهي تندفع في مجال العلوم التكنولوجية .

وهذا هو الذي يدعونا الى أن نؤكد على أن ما يجري في ايران ليس قضية تبديل نظام بنظام كما يزعم البعض ، وانما هو انبعاث جديد في العالم الاسلامي . وفوران في القيم الأصيلة ، تلك القيم التي ظلت حتى الآن محتفظة بنقائها الذي لم تستطع الحروب الصليبية ولا الاجتياح التتري ، ولا الاستعمار الغربي أن يقضي عليها .

ان الذي يجري في ايران اليوم هو رد فعل قوي لكل انتكاسات الأمة . فلا يمكن القضاء على هذه الثورة بسهولة .

وهكذا لم يكن تحرك الشعب من أجل طرد الشاه واقامة نظام بديل عنه ، وأنا شخصيا اعتقد جازما بأن محاولات ريغان وبيغن وأذنابهما سوف تفشل باذن الله ، لأن القضية أعمق مما يتصورون .

ان الثورة هي حل جذري لاشكالية الأمة التي كانت تعيش أزمة حضارية .. فهي من جهة تنتمي الى ماض مشرق مجيد ، والى قيم أصيلة ، ونظرات سماوية ، ورسالة عالمية . ومن جهة ثانية تريد اللحاق بالعصر . ولقد انحلت هذه الأزمة على يد رجل دين قاد الثورة السياسية ، في منطقة تتشابك فيها العلاقات الدولية التي عجزت العقول الالكترونية الشرقية والغربية عن تقييم الوضع فيها .

بين الأمة والطليعة

في المجتمع الاسلامي طليعة قيادية تستلهم من التقوى اطارا لها ، ومن العلم قيمة ، ومن الصلاح عملا ، وتقود البشرية نحو أهدافها التي تتلخص في تحقيق العدالة والرفاه في الدنيا ، والرضوان والفلاح عند الله سبحانه وتعالى .

بيد أن جميع أبناء المجتمع الاسلامي لا يمكن أن يكونوا من تلك الطليعة القيادية ذات العلاقات الرسالية . فضمن اطار المجتمع الأسلاميّ العام هناك مجموعات رسالية مؤمنة ملتزمة بكل البرامج الآلهية ، ومجموعة أخرى قد تكون الأغلبية الساحقة من أبناء المجتمع ، أناس عاديون يخضعون لأي نظام يسودهم ، ويميلون مع كل ريح .

وهنا يطرح السؤال التالي : ما هي العلاقة بين التجمع الايماني الرسالي الخالص الذي يقوم على أساس الحب في الله والبغض في الله ، وعلى قاعدة تطبيق المناهج الاسلامية ، وبين عامة الناس المتواجدين ضمن الدولة الاسلامية ؟

قبل أن نبين هذه العلاقة لا بد أن نذكر ملاحظتين :

الاولى :

ان مبرر طرح هذا الموضوع جاء على أساس أن هناك تناقضا واختلافا في الآراء حول طبيعة الحكم والقيادة الاسلامية ، تتراوح بين من يذهب الى أن نظام الاسلام نظام ديكتاتوري استبدادي عادل . وبين من يقول ان نظام الاسلام نظام ديمقراطي ، يشبه الى حد بعيد الديمقراطيات الغربية . وهذا التناقض يبدو واضحا في كتابات الذين ألفّوا عن

النظام السياسي للاسلام . فهم بين أقصى اليمين ، وأقصى اليسار . كما ان هذا التناقض توضّح أكثر بعد تجربة الحكومة الاسلامية في ايران ، واختلاف الرؤى والنظريات التي طرحت حول الحكم الاسلامي .

ففي جلسات مجلس الخبراء الذي شُكّل بعد انتصار الثورة الاسلامية لوضع الدستور الاسلامي ، والذي كان يضم كبار المنظّرين والمفكرين الاسلاميين في ايران بمختلف اتجاهاتهم ، كان الاختلاف يبدو بوضوح في الاطروحات التي قدّمت . فهناك من طرح مشروع الدستور المتأثر بالديمقراطية الغربية الذي لم يصوت عليه ، بينما كان الأغلب يؤيدون مشروع الدستور الأقرب الى النظام الثوري الموّجه . وهناك من كان يقول ان هذا الدستور لا يكفي ، وانما يجب أن يكون الدستور الاسلامي أقرب الى النصوص القرآنية . وهناك من كان ينادي بأن رئيس الجمهورية في هذا النظام الذي ينتخب من قبل الأغلبية الساحقة من الشعب ، هو القائد العام للقوات المسلحة ، وهو الذي يعين رئيس القضاء ، ويعين المدعي العام ، ويجب أن تكون كل الامور بيده .. أما المرجع الديني الأعلى أي الامام القائد ، فيجب أن يكون معزولاً ، يراقب الامور من بعيد ، ويعطي بين فترة وأخرى توصيات ومواعظ ، شأنه شأن البابا في الفاتيكان ، وهذا هو الذي أيدّه الرئيس الايراني السابق أبو الحسن بني صدر ، ودافع عنه بقوة .

كما أن هناك من كان يقول بأننا لا نحتاج الى رئيس جمهورية ، ولا لمجلس شورىٰ ، ويكفينا وجود الامام .

هذا في ايران حيث اغلب الناس هنا مخلصون وصادقون في طاعتهم للأمام .

ولكن هناك من لا يؤمنون بالحكومة الأسلامية ، فما هو حكمهم ، وما هو الموقف تجاههم ؟ ولو أنعكست الآية ، وكانت هناك أقلية مخلصة وصالحة ، وكانت الأغلبية ساكتة لا تهتم بما يجري حولها ، وليس لها حضور في الساحة . فكيف يجب أن يكون موقف الاقلية المؤمنة منها ؟

الملاحظة الثانية :

هي أن الناس ثلاثة أصناف ، فمؤمن صالح ، ومنافق فاسد ، واكثرية علىٰ دين

ملوكهم ، لا رأي لهم في الحياة ولا همّ سوى العيش تحت اي لواء كان .

من هي هذه الأكثرية ؟ وكيف يمكن قيادتها ؟

يقول المؤرخ المعروف « أرنولد توينبي » في كتابه مختصر دراسة للتاريخ : « إن المجتمع البشري أشبه ما يكون بالجسم البشري فكما أن جسم الانسان فيه أعضاء موجهة ، وأخرى تتلقى التوجيهات ، فكذلك المجتمع البشري فيه أقلية مبدعة وخلاقة توجه ، وأكثرية عاملة تتوجه » .

وهذه الحقيقة تحكم كل المجتمعات البشرية فالمجتمع الأمريكي مثلاً ، اكثر الذين ينتخبون الرئيس فيه لا يعرفونه ، وانما يتبعون وينقادون للحملات الأعلامية التي يقودها هذا المرشح أو ذاك . وكذلك في الاتحاد السوفياتي ، اكثر الناس لا يعرفون ما هي القضايا السياسية ، والاجتماعية التي تجري في البلد ، وانما ينقادون وراء الأعلام الموجه .

انهم قد يثقون بصحيفة وبخطها السياسي ، أو بحزب وخطه الفكري ، أو قد يثقون بشخص وبفكره وتوجهه ، فيقلدونه ويتبعون كلامه ، على درجات مختلفة في التقليد .

وهذه الاكثرية لا تريد من حكومتها الّا ان توفر لها قدرا من الأمن والرفاه . فهي تقنع بالعفاف والكفاف ، حتى أن الطليعة الواعية حينما تقول للناس بأن الوضع شاذ ويجب تغييره ، فانهم يتعجبون منهم وربما لا يصدقونهم .

بين الثورة والسكوت :

ان الأنسان ــ اي انسان ــ تحكمه حالتان ، حالة الثورة والسعى الدائم من أجل المزيد من التقدم والرفاه ، وحالة القناعة والسكوت .

والحالة الثانية موجودة عند أغلب الناس ، وخصوصا أولئك الذين لا حظ لهم من العلم والوعي الا القليل . يرضون بالكفاف والعفاف ، ويطالبون بحكومة توفر لهم أدنى قدر من احتياجاتهم الضرورية الا انه في الواقع الأجتماعي هناك احساس غريب عند الانسان لا يعرف طبيعته ولكنه يحن اليه حنانا ، وهو أن تكون الحكومة القائمة في بلده

حكومة عادلة توفر له اكبر قدر من العدالة ، وأعلى مستوى من الرفاه . ان هذا الاحساس موجود في فطرة البشر، ولكنه ليس احساسا عنيفا ، وانما هو احساس هادىء . فكل انسان يطمح أن يحصل على بيت أوسع وسيارة أرفه ، وعلى أكبر قدر من متاع الدنيا وأقصى حد من العدالة والحرية . ولكن هذا الأحساس هو حنان لا أكثر. ولو قدّر لهذا الأحساس ظروفاً خاصة ، لتحول الى ثورة عنيفة موجهة لتحقيق هذه المطالب .

العلاقة بين الطليعة والجماهير:

بعد ان بيّنا هاتين الملاحظتين بقي ان نجيب على سؤالنا الأ ول ، وهو: ما هي العلاقة بين الطليعة والجماهير ؟

العلاقة بين الطليعة وهم ذلك التجمع الأيماني الذي يقوم على اساس العلاقات الرسالية فيما بينه ، ويطبق المناهج الأسلامية على نفسه تطبيقاً كاملاً ، وبين عامة أبناء الشعب ، هي علاقة أيجابية تتسم بالصلاح .

فالصلاح هو محور نظرية الاسلام في الحياة . فكما أن محور النظرية الماركسية هو شيوع الملكية ، ومحور النظرية الداروينية هو أن البقاء للأقوى ، فأن محور النظرية الاسلامية هو الصلاح ، وأن العاقبة للأصلح ، وأن الحق هو الذي يبقى وليس الباطل . لأن قوة الباطل مهما كانت كبيرة فأنها لا تصمد أمام قوة الحق وان كانت في بادىء الأمر صغيرة .

ماذا يعني الصلاح ؟

الصلاح لا يعني مجرد تبلور نظرية صحيحة ومتكاملة في ذهن الانسان فحسب ، وأنما يعني أيضاً العمل الصالح المبني على هذه النظرية .

فالانسان الذي يعرف القرآن الحكيم والسنة الطاهرة ولكنه لا يستطيع أن يقود مجتمعه الى الرفاه لنقص في ادارته ، وضعف في رؤيته ، وقلة في تجربته ، هذا الانسان لا يسمى صالحاً ، فالصلاح يجب أن يكون شاملاً لجميع أبعاد الحياة . والفئة الصالحة هي

الفئة التي تستطيع أن تقيم نظاماً عادلاً ، وتحقق للناس ما يتطلعون اليه في الحياة . فتوفر لهم فرص العمل وتقوم بتلبية احتياجاتهم المادية والروحية ، فيجدوا حلاوة جنة الدنيا قبل جنة الآخرة .

أننا كمسلمين نمتلك نظرية صحيحة ومنهجاً متكاملاً منّ الله به علينا يوم أكمل لنا ديننا وأتم علينا نعمته ، والمفروض أن نسبق الأمم الأخرى ونتقدم لوراثة الأرض ، ولكننا في الواقع عكس ذلك ، متخلفون كثيراً عن ركب الحضارة . فنجد أن أمة كالأمة اليابانية التي التزمت بجزء بسيط من المنهج الصحيح الذي نعتقد به ، وهو الاهتمام بالعلوم التطبيقية ، والنشاط الدائب لتسخير الطبيعة لخدمة الانسان ، تنطلق سريعاً في مجال التقدم العلمي . حتى أن اليابان تستخدم اليوم (٤٧,٠٠٠) انسان آلي من أصل (٦٠,٠٠٠) يستخدم في العالم . ولذلك أصبحت مصانعهم الآن تنتمي الى عصر الثورة الثالثة ، عصر الالكترون . ولقد أثبتوا أنهم أصلح من غيرهم في هذا المجال ، لأنهم نقلوا النظرية الصحيحة الى ميدان التطبيق السليم .

ونحن الذين نمتاز بنظرية أكمل وأشمل من نظريتهم ، فهل بمجرد هذه النظرية نتمكن أن نسبقهم ؟ كلا ، وانما الذي يسبق هي تلك الفئة الصالحة التي تجمع في ذاتها بين صلاح العلم وصلاح الايمان الذي يدفع الى العمل الجاد المثمر .

المطلوب ايجاد البديل الأصلح :

إن الثورية ليست بكثرة الشعارات ، ولا بزيادة الكتابات والدراسات . الثورية هي أن توجد البديل الأفضل عن الواقع الفاسد ، في عملك وفي علاقاتك وفي خططك . أن تبني من نفسك وممن حولك ذلك المجتمع الصالح ، وآنئذ تأتي اليك البشرية طواعية ، وتعطيك مقاليد حكمها . أما أن تطرح مجموعة خطط لأنقاذ الشعب وتستدل عليها بمجموعة أدلة وشواهد لا يعرف الناس مدى صحتها ، فهذا لا يكفي ، والناس سوف لا يسمعون كلامك لأنهم رأوا أن كل فئة وكل حزب جاء اليهم ، بسط لهم أسفارا من الدراسات والنظريات والشواهد والأدلة ، والأمثلة التاريخية التي تثبت صحة نظريته .

وكل حزب بما لديهم فرحون .

ولقد انخدعت البشرية فترة من الزمن بتلك الأحزاب والنظريات . فيوما كانت تلهث وراء النظرية الرأسمالية ، التي كانت تقول بأن عصرا ذهبيا ينتظر العالم ، ولكن ذلك لم يحدث أبدا . وفي يوم لهثت وراء الماركسية ولكنها لم تلمس الا سراباً فلا يكفي أن ندعي أننا البديل الأفضل عن الواقع الفاسد الذي يحكم بلداننا ، وإنّما علينا أن نعمل على بناء ذلك المجتمع الصالح ذو العلاقات الأيمانية والطموح الحضاري ، وآنئذ نثبت عملياً أننا البديل الأصلح والأفضل .

أننا حينما ننظر الى شعوبنا نجد فيها أناسا صالحين ومصلحين ، كما نجد فيها مجموعة من المنافقين المفسدين ، ونجد هناك أكثرية تتبع الحاكم . من الناحية العقلية والفطرية ، الصالحون هم الحكام الشرعيون لهذا المجتمع ، لأنهم يقودونه الى الخير والرفاه والسعادة . وكذلك من الناحية الاجتماعية ، فالمجموعة البشرية المتواجدة ضمن هذه الدولة ، لا ترغب في حكومة مجموعة من الفسقة والفجرة ، وانما ترغب في حكم مجموعة يعملون لصالح المجتمع ويعدّون أفضل من غيرهم ادارة وأكثر علماً .

وحتى لو لم تكن الأكثرية واعية لتختار الصالحين ، فإنها وبعد جهود مكثفة في مجال التوعية ، سيفهمون الحقيقة ، وسيتحركون وراء الصالحين ، ولا يبقى سوى تلك المجموعة الفاسقة الفاجرة التي ترغب في استثمار الناس واستغلالهم ، او تلك المجموعة المنحرفة التي لم تعرف الحقيقة وضللتها الفئات الفاسدة ، معارضة لحكومة الصالحين . ولكن هذه المعارضة ليست بالشيء الخطير لأنها معارضة تقوم بها الأقلية . أما الأكثرية فستقتنع بحكومة الصالحين .

في إيران المثال الصادق على ذلك :

وكمثل على ذلك ما رأيتموه في ايران ، فالذين كانوا يعارضون النظام الاسلامي منذ بداية الثورة والى الآن ، كان عددهم على أعلى الفروض لا تتجاوز العشرون بالمائة من الشعب الايراني . وهذه النسبة تجمع خليطا من الذين تثقفوا خلال خمسين عاما بالثقافة

الغربية ، ومن الذين ارتبطت مصالحهم بالمصالح الاستعمارية ، ومن الذين طردوا من الدوائر أو تضرروا بسبب ظروف الثورة ، والتغييرات التي أعقبت الانتصار ، وغيرهم من الذين ضللتهم الدعايات الأجنبية ، والذين خدعتهم الأحزاب والمنظمات العميلة . هؤلاء هم الذين يعارضون النظام ، ويلتفّون يوما حول بختيار ، وحينما يسقط هذا الصنم يلتفون حول أحمد مدني ، وحول بعض الأحزاب ثم يلتفون حول بني صدر ويحاولون احتواءه ، وحينما يسقط هذا ، يقومون بعمليات مسلحة ضد النظام ويعلنون الثورة بمفهومهم . ويمكن ملاحظة أن عددهم في تناقض مستمر لأن الكثير منهم كانوا مضللين ، فاهتدوا بسبب التطورات التي حدثت في الساحة .

ولكن الأغلبية الساحقة من الناس هؤلاء الذين وجدناهم قد انتخبوا في يوم بني صدر حينما ظنوا بأنه في خط الأمام الخميني ، وأنه يقبل بكل ما جاء في الدستور وحينما اكتشفوا انحرافه خرجوا الى الشوارع وأسقطوه . كانوا هم الذين اشتركوا في ذلك التشييع المهيب لقادة الثورة الذين اغتالتهم أيدي العملاء في حادثة تفجير مقر الحزب الجمهوري ، فلقد خرج في طهران وحدها ثلاثة ملايين انسان تقريبا ، بينما بلغ مجموع الذين خرجوا في جميع أنحاء ايران أكثر من عشرة ملايين .

هذه الأكثرية هي التي تدافعت الى صناديق الاقتراع ، وأدلى حوالي خمسة عشر مليون شخص بأصواتهم في الانتخابات ، وحسب المقابلات التي كان مراسلو الاذاعة والتلفزيون يجرونها معهم على صناديق الاقتراع كانوا يقولون هذه الكلمة : نحن أعطينا رأينا لبني صدر ولكنه آلمّ قلب الامام ، ونرجو أن يقوم رجائي بأدخال السرور على قلبه . فهم لا يتبعون الامام لأنه ابن فلان ، وانما لأنه يمثل الاسلام .

فالناس عامة يرون إن الفئات الصالحة أفضل من الفئات الفاسقة ، وأن هناك فرقا بيّنــاً بين النظام الشاهنشاهي السابق الذي تحاول بعض الفئات الضالة اعادته الى ايران ، وبين النظام الاسلامي القائم .

وبكلمة أن العلاقة بين الفئة الصالحة والجماهير علاقة ايجابية ، والجماهير حينما تتعرف على الفئة الصالحة المؤمنة التي تخلص العمل ، تتبعها .

قيم الأنتخاب في الاسلام

ما هي حدود الحرية في النظام الاسلامي خصوصاً الحرية في انتخاب القائد الأعلى للأمة ؟

تعتبر الحرية من أهم مشاكل الأنظمة في العالم ، وسر هذه المشكلة يكمن في أمرين :

الأول :

ان هناك نزعة نحو الطغيان والاعتداء والسيطرة عند الانسان بصفة عامة . وهذه النزعة هي أقوى وأعنف وأبقى من أية نزعة أخرى . فهي التي أخرجت أبانا آدم وزوجه (عليهما السلام) من الجنة حينما قال ابليس لهما : « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » حيث أثار فيهما هذه النزعة .

فوجود هذه النزعة عند الانسان من أقوى الأخطار التي تهدد حرية الآخرين ، وحرية الفرد أنما تتحدد بحدود حريات الاخرين . أما اذا طغت الحريات الفردية وتعدت حدودها فأنها تتحول الى شريعة الغاب .

فالحرية المطلقة للبهائم والسباع في الغابات هي حرية الاعتداء المتبادل ، وينتهي الأمر الى أن يأكل القوي الضعيف .

ان الحرية في الواقع تتمثل في حفظ حرمة الآخرين . فحريتي تكون حقيقة وواقعية حين يحترم الآخرون حقوقي ، ويحترمون شخصيتي وكرامتي . لذلك لا يستخدم الاسلام كلمة الحرية الا قليلا وانما يستخدم الجانب الاخر للحرية وهو الحرمة فيقول .. حريم الانسان ، حريم البيت ، وحرم الله ، وحرمة الاعتداء . فالحرية تتبدل في مفهوم الاسلام

الى الحرمة ، لان الحرمة هي التي تحافظ على الحرية . وحينما يحافظ الناس على حرمة البيت ، والشارع ، والمدرسة ، والسوق فمعنى ذلك محافظتهم على حرية الافراد .

الثاني :

حين يستخدم الانسان حريته ، فأن وضعه سيكون انعكاسا لنفسيته ، وثقافته ومستواه الحضاري . فقد يكون الانسان متخلفاً من الناحية الحضارية ، والثقافية ، ومنحرفا من الناحية السلوكية ، لذلك فان حريته اللامحدودة ستكون كارثة حقيقية له وللاخرين . وحينما نعطي له الحق بان يكون حرا في اختياره ، فأن الحرية ستكرس تخلفه وانحرافه وبالتالي ستكرس الفساد في الارض .

ان حرية المشركين مثلاً تعني تكريس الشرك في واقعهم واعطاء الشرعية لهذا الانحراف ، وهذا يتناقض مع فطرة الأنسان .

والأنبياء حينما أرسلوا لهداية البشرية ، قاومهم الكثير من الناس بحريتهم ، فهناك الكثير من البشر كانوا مضّلّين ، وكانوا يستخدمون حريتهم في سبيل تكريس انحرافهم وجهلهم وغفلتهم ، وبالتالي تكريس الفساد في أنفسهم ومجتمعهم .

لقد اختارت ثمود وعاد واصحاب الأ يكة نظامهم السياسي بأنفسهم ، وكان في ذلك هلاكهم ، لأنّه كان نظاماً فاسداً ، هذا في التأريخ الغابر ، اما في الوقت الحاضر نرىٰ الشعب الألماني مثلاً الذي كانت له حرية مطلقة قبيل الحرب العالمية الثانية في اختيار قائداً أعلىٰ له ، كيف انه اختار (هتلر) وحزبه النازي الذي قاده الى الدمار . وكذلك الشعب البريطاني الذي اختار (بلفور) الذي قاد العالم الى الفساد عبر استعماره الشعوب .

إذن الحرية بدون توجيه سماوي ، تعني إعطاء السلاح بيد صبي لا يدرك بعد معنىٰ الحياة ، فتراه يؤذي نفسه ويؤذي الآخرين .

كيف يعالج الاسلام مشكلتنا الحرية :

والسؤال هنا : كيف يعالج الأسلام مشكلتا الحرية عند الأنسان ، خصوصاً حريته

السياسية ؟

بالنسبة الى المشكلة الأولى فأن الأسلام يأمرك ان لا تختار رجلا كقائد الا بعد أن تجرب فيه الارادة الصلبة والاستقامة والخلق الرفيع ، والزهد في الدنيا ، وعدم حب الرئاسة والسلطة . لأن من تستبد بقلبه شهوة السلطة ، لا يصلح أن يعطى سلطةً ، لأنه سيبحث عن سلطته قبل اي شيء اخر ، ويستخدم الدسائس من اجل ابقاء كرسيه . وبهذا الاسلوب يقضي الاسلام على المشكلة الأولى للحرية ، وهي مشكلة مناقضة الحرية لنزعة السيطرة والتسلط والملك الموجودة عند الانسان .

الحرية وتخلّف :

اما المشكلة الثانية وهي مشكلة تخلف الانسان وانحرافه ، فأنّ الاسلام يعالجها بطريقتين :

الاولى :

هي ان الأسلام لا يدع الاختيار مفتوحا ، وانما يعطي الفرد حرية القرار في حدود معينة . في الحديث عن الأمام الحسن العسكري (عليه السلام) قال :

« أما من كان من الفقهاء صائنا لنفسه ، حافظا لدينه ، مطيعا لامر مولاه مخالفا لهواه فللعوام أن يقلدوه » .

فالرجل الذي يحمل هذه المواصفات ، فقيها ، مطيعا لله ، ومخالفاً لأهوائه الشخصية ، هو الذي يجوز لك أن تقلده دينك وتعمل تحت قيادته .

هناك فرق دقيق بين معنيي الاختيار والانتخاب . فالاختيار هو أن تقرر ما تشاء ، حسب ما تشاء ، وكيفما تشاء ، فاذا قال لك أحد اذهب الى السوق واختر لك ثوبا ، فستكون لك الحرية الكاملة في شراء الثوب الذي تهواه نفسك دون التقيّد بأية ضوابط . أما الانتخاب فهو اذا قال لك الطبيب ، انّك اذا جلست الى المائدة ، فتناول الاطعمة التي تحافظ على صحتك ، فان حريتك في تناول الأطعمة حينئذٍ ستكون مقيدة باعتبارات خاصة تحددها وصفة الطبيب ، بالرغم من انّك أنت الذي تنتخب الطعام المناسب

لصحتك الا أنه حسب شروط وصفة الطبيب . والأسلام لا يعطيك كامل الحرية حتى تختار قائداً حسب هواك ورغبتك الخاصة ، وانما يجب أن تنتخب وفق قيم محدودة ، ومواصفات خاصة بيّنها الله لك في الشريعة الاسلامية .

الطريقة الثانية :

وهي أنّ الاسلام يأمر الطلائعيين الرساليين أولي العلم والدين ، وذوي البصائر النيّرة ، أن يقوموا بتوعية الجماهير المسلمة ، ففي نفس الوقت الذي يعطي الاسلام للجماهير المؤمنة الحق في الانتخاب حسب المواصفات الشرعية ، فأنّه لا يدعها وشأنها ، بل يوّجب على الطليعة المؤمنة المتسلحة بالبصيرة القرآنية أن تقوم ببث الوعي في صفوف الجماهير، حتى لا يضل الناس فينتخبون رجلا غير كفوء .

ان الله سبحانه وتعالى لم يأخذ على الجهال أن يتعلموا ، الا بعد ان أخذ عهدا على العلماء أن يعلموا . ويوم القيامة سيغفر للجاهل سبعون خطيئة ، قبل أن تغفر للعالم خطيئة واحدة . يقول القرآن الحكيم :

« واذ اخذ الله ميثاق الذين أُوتوا الكتاب لتبيّننه للناس ولا تكتمونه »

(١٨٧ / آل عمران)

فحينما يرى العالم أن الناس يستجيبون لاختيار انسان جاهل فاسق منافق ، عليه أن ينزل الى الميدان ويوجه الناس ، فان مسؤوليته ألّا يترك الناس جهّالاً يركضون وراء كل ناعق ، بل أن يعلّمهم ويرشدهم حتى لا يسيؤا استعمال حرية الانتخاب الممنوحة لهم .

مسؤولية الجماهير :

هذه مسؤولية الطليعة ، اما مسئولية الجماهير المؤمنة ، فينبغي أن تتخذ الجماهير أقصى درجات الحيطة والحذر من الأجهزة الاعلامية التي تقوم ليل نهار بالدعاية والتطبيل للمنحرفين الذين لا يجدون سبيل لكسب آراء الجماهير الّا عبر خداعهم وتضليلهم .

فالاسلام يقول للجماهير المؤمنة ان لا تستمعي الى الأجهزة الأعلامية المأجورة ، بل

يجب مقاطعتها ورفضها وكشف زيفها . فليس للانسان المسلم الحق في أن يستمع الى كل من يتكلم ، أو أن يقرأ أي كتاب ، أو يتثقف بثقافة أي جهة . فحينما يستمع الى خطيب فعليه أن يتأكد من علم ذلك الخطيب وعدالته ومقدار التزامه وتعهده وحينما يقرأ كتابا ، عليه أن يبحث عن مؤلفه وعن الجهة التي أصدرته ، وحينما يستمع الى اذاعة عليه أن يعرف أي اذاعة هذه ، ومن هم المشرفون عليها .

يقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

« من أصغىٰ الى ناطق فقد عبده ، فان كان الناطق عن الله فقد عبد الله . وإن كان الناطق ينطق عن لسان ابليس فقد عبد ابليس » .

ويقول الله سبحانه وتعالى :

« أفمن يهدي الى الحق أحق أن يُتّبع أمّن لا يهدّي إلّا أن يُهدى فما لكم كيف تحكمون »

(٣٥ / يونس)

انك يجب أن تتبع المهتدي القادر على الهداية ، وليس كل انسان ذو منطق منمق .

وفي آية كريمة ترى ابراهيم (ع) يقول لأ بيه :

« ياأبت إنّي قد جاءني من العلم ما لم يأتك ، فاتبعني أهدك صراطاً سوياً »

(٤٣ / مريم)

ان الآباء عادة يفرضون على أبنائهم إتباعهم ، ولكن ابراهيم (ع) نصح أباه أن يتبعه ، لانه صاحب العلم ، وصاحب العلم هو الذي يُتبع وليس صاحب الجهل .

وفي آية أخرى يقول تعالىٰ :

« والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا الى الله لهم البشرى ، فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اولئك الذين هداهم الله وأُولئك هم اولوا الالباب »

(١٧ - ١٨ / الزمر)

ان الطاغوت على أقسام فهناك طاغوت سياسي ، كهؤلاء المتحكمين في بلاد الاسلام . وهناك طاغوت ثقافي ، وهناك طاغوت اجتماعي . والمسلم لا يجوم له أن يتّبع اي طاغوت .

عن الامام الصادق (ع) يقول لاحد أصحابه :

« لا تكن امّعة تقول أنا مع الناس وأنا كواحد من الناس » .

فلا تتبع أحدا لمجرد أن الناس يتبعونه ، وانما يجب أن يكون لديك رأيك الحر المبني على القيم الصحيحة ، وتلك مسئولية جسيمة عليك أن تتحملّها أنت شخصياً .

ويقول الامام أبو عبد الله الصادق (عليه السلام) في حديث طويل :

« إيّاك أن تنصب رجلا دون الحجة ، فتصدقه في كل ما قال » .

يجب أن يكون الرجل الذي تستمع اليه وتعمل بحديثه ، حجة بينك وبين الله . فاذا سألك الله عزوجل يوم القيامة ، لماذا استمعت الى فلان واتبعته ؟ فينبغي أن تكون لديك حجة ، تقول إنّ هذا الانسان كان عالماً وفقيها ومهتديا ، وأنا عرفته وبلوته وجرّبته ، ثم بعد ذلك اتبعته . فاذا استطعت أن تقول هذه الكلمة أمام ربك يوم الحساب آنئذ اتبعه .

إنك اذا تتبع أي رجل جهلاً ، وتقرأ أي جريدة فتقتنع بما تكتب ، وتستمع الى أي اذاعة فتعتقد بما تقول ، فهذا شيء خطير جداً .

وفي حديث آخر عن رسول الله (ص) :

« ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ولكن يقبضه بقبض العلماء ، حتىٰ إذا لم يبق عالم ، إتّخذ الناس رؤساء جهّالاً فسألوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » .

أي أن الله سبحانه وتعالى حينما يريد أن يعاقب أمة لا تحترم علمائها الحقيقيين ، فانه يقبض العلماء اليه ، فيبقى الناس بدون علماء ، فيتخذون رؤساء جهالا ، مثل ما نرى في البلدان الأسلامية من حكام يتخذون مال الله دولا وعباده خولاً ، ويعيثون في الارض الفساد ، وتعاني منهم الأمة صنوف الشقاء وضروب البلاء .

وحينما تتبع فقيهاً يمالىء السلطة ، ويخالف الدين ، يكون شأنك شأن اليهود والنصارى الذين أغمضوا عيونهم ، وأعطوا مقودهم بيد الفجّار والفاسقين ، وقالوا إنّ هؤلاء علماء لا يجوز لنا ان نتبع غيرهم . فاذا استمعت الى اذاعة تعرض الأكاذيب والدجل والفسق والفجور ، وتسمى هذا يهودي وذاك مجوسي ، فلا يحق لك أن تصدقها ، وأنما عليك ان تتمثل بالآية الكريمة :

« يـاأيـهـا الـذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين »

(٦ / الحجرات)

وهكذا بقية وسائل الاعلام المقروءة والمسموعة والمرئية .

ثم يقول (عليه السلام) :

« فـأمـا مـن كـان مـن الـفقهاء صائنا لنفسه حافظا لدينه ، مخالفا لهواه مطيعا لأمر مولاه ، فللعوام أن يقلدوه » .

« وذلـك لا يـكـون الا عـنـد بـعـض الـفقهاء لا جميعهم . فاما من ركب من القبائح والـفـواحـش مـراكـب فـسـقة بعض الفقهاء فلا تقبلوا منهم عنا شيئا ولا كرامة وأنما كثر الـتـخـلـيـط فـيـمـا يحمل عنا أهل البيت . ذلك لان الفسقة يتحملون عنا فيحرفونه بأسره لجـهـلـهـم ، ويـضـعون الأشياء على غير وجوهها لقلة معرفتهم . وآخرين يتعمدون الكذب عـلـيـنـا ليجروا من عرض الدنيا ما هو زادهم الى نار جهنم ومنهم قوم نصّاب لا يقدرون على الـقدح فينا ، فيتعلمون بعض علومنا الصحيحة ، فيتوجهون بها عند شيعتنا وينتقصون بـنـا عند نصّابنا . ثم يضيفون اليه وأضعافه وأضعاف أضعافه من الأكاذيب علينا ، التي نـحـن بـرآء مـنـهـا ، فـيـقـبـلـه الـمـسـتـسـلمون من موالينا على أنه من علومنا فضلوا وأضلوا ــ وانظروا الى هذه الكلمة يقول ــ وهم أضّر على ضعفاء موالينا من جيش يزيد ــ عليه اللعنة ــ على الحسين بن علي (ع) ــ وهؤلاء هم علماء السوء ــ » .

وهكذا الاحاديث الأخرى التي تؤكد على ضرورة أخذ العلم من معينه الصافي ومنها هذا الحديث الذي يقول :

« من دان الله بغير سماع عن صادق ، ألزمه الله التيـه الى يوم القيامة » .

حـيـنـمـا تريد أن تعمل بطاعة الله ، يجب أن تبحث عن صادق تستمع اليه ، وتطبق كلامه ، ولا تأخذ الكلام ممن لم تتثبت من صدقه .

عن الامام (عليه السلام) يقول : قال عيسى بن مريم (عليه السلام) :

« خـذوا الحـق مـن أهـل الـبـاطـل ، ولا تـاخذوا الباطل من أهل الحق ، كونوا نقاد الـكلام ، فكم من ضلالة زخرفت بآية من كتاب الله ، كما زخرف الدرهم من النحاس

بالفضة المموهة ، النظر الى ذلك سواء ، البصراء به خبراء » .

أي يجب أن تفكر جيداً في كل ما تسمع ، وأن يكون الفكر رائدك الى الحق أنّى كان مصدره . ولا يكون اتباعك لأحد اتباعا أعمى ، بل عن وعي وانتقاد وتمحيص .

يقول زيد الشحّام : قلت للأمام أبي جعفر الباقر (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى : « فلينظر الانسان الى طعامه » ما معنى الطعام في الآية ؟ قال : « علمه الذي يأخذه ، ممن يأخذه » .

فاذا لم يكن من الصحيح تأكل اي طعام ، لانه ربما يكون فاسدا أو نجسا ، فمن الاولى لك الّا تأخذ اي العلم لانه ربما يكون علما ضارا ومنحرفا . والعلم أهم من طعام لانه طعام القلب والروح .

وفي حديث اخر يفسر الامام (عليه السلام) قوله تعالى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » قال : « والله ما صلّوا لهم ولا صاموا ، ولكن أطاعوهم في معصية الله » .

ويقول ذي القرنين في وصية له :

« لا تتعلم العلم ممن لم ينتفع به ، فأن من لم ينفعه علمه لا ينفعك » .

أي لا تتبع العالم الذي يقول ولا يفعل مهما كان علمه غزيرا ، ولكن اتبع العالم العامل الذي يأتمر بالمعروف قبل أن يأمر به وينتهي عن المنكر قبل أن ينهى عنه .

وبكلمة ان الاسلام يريد للمجتمع المسلم أن ينتخب قيادته بحريته الكاملة . ولكن بعد أن يكلف هذا المجتمع بمسئولية ، ويكلف الطلائع الرسالية لهذا المجتمع بمسئولية اخرى .

أمّا مسؤولية المجتمع ألا يستمعوا الى كل ناطق بل يبحثوا عمن يتحدث معهم حديث صدق وهدى . واكثر ما ضلل الجماهير هي دعايات الحكام الفاسقين ، فالحاكم الفاسق يأتي الى الصحفي مثلا ويغريه بالمال ، لينشر له صورة وهويصلي ، وصورة وهو يعطي أكلا لطفل ، وصورة وهويزور بيت فقير وكما هومعروف فأموال البترول كثيرة تسع فساد الحكام ، وفتات الأموال سوف تصل الى الصحافيين المأجورين الذين يبيعون دينهم ودنياهم لدنيا غيرهم ، ويشترون سخط الخالق برضا المخلوق . ويقع المجتمع

وخصوصا النشىء الجديد ضحية هذا الزيف والدجل الاعلامي ، فيعتقدون بالرئيس المناضل الذي هو في واقع الأمر عميل جاهل ومجرم .

وأضافة الىٰ وسائل الأعلام ، يبعث بالأموال هنا وهناك ليشتري بها ضمائر بعض ضعاف النفوس من علماء الدين ، ووعاظ السلاطين ، الذين لا يكتفون بالسكوت عن جرائم الحكام وفضائحهم ، بل ينبرون لتبرير أعمالهم ، وإضفاء الصفة الشرعية عليها .

وكذلك بعض الشعراء الذين يتبعهم الغاوون ، وترى أنهم في كل وادٍ يهيمون ، كما جاء وصفهم في القرآن الحكيم .

وأما مسؤولية الطلائع الرسالية ، فهي العمل المكثف والجاد لتوعية الجماهير ، بمختلف الوسائل الأعلامية المتاحة ، والسعي الدائب لإختراق الحجب التي يصطنعها الأعلام المزيف ليحول بين الجماهير ورؤية الحقائق بوضوح .

كما أنّ عليهم القيام بفضح العناصر المأجورة التي لا يهمها فساد المجتمع ما دامت تحصل عبر ذلك على منافعها الشخصية .

وإذا قام العلماء بمسؤوليتهم ، وقامت الجماهير بمسؤوليتها في إتباع العلماء والأنضواء تحت رايتهم ، متسلحة بالوعي والبصيرة ، آنئذ نرىٰ كيف ان الطغاة يتساقطون كأوراق الخريف ، وإذ ذاك يشرق العالم بنور الله ، نور الحق والعدل والحرية .

الفصل السادس



التطهير الذاتي

هناك أربعة عوامل رئيسية تجعل المجتمع الأسلامي ، مجتمعاً حياً . أولها التطهير الذاتي .

المجتمع الاسلامي مجتمع يطهر بعضه بعضاً كماء النهر ، فهو مجتمع شاهد على نفسه وشاهد على غيره ، والأنظمة الاسلامية التي تجعل هذا المجتمع يطهر نفسه بنفسه كثيرة ، ولكن قبل ان نتحدث عن هذه الأنظمة ، نتطرق وبشكل موجز الى عوامل الزمن والغفلة وتراكمات الجهل ، وحالات الارهاق والتعب وما أشبه التي تعترض مسيرة المجتمع فتبعده عن قيمه وعن الاستعداد للصراع مع اعدائه .

المجتمعات كما الفرد تملك شيئا جامعا لسائر صفاتها . فالانسان يملك الروح ، والمجتمعات أيضا تملك الروح ، والروح الاجتماعية حسب لغة علماء الاجتماع هي الصبغة العامة للمجتمع ، وهي خلاصة تفاعل السمات الداخلية والخارجية فيه .

وهذه الروح قد يصيبها التعب والأرهاق كما يصاب الانسان بالكسل والضجر ، ويعتريه الرهق والعجز .

لذلك نرى أن الكثير من المجتمعات في التأريخ لا تعيش الآ مدة قصيرة قد لا تتجاوز نصف قرن من الزمان ، وبعد ذلك تبدأ رحلة الأنهيار . هذه المجتمعات أنما تموت لانها تفتقد لعامل الديمومة الأساسي وهو وجود طريق لتصفية الرواسب السلبية التي تخلفها المشاكل التي تعتريها . كالمريض الذي يشكو من تعطل كليته عن العمل ، لا يمر دمه بعملية تصفية تبعد عنه السموم ، لذلك لا يستطيع هذا الأنسان ان يعيش طويلاً ، لأن

الدم سيسمّ كل الجسم ، وهكذا المجتمع يتعرض بسبب الصراعات والتناقضات وظروف الجهل والغفلة الى تراكم السموم في عروقه ، وهذه السموم يجب ان تخرج عبر قنوات معينة بعيدا عن هذا المجتمع .

فمثلاً : المجتمعات الديكتاتورية تنفجر مرة واحدة ، والسبب ان رواسبها تبقى في عروقها ، اذ لا يوجد فيها جهاز تصفية لنقل هذه الرواسب بعيدا عن المجتمع ، فتتجمع هذه الرواسب في المجتمع وتقضي عليه . أما المجتمعات التي تملك نوعا من الحرية ، فهي تعيش فترة أطول ، لأن وجود الحرية يساعد على امتصاص النقمة وتصحيح المسيرة وتصفية الرواسب السامة وتنقية حياة المجتمع .

الأنظمة التي تعيد للمجتمع حيوته :

والاسلام يؤكد على مجموعة أنظمة تساعد على تجدد دم المجتمع وتعيد اليه حيويته ونقائه ، ومن هذه الأنظمة :

أولا : نظام تعليم الجاهل ، وتحمل العلماء مسؤولية علمهم .

يؤكد الاسلام على العلماء أن يتحملوا مسؤولية ويبينوا للناس علمهم ، بكل الأساليب الممكنة ، ذلك لأن العلم حياة القلوب وهو الذي يجدد دم المجتمع ، ويسبب تصفية رواسب الجهل والغفلة عنه . يقول الحديث المأثور عن رسول الله (ص) :

« أيما رجل آتاه الله علما فكتمه وهو يعلمه لقي الله عزوجل يوم القيامة ملجما بلجام من نار» .

فاذا كنت تعلم حقيقة واحدة فكتمتها ولم تنشرها بين الناس ، فانك سوف تقف بين يدي الله ملجم بلجام من نار . وفي حديث آخر يقول رسول الله (ص) :

« تناصحوا في العلم ، فان خيانة أحدكم في علمه أشد من خيانته في ماله ، وان الله مسائلكم يوم القيامة » .

فحينما يكون لأحد من الناس عليك مال ، ثم لا ترده اليه فان تلك خيانة عظيمة ، ولكن اذا كان عندك علم وهو يطالبك به فلا تعطيه فأن هذه خيانة أعظم لأن ضررها

على المجتمع أكبر. فالعلم ليس حكرا على أحد، وانما هو للناس جميعا، فالعلم أمانة عند صاحبه يجب ان يؤديها الى أهلها، ولا يحتفظ به لنفسه والا أعتبر خائنا، ومرتكبا للظلم بحق جميع أفراد المجتمع.

ومع ان الأسلام يؤمن بتنظيم نشر العلم عبر طرق ووسائل مثل الجامعات والمدارس، والمساجد، والمجالس والاحتفالات، الا أنه يؤمن أيضا بأسلوب آخر لنشر العلم، وهو أسلوب النشر الذاتي، اي أن يكون العلم كالنور ينتشر دون أن يحتاج الى دافع لنشره، والمجتمع اذا التزم بهذا المنهج وهو أن كل انسان عنده علم ينشره في كل مكان وبكل وسيلة ممكنة. فلا يبقى في المجتمع الاسلامي جاهل واحد، لأن العلم يتدفق اليه من جميع جوانبه، وبهذا الأسلوب يحافظ الاسلام على نقاء المجتمع من شوائب الجهل.

ثانيا: نظام التذكير.

إن تقادم الزمن على الانسان ينسيه معلوماته، فيخفت نور معرفته، ويكون بحاجة ماسة الى التذكير لتنشيط معارفه واحيائها من جديد، وقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يستخدم أسلوب الوعظ حتى مع كبار الصحابة كأبي ذر وابن مسعود، وقد جاء في القرآن الحكيم أمر صريح له بذلك:

«فذكّر انما انت مذكر لست عليهم بمصيطر»

(٢١ / الغاشية)

ثالثا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

للانسان شعور فطري بضرورة التوافق مع الناس المحيطين به. فهو يلبس ما يلبسه الآخرون، ويتحدث باللغة التي يتحدثون بها، ويقوم بالاعمال التي يراها الناس صحيحة. والاسلام يثير هذا الحس، ويوجهه باتجاه تطبيق القيم الأسلامية.

انك اذا عملت عملا سيئا ثم خرجت الى الشارع فرأيت الناس ينظرون اليك شزرا وكل من رآك يؤنبك. وعدت الى البيت لتسمع نفس الكلمات من زوجتك ومن أبيك واخوانك، فمن المستحيل أن تكرر نفس العمل. وقد استخدم الرسول (ص) هذا الحس، كعقاب رادع لبعض المتخلفين عن الجهاد.

حدث أن ثلاثة من الصحابة تخلفوا عن الجهاد ، فلما عاد رسول الله عليه الصلاة والسلام من الغزوة وعلم بخبرهم أمر جميع الناس بأن يقاطعوهم ، يقول أحدهم : ذهبت الى البيت فأشاحت زوجتي بوجهها عني وأردت أن أتحدث مع أولادي فلم يصغوا الي ، وذهبت الى صديق فتحدثت معه فلم يرد عليّ وذهبت الى السوق حتى أشتري شيئا فلم يرض أحد ان يبيعني .. يقول فضاقت الدنيا عليّ . ويقول القرآن الحكيم في وصفهم :

« وضاقت عليكم الارض بما رحبت »

(٢٥ / التوبة)

لأنهم وجدوا مقاطعة اجتماعية ، ولأن احساسهم الذاتي بضرورة التوافق الاجتماعي مع الآخرين أرهقهم ، فاضطروا للعودة الى الطريق الأجتماعي وتابوا فتاب الله عليهم .

وهكذا المجتمع الأسلامي اليوم ، فحينما ينحرف أحد عن القيم الاسلامية ، فان على الآخرين أن يؤنبوه ويظهروا عدم الرضا عنه حتى يدفعوه بالاتجاه الصحيح .

رابعا : التأكيد على ضرورة العمل وفق السنّة .

لان البدعة هي حاجز أمام الانسان يحجب نور الحقيقة ، وفي الحديث المعروف عن رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول :

« عليكم بسنة ، فعمل قليل في سنة خير من عمل كثير في بدعة » .

فالاتجاه العام للمجتمع لا بد أن يحفظ ويجب أن يتوافق الانسان مع ذلك الاتجاه وأن لا ينحرف عن دورة المجتمع .

خامسا : التأكيد على ضرورة تحمّل الانسان مسؤوليته في المجتمع .

يقول الحديث الشريف :

« كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » .

المسؤولية الاجتماعية غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، انها تعني قيام الانسان بدور الأب بالنسبة الى الأسرة ، وبدور المدبر بالنسبة الى المصنع وبدور القائد بالنسبة الى المجتمع ، فان القائد لا ينصح فقط ، وانما يصنع واقعا . والقائد اذا رأى مجتمعه عاجزا

اقتصاديا ، فانه يضع برنامجا اقتصاديا لكي يرفع عن مجتمعه العجز ، والأب حينما يخشى على ابنه من الانحراف فانه يزوجه ، والزواج ليس كلاما وانما هو عمل ، وهكذا يفرض الاسلام على أبناء المجتمع الاسلامي أن يتحملوا مسؤوليتهم تجاه الآخرين .

سادسا : وضع القوانين الرادعة للمنحرفين .

حينما يصل الأنحراف الى رأس المجتمع أي الى القيادة فحينذاك تجب الثورة ، والثورة الرسالية تعني أنك حينما تجد انحرافا في المجتمع فعليك أن تسعى لاصلاحه بالكلمة الشجاعة ، فأن لم تنفع فبيدك ، فحاول أن تقاتل المنحرفين ، حتى لو أدّى ذلك الى استشهادك لان ذلك سيحدث موجة من المقاومة داخل المجتمع . ان القوانين الأسلامية التي تقول بأن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطانٍ جائر ، وأن الدفاع عن المظلومين والمستضعفين واجب الانسان المسلم ، كما جاء في الحديث :

« من رأى سلطانا جائرا فلم يغير ما عليه بلسانه أو بيده حقّ لله ان يدخله مدخله » .

ان هذه القوانين انما هي لأجل مقاومة الانحراف في المجتمع الاسلامي .

وفي المجتمع المنحرف لا يمكن ان ينطلق كل الناس لمقاومة الانحراف ، وانما تبدأ المقاومة من بعض العناصر الذين يقومون بدور انفرادي وتجمعات صغيرة ، ثم تنتشر المقاومة . والمجتمع الذي توجد فيه فئة يقاومون الانحراف بالعنف ، كما يوجد فيه حس اجتماعي عام ، على أساسه يقوم كل الناس بواجبهم فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويتحملون مسئوليتهم الاجتماعية ، ويقومون بأرشاد الجاهل ، وتذكرة الغافل ، ان هذا المجتمع سوف يكون مجتمعا ذاتي التطهير ، يتبادل الوصية ، فكل انسان يصبح متحدثا بالوصية وسامعا لوصية الآخرين ، وكل واحد يشجع الآخر على عمل الخير ، حتى ليشبه المجتمع بناء يستند كل حجر فيه على غيره ولا يقوم بمفرده .

واذا وجدنا اليوم مجتمعنا ضعيفا وغير متفاعل مع نفسه ، وغير مقاوم لأعدائه ، فلا بد ان نعلم انه يفتقر الى تلك الأنظمة التي وضعها الاسلام من أجل تنقية المجتمع .

التطلع لنشر العدالة في الأرض

يتطلع كل مجتمع نحو تحقيق شيء يجسد قضيته ، وانما قدرة هذا المجتمع أو ذاك تعتمد على مدى فاعلية وسعة القضية التي يحملها ، فكلما كانت القضية اوسع مدى وأكبر أهمية عند ابناء المجتمع ، كانت حيوية المجتمع اكثر. أما اذا كانت القضية محدودة زمنيا أو جغرافيا أو كانت غير متبلورة في ذهنية ابناء المجتمع فان المجتمع سيصبح أقل حيوية ونشاطا .

الانسان ابن اهدافه :

الأنسان كفرد كتلة ضخمة من الطاقات الكامنة وحينما يتصل بأنسان آخر، تتضاعف طاقاته وامكاناته ، وهكذا يملك المجتمع امكانات كبيرة لا يتصور مداها . والعملية الحضارية هي تفجير طاقات الانسان كفرد وكمجتمع وتحويلها الى امكانات فعلية .

ونتساءل : أليس إنسان اليوم هو انسان ما قبل ألوف أو ملايين السنين ، حينما هبط أول انسان على وجه كوكبنا ، فلماذا بقي احقابا عديدة ، يعيش في الكهوف ولم يفجّر طاقاته وامكاناته وبقي يخشى الحيوانات المفترسة ؟

والجواب ، لأنه لم يكن يجد الحاجة الى ذلك في نفسه ، فقدرات الانسان أنما تتفجر حينما يجد صاحبها الحاجة الفعلية اليها . فالحاجة أم الاختراع ، وأم العلم ، والانسان لا

يحركه شيء الا حينما يكون بحاجة اليه ، فاكتشافه للقمح كان بسبب حاجته اليه ليسد به جوعه ، واكتشافه لطريقة بناء البيوت كان بسبب حاجته اليها ليحتمي بها من الحر والبرد والشمس والرياح ، واكتشافه للسلاح كان بسبب حاجته اليه ليدافع عن نفسه ضد العدو وهكذا ..

ان بعض الناس حاجاتهم في الحياة محدودة ، لذلك حينما يصلون اليها ، تنتهي دوافعهم النفسية للتقدم . فهم لا يريدون من الدنيا إلّا العفاف والكفاف .. قرصين من الخبز ، وطمرين من اللباس ، وشبرين من الأرض . إنّ مثل هؤلاء الناس لا يكونون عادة نشطين ، لانهم يعملون من أجل أن يوفروا هذه الحاجات البسيطة ، وحينما يحصلون عليها ، تتجمد طاقاتهم التي تحولت الى امكانات فعلية .

الحضارات وليدة الحاجة :

والحضارات في التاريخ انما نمت في البلاد الباردة جدا ، أو في البلاد التي كانت قريبة من الغابات حسب ما يذكره المؤرخون ، وبالتالي حيث كان الخطر فيها على الانسان كبيرا . والسبب لأن شعور الانسان بالخطر كان يولد لديه حاجات شديدة تدفعه الى العمل .

اما في المناطق ذات المناخ المعتدل ، والتي كان الانسان يجد فيها حاجياته ميسّرة كالطعام والمأوى والراحة ، لذلك لم يكن يخشى من أخطار أو من ظروف الطقس الصعبة ، ولم يكن يجهد ليقي نفسه منها .

ان الانسان الذي يكتفي بلقمة العيش ومكان يرتاح فيه ، لا يمكن أن يكون بانيا لحضارة ، لأنه لا يجد في نفسه حاجة الى التحرك . اما الانسان الذي يحمل هدفا كبيرا في حياته ، ترى انه يتحرك ليلاً ونهارا ، ويجتهد ويستنفد طاقاته ، ويفجر امكانياته ، من أجل الوصول الى هدفه .

ولذلك جاء في الحديث الشريف :

« المرء يطير بهمته كما يطير الطائر بجناحيه » .

فكلما كانت همة الانسان وتطلعاته عالية ، كلما كانت حركته وحيويته وامكاناته اكبر . وهذه هي المعادلة الحضارية في العالم .

تطلع المجتمع الرسالي :

من السمات الأساسية للمجتمع الأسلامي التي تجعله مجتمعاً حيوياً هي أنه مجتمع يحمّل نفسه مسؤولية نشر العدالة على وجه البسيطة كلها ، وهداية البشرية جمعاء الى الطريق السوي حيث الفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة .

فالمجتمع الرسالي مجتمع مسئول عن كل انسان ينام ليله طاويا على جوع ، وعن كل انسان يقض البرد مضجعه ، وكل انسان يلفه الخوف والحرمان ، ومسئول عن الأ ربعمائة مليون انسان يعيشون الآن في العالم دون مستوى التغذية التي يحددها الأطباء ، ومسئول عن الشعب الكمبودي حينما يقتل منه مليوني انسان ، ومسئول عن شعوب امريكا اللاتينية وعن الهنود الحمر الذين كان البيض يصطادونهم كما يصطادون الحيوانات المتوحشة ، ومسؤول عن الشعب الافريقي الذي تُنهب موارده بأنتظام ..

لذلك يتحول الشعور بهذه المسئولية الى حاجة نفسية وهدف اجتماعي . وحينما تكون الحاجة النفسية عميقة ، والهدف الاجتماعي واضحا ، تتحرك الامكانات من القوة الى الفعل ، ويتحرك المجتمع الى تحقيق اهدافه ، وبهذه المعادلة يتحول المجتمع الى مجتمع ديناميكي حيوي .

ان المجتمع الاسلامي يحمل رسالة ، ورسالة هذا المجتمع ليست عنصرية أو حزبية أو قومية . انه لا يفكر في نفسه كيف ينتصر على المجتمعات الأخرىٰ لكي يعيش افضل عيشة ، وتكون له السلطة عليهم . انه يحمل قضية مستضعفي العالم ، ويندفع نحو تحرير الانسان من الجهل والعبودية ، ومن نوازع الحقد والحسد ، ودواعي الكسل والفشل ، واغلال المادة ، ثم يسعى من أجل عمارة الارض وتحقيق سيطرة البشر على موارد الطبيعية ليستخدمها لمصلحته . ومكافحة الفقر والضعف والاستسلام للطبيعة .

وما أوامر الجهاد ، وحكمة الشهادة ، ومفهوم الزهد في الاسلام ، الا جزءا من

التركيبة الداخلية لهذا المجتمع ، فالاسلام يبني المجتمع بحيث يكون قادرا على حمل هذه الرسالة العظيمة . ومن دون ذلك لا يمكن للمجتمع الأسلامي ان يحقق هذه الاهداف .

ان الاسلام يأمر بالجهاد في أربعين موردا في القرآن الحكيم ، ويأمر بالقتال في أربعين موردا آخر ، والجهاد والقتال كلمتان مترادفتان . بينما يتحدث في عشرين مورداً تقريباً عن الشهادة ، وفي موارد كثيرة أخرى يتحدث عما يرتبط بذلك ، كالاعداد والثبات .

وبالتالي فأن آيات قرآنية كثيرة تتحدث مباشرة أو بصورة غير مباشرة عن الجهاد والقتال ، وعن التضحية والانفاق ، وعن تحمل مسئولية المستضعفين في الارض . وكلها تهدف الى بناء المجتمع الاسلامي على اساس حمل هذه الرسالة العالمية ، رسالة انقاذ الانسان من أغلاله الاجتماعية والنفسية ، ودفعه الى الامام بأتجاه تسخير الطبيعة لمصلحته .

وحينما نتدبر في القرآن الحكيم نجد سورة كاملة تتحدث عن خصائص المجتمع الاسلامي ، تلك هي سورة النساء .

ففي البدء تتحدث السورة عن الأسرة كخلية طبيعية وحضارية يقررها الاسلام ، ثم تتحدث عن العلاقات الاجتماعية ، ثم عن المسجد والطهارة والصلاة ، وعن كل ما يربط الانسان بأخيه الانسان ، ثم تتحدث عن الجهاد ، ليس فقط جهاد المسلمين ضد الاعداء الذين يبادرون بالهجوم المسلح على المجتمع الاسلامي ، وإنما الجهاد الشامل لحمل رسالة الاسلام الى كافة المستضعفين في الارض . وهكذا يتصدر الجهاد في سبيل الله قائمة خصائص المجتمع الاسلامي .

وهذه السورة دليل على واقع التطلع عند المجتمع الاسلامي وانه ليس مجتمعا منغلقا على نفسه ، مهتما بمصالحه الذاتية ، وانما هو مجتمع يحمل رسالته الى العالم ، ولا يفكر في نفسه بقدر ما يفكر في الآخرين .

كما تبين سورة النساء في بعض آياتها الكريمة ضرورة الجهاد ، والقيام بالعمل المسلح ضد الطغاة الذين يريدون خنق الانسان وكبت حرياته ، وبالتالي استغلاله .

يقول تعالى :

« يأأيها الذين آمنوا خذوا حذركم ، فانفروا ثبات أو انفروا جميعا » (٧١ / النساء)

هنا يأمر الأسلام بالأعداد ويقول : استعدوا للقيام بالعمل المسلح وللمسيرة الجهادية ، ولا تبقوا في حدودكم تفكرون في بلدكم وانفسكم فقط . والنفر ليس بالضرورة ان يكون جماعيا ، فربما لا تكون الظروف تسمح لكل الناس المتواجدين في الدولة الاسلامية بالتحرك . آنئذ يجب عليك ان تأخذ مجموعة من اخوتك وتنفر معهم .. « انفروا ثبات أو انفروا جميعا » — أي انفروا كأفراد أو كأمة — .

« وان منكم لمن ليبطئن فإن اصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولنّ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما »

(٧٢ - ٧٣ / النساء)

هاتان الآيتان تبينان حالة الأفراد الشاذين الذين لا يريدون تحمل مسئولياتهم الانسانية ، بل يريدون لمجتمعهم الانغلاق ، ويريدون موارد بلدهم ان تكون لانفسهم فقط .

ولكن هؤلاء ليسوا منكم ، انتم المؤمنون يجب ان تتحركوا وتنفروا ، ولكن من أجل ماذا ؟ يجيب القرآن قائلا :

« فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما »

(٧٤ / النساء)

هذه هي مسيرة الانسان المؤمن ، انه يحمل رسالته على كتفه ويتحرك في العالم ليقاتل في سبيل الله ، لله وحده وليس لأي شيء آخر ، ويبيع نفسه لله لأنه يتعامل مع الله في صفقة رابحة على اساس ان يدفع نفسه ويأخذ من الله الجنة . يقول تعالى :

« ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة »

(١١١ / التوبة)

ونتساءل ما هو سبيل الله في الواقع الخارجي ؟ فيقول ربنا :

« وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من

لدنك نصيرا » (٧٥ / النساء)

من أجل أن تنقذوا المستضعفين الذين ينتشرون في آفاق الأ رض ، ويدعون الله أن ينقذهم عن طريق بعث ولي لهم ، أي قائد ، وبعث نصير لهم ، أي جنود .

ان الله سبحانه وتعالى يأمر المجتمع الاسلامي ان يقوم بواجبه تجاه كل المستضعفين في الارض . ونتسائل ايضا ضد من تجري الحرب ؟ فيقول ربنا :

« الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا اولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا » (٧٦ / النساء)

فالله سبحانه يأمرنا ان نحارب من أجل المستضعفين ضد اولياء الشيطان الذين يدعمون أنظمة الطاغوت ويقاتلون من أجله .

الصراع من اجل تصفية العناصر المنافقة :

ان التحرك عبر الارض لانقاذ المستضعفين رسالة هامة يحملها المجتمع الرسالي ، ولكن هناك ناحية أخرى تشير اليها سورة النساء أيضا ، وهي ناحية الصراع الداخلي ضد المنافقين ، والذي نبينه عبر النقاط التالية :

أولا :

المنافقون لا يجيدون عادة القتال ، لأن خطتهم هي التسلل الى مواقع القيادة في المجتمع الاسلامي وهدمه من الداخل ، ولكن الاسلام يأمرنا ان نقاتلهم ونجاهدهم .

يقول القرآن الحكيم مؤكدا على هذه الفكرة :

« فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ، ودوّا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ، فلا تتخذوا منهم اولياء حتى يهاجروا في سبيل الله ، فإن تولّوا فخذوهم وآقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا » (٨٨ - ٨٩ / النساء)

ثانيا :

ان المنافقين بسبب نفاقهم وتظاهرهم بالدين ، يخدعون بعض البسطاء من المسلمين ، فيقولون عنهم ، لماذا تقاتلونهم .. انهم مواطنون شرفاء لا يطالبون الا بالحرية وان يسود الأمن في البلد .

ولكن القرآن يوبخنا على مثل هذا الموقف ويقول :

« فما لكم في المنافقين فئتين »

أي لماذا انقسمتم في قضية المنافقين على انفسكم واصبحتم فريقين ، ففريق يؤيد قتل المنافقين واستئصالهم ، وفريق لا يؤيد ذلك . بينما الله سبحانه وتعالى قد حدد الموقف من المنافقين اذ يقول :

« والله اركسهم بما كسبوا »

ان النفاق جريمة كبرى ، ولا نحتاج بعد النفاق الى اثبات جريمة أخرى عليهم .

ثالثا :

يبين القرآن قضية أخرى وهي :

« أتريدون أن تهدوا من أضل الله »

ذلك لأن بعض الناس يقولون انه من الممكن ان يهتدي المنافقون وان يعودوا الى رشدهم . ولكن بعد وضوح البينة ، وانتشار الوعي ، إذا وجدنا انسانا ينافق ويقوم بالدعوة الى اسقاط النظام الاسلامي ، والى تحطيم الكيان الاجتماعي للأمة الاسلامية ، فان من الواجب قتاله لأنه من الذين أضلهم الله .

« ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً »

رابعا :

يقول القرآن الحكيم :

« ودوا لو تكفرون كما كفروا »

هؤلاء المنافقون يريدون أن يعيدوكم الى الكفر ، وأن يعيدوا النظام الجاهلي البائس الى بلادكم ، لانهم متأثرون بالثقافة الاجنبية ، فهم غرباء عن مجتمعكم لذلك ينبغي عليكم أن تقاتلوهم .

ان المجتمع الاسلامي ، هو مجتمع الصراع والجهاد ، وقد نستطيع ان نقول انه مجتمع العنف الرسالي ، انه عنيف ولكن ليس من أجل نفسه أو من أجل الطاغوت ، أو من أجل الرأسمال والرأسمالية ، أو من أجل الفساد والمفسدين ، كلا ، وانما هو عنيف من أجل المستضعفين ، ومن أجل الرسالة والقيم . لذلك فهو لا يحدد مواقفه تجاه نفسه أو تجاه الآخرين حسب المصالح الذاتية . وهو أيضا لا يهادن ولا يساوم .

فاذا كان داخل المجتمع الاسلامي مجموعة من المنافقين ، فلا يجوز لهذا المجتمع ان يهادنهم بأسم انهم مواطنون ، فاذا كان البلد بلدا مبدئيا رساليا يؤمن بالقرآن وبالاسلام ، فالذي لا يؤمن بالقرآن ولا بقيادة الاسلام ، فهو غريب أجنبي حتى لو كان في هذا البلد عشرات السنين . فالايمان هو الذي يربط أبناء المجتمع الواحد بعضهم ببعض ، والاخوة الحقيقية هي أخوة الايمان ، لا اخوة الدم أو التراب أو المصالح . لذلك فان القرآن الحكيم يبين هذه السمة في المجتمع الاسلامي ، وهي سمة الجهاد حتى استئصال شأفة المنافقين .

الطاعة للقيادة الرشيدة

قلنا في الدرس السابق ان تحرك المجتمع وعطاءه يكون بحجم الرسالة التي يحملها ، وبمقدار الشعور بأهميتها والاحساس بوجوب تحملها ، وهذا من أبرز الأسباب والعوامل المؤدية الى فاعلية المجتمع الاسلامي وحيويته . الا أن ذلك ليس العامل الوحيد ، وانما هناك عوامل أخرى أيضا .

وقبل أن نبين تلك العوامل لا بد ان نعرف بأن بياننا لهذه العوامل يستهدف أمرين :

الاول :

قياس أنفسنا ومجتمعاتنا بما يجب أن يكون عليه المجتمع الاسلامي لكي نعرف ما أذا كان مجتمعنا الذي ننتمي اليه مجتمعا اسلاميا فعلا أم أنه لا يزال بعيدا عن سمات المجتمع الاسلامي .

الثاني :

هو السعي من أجل مزيد من الاقتراب الى قيم المجتمع الأسلامي وصفاته ، وبالتالي السعي من أجل تطبيق الاسلام وبناء الحضارة الاسلامية ، وأقامة الحكومة الاسلامية التي هي تجسيد لحكم الله في الأرض ، وذلك لا يكون عن طريق الشعارات والتمنيات والادعاءات ، وإنما عن طريق ايجاد ذلك المجتمع الاسلامي المتكامل ولو على نطاق صغير وضمن أفراد قلائل .

الطاعة والفاعلية :

من أبرز العوامل التي تؤدي الى حيوية المجتمع الاسلامي ، وبالتالي تفوقه على سائر المجتمعات ومقدرته الذاتية على الانتصار عاجلا أم آجلا على أعدائه ، هو وجود الطاعة في هذا المجتمع . والطاعة المطلوبة هي الطاعة النابعة من التسليم الذاتي والقناعة الواعية وقهر الشهوات والأنانيات ، وتبديلها بطاعة العقل وطاعة من يمثل العقل ويجسده ، أي طاعة الله ، وطاعة من هو خليفة الله في الأرض وهو الامام أو نائبه .

والسؤال هو : لماذا وكيف تؤثر الطاعة بهذا المفهوم ، وعلى هذا المستوى في حيوية المجتمع وفاعليته وحركته الذاتية ؟

قبل الاجابة على هذا السؤال نضرب مثالين من واقعنا الذي نعيشه .

المثال الأول :

هو أننا في المزارع التي تروي بالأساليب الحديثة ، حيث توضع أنابيب لنقل المياه من منابعها الى المزروعات فتعطي كل نبتة المقدار المناسب من الماء ، لا نحتاج الآ الى المقدار الكافي الذي تحتاجه المزروعات . بينما الطرق البدائية للسقي ، تضطرنا الى خسارة حوالي ٧٠٪ من الماء عبر تسربه في الأرض وتبخره في الهواء ، ليصل فقط ٣٠٪ من أصل المياه إلى المزروعات .

ان هذا المثال يعني ان تنظيم الموارد وتوجيهها ومنع التلف والخسارات ضمان لتحقيق أكبر قدر من الانتاج بأقل قدر ممكن من الطاقة .

المثال الثاني :

نأخذه من واقع الرياضة ، فالذين يتدربون على الركض ، يشرف عليهم مدربون يحددون لهم حركات أيديهم وأرجلهم وطريقة جريهم . فحينما يقول المدرب للعداء أرفع

رجلك هكذا وضعها هكذا ، ووجه حركات يديك هكذا ، وبالتالي يتمكن عن طريق استخدام فيزياء الحركة ، من أن تندفع الى الأمام بسرعة كبيرة مع بذل طاقات قليلة .

هذين المثالين البسيطين يبينان لنا بأن تنظيم الطاقة هو من أكبر عوامل النجاح وهذا هو الطريق المستقيم الذي يأمرنا به الاسلام ، وذلك عبر سنن وقوانين شرعها . والتي منها :

أ / حسن الظن :

فحينما تحسن ظنك بأخيك المؤمن ، وتستمع اليه استماع واع وليس استماع ممار ومجادل ، فأن هذا يساعد على فهمك له وفهمه لك بصورة ميسورة وسريعة وبالتالي توفير الوقت الذي يضيع بالمجادلة .

ب / ضبط المواعيد :

لضبط الميعاد أثر بالغ في تقليل الطاقات المصروفة ، ومضاعفة الانتاج . فكثير من الأوقات تذهب سدى لعدم ضبط الموعد وعدم الوفاء بالوعد . وهذه مسئلة مهمة ، لذلك نرى ان القرآن الحكيم يمدح النبي اسماعيل (عليه السلام) لأنه كان صادق الوعد .

« واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد »

(٥٤ / مريم)

فيذكر الله بأن اسماعيل (ع) قد تواعد مع أحد في مكان فوقف ينتظره فيه ، أما ذلك فقد نسي الوعد وذهب لأمره ، وبعد سنة مر ذلك الرجل بنفس المكان واذا به يجد النبي اسماعيل (ع) واقفا ينتظره ، فقال لماذا أنت واقف هنا ؟ قال أو لم تواعدني أن أبقى هنا الى أن تأتي لمقابلتي ؟ قال منذ سنة وأنت واقف في هذا المكان ؟! قال نعم . ان الله أمرنا أن نفي بالوعد .

ج / الوفاء بالعهد :

لولا الثقة الاجتماعية ، ولولا أن يقوم كل انسان بدوره في ايفاء عهوده مع الآخرين ، وأداء أمانات الناس التي لديه ، اذن لم يبق في المجتمع شيء يمكن أن يربط أبناءه مع بعضهم البعض ، ولو كان الوفاء بالعهد شيئا عاما بين الناس لما احتجنا الى هذه الطاقات الهائلة التي تذهب هدرا ، بسبب الروتين الذي نراه في الدوائر الحكومية وغيرها .

د / القيادة المطاعة :

أهم كل هذه الامور ، هي القيادة المطاعة بأذن الله ، التي تستطيع ان تستقطب طاقات الناس وتعبئها وتوجهها وتحقق مكاسب هائلة بجهد بسيط نسبيا اذا قسناها مع تلك المكاسب ، كيف ذلك ؟ قد تجد في سورة النساء اجابة على هذا السؤال علما بأن هذه السورة هي التي سبق وأن قلنا بأنها مخصصة لبيان التجمع الاسلامي وسماته ، يقول القرآن الحكيم :

« وما أرسلنا من رسول إلّا ليطاع بأذن الله ولو أنهم إذْ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ، فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليما . ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلّا قليل منهم ، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً ، واذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ، ولهديناهم صراطاً مستقيماً . ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أُولئك رفيقاً ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً »

(٦٤ - ٧٠ / النساء)

بالتدبر في هذه الآيات الكريمة ، نجد عدة قضايا هامة في غاية المتانة والدقة لا

يستطيع النظر العابر ان يلاحظها . يقول الله سبحانه وتعالى بأن وجود الرسول ليس للبركة فقط وانما للطاعة بصورة أساسية .

« وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله »

ولو كان الرسول موجودا ولم يطع ، فوجوده وعدمه سواء ولن ينفع الناس شيئا ، وكذلك كل من يمثل القيادة الشرعية .

إذن لا يكفي أن تقول أنا أنتمي الى الجهة الفلانية واتبع فلانا ، فهل أنت مع فلان وتتبعه حقاً ، أم تكتفي ببركة أسمه ، وهل أنت مع الجماعة الكذائية وتندمج معهم ، أم تكتفي بشعاراتهم . أن الأنتماء النظري من دون الطاعة الفعلية ، مرفوض في المفهوم الاسلامي .

والقرآن يضيف الى هذه الحقيقة فكرة أخرى حيث يقول :

« ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما »

أي ان القيادة الاسلامية يجب ان تكون مطاعة الى درجة ان الانسان حينما يقصر في واجباته الدينية ، ولا يطبق برامج هذه القيادة ، فلا يكفي أن يستغفر الله وحده وانما عليه ان يأتي الى القيادة ويستغفر الله عندها ، حتى يستغفر له القائد من تلك الذنوب ، وعند ذلك يكون احتمال الغفران واردا . انظروا .. حتى مغفرة الذنوب والتي تنبع من فضل الله سبحانه ورحمته فان القرآن يربطه بالقيادة . بعدئذ يقول : الطاعة المطلوبة ليست الطاعة القشرية والخارجية فقط ، وانما يجب ان تكون نابعة من قناعة نفسية ، ومن رضا القلب .

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت (أي ضعفا وقلقا وعدم رضا) ويسلموا تسليما (تسليما نفسيا لأ وامر القيادة) »

ثم أن الطاعة للقيادة يجب الا تكون في القضايا البسيطة فقط ، ولا تكون فقط في تنظيم طاقاتك التي فجرتها حتى الآن في نفسك وأعطيتها من ذاتك ، وانما يجب أن تكون من أجل تفجير طاقات اضافية كامنة في نفسك ومن أجل ان تبلور شخصيتك ، ومن أجل

القيام بالأعمال العظيمة التي لا يمكنك القيام بها لوحدك ، وانما تتشجع بأمر القيادة على تنفيذها .

« ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا انفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا »

هذا هو مستوى طاعة القيادة ، فالقائد لو قال لك اقتل نفسك أو اخرج من بلدك فلا تتردد ، وان الذين يترددون عن تطبيق الاعمال العظيمة التي تأمرهم بها القيادة ، يعبرون بذلك عن اهتزازهم وضعف شخصيتهم وفي نهاية أمرهم سيصابون بالشر والضر . أما الذين يتبعون القائد حتى في الأ وامر الصعبة التي تحتاج الى أقصى حدود التضحية فان عاقبتهم ستكون خيرا ، « لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا » .

ثم يبين لنا القرآن جانبا آخر :

«واذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيماً ، ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً »

بالتدبر في هذه الآيات نعرف ان هذا المستوى من القيادة سوف يحقق للمجتمع ثلاثة مكاسب :

أولاً :

حينما يكون المجتمع بهذا المستوى من الطاعة فانه سوف يتقدم ، ويشمله من الله سبحانه وتعالى فضل كبير .

ثانياً :

ان هذا المجتمع سوف يكون على الطريقة السليمة وسيكون وعيه وعلمه ومعرفته في مستوى من النضج والبلورة بحيث تعصمه من الانزلاق والانحراف « ولهديناهم صراطا مستقيما » .

ثالثاً :

هذا في الدنيا أما في الآخرة فأن هذا المجتمع سيحشر « مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » .

رابعاً :

ثم يذكرنا القرآن الحكيم في الآية الأخيرة بأن مستوى الطاعة ليست بالأدعاء وانما هي قضية يعلمها الله سبحانه وتعالى « ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً » .

الحيوية والطاعة :

نستوحي من هذه الآيات الكريمة الاجابة على السؤال الذي طرحناه في بداية الدرس وهو :

ما هي العلاقة بين فاعلية المجتمع وحيويته ، وبين الطاعة التامة للقيادة ؟

يبين لنا القرآن الحكيم في هذه الآيات تلك العلاقة بالنقاط التالية :

أولاً :

أن كثيراً من طاقات المجتمع تذهب هدراً ، لعدم وجود تنظيم لها . وحتى مع وجود العاملين المخلصين الذين يقدمون أقصى ما لديهم في سبيل المصلحة العامة ، فان المجتمع غالباً لا يجني ثمار جهوده ، فقد يقوم أحدهم مثلاً بتاليف كتاب عن حياة الرسول الأعظم (ص) ، وبدل أن يقوم آخر بالتأليف حول حياة النبي ابراهيم (ع) فانه يذهب ويكتب كتابا في ذات الموضوع ، وهذا التكرار يسبب تبديداً للطاقات التي كان ينبغي أن تسير في خط متكامل .

وهناك نتائج هامة لهذا التكامل في عصرنا الراهن . ذلك ان الحضارة الحديثة مبنية على أساس التكامل ، فمن دونه لم يقدر ان يشترك ثلاثمائة ألف عالم في صنع المركبة الفضائية (ابولو) لغز القمر ، ولولا التنظيم الذي هو نتيجة الطاعة لما تكاملت جهود

هؤلاء العلماء وعلومهم .

ان القيادات الاسلامية توفر للمجتمع الاسلامي المطيع لها تكاملية الجهود والطاقات التـي تـذهـب هدرا في الصراعات الاجتماعية ، فكثيرا من طاقات المجتمع تذهب هباء بسبب تحول التنافس البنّـاء الى صراع عدواني ، فترىٰ كل جناح وكل جبهة وكل حزب يحاول ايقاف الجناح والجبهة والحزب الاخر .

ومع الأسف أننا اذا نظرنا الى واقع العالم الاسلامي اليوم ، والىٰ المجتمعات التي تسمّى بالاسلامية والتي هي ابعد ما تكون عن الاسلام ، نرىٰ كم هي الطاقات التي تبدد في الصراعات الداخلية ، سواء الصراع الذي يبدأ بين زميلين في المدرسة ، أو في العمل ، أو بين زوج وزوجته ، أو الصراع الذي يكبر ويكبر ليصبح بين تيارين اجتماعيين أو بين دولتين .

ان الصراعات الاجتماعية تبدأ صغيرة ، تبدأ بسبب نفوس متوترة ، ثم تتفجر ضمن صراعات اجتماعية كبيرة . والاسلام يريد أن يقضي على جذور الصراع الهدّام ويحوله الى تنافس بنّـاء .

يقول تعالى :

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم »

أي فيما اختلفوا فيه ، وبعدما حكمت يكون هناك جوّ من الراحة النفسية والسكينة القلبية « ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »

ان جهود المجتمع الاسلامي الذي يتمتع بهذا المستوى الأرفع من الطاعة للقيادة ، لا تتناقض مع بعضها البعض ، وانما تتحول صراعاته الى تنافس بناء متكامل ، وهذا يوفر للمجتمع المزيد من الطاعة . وحينما تتوفر هذه الطاقات وتحفظ من التشتت ، فانها تكون قادرة على بناء حضارة رسالية .

ثانياً :

الطاعة للقيادة توفر حالة من التركيز الشديد القادر على اختراق أعتى المشاكل والعقبات التي تحول بين المجتمع وانطلاقته الحضارية .

ان نور الشمس الموجود في كل مكان ، لا يستطيع أن يشعل الحرائق ، ولكن هذا النور اذا تركّز بمروره عبر عدسة ، ترىٰ أنّه يولد حرارة كبيرة ، وهذه الفكرة استخدمها اليونان القدماء في احراق سفن الأعداء ، وبصفة عامة فان تركيز أي شيء يسبب نتائج غير النتائج المتسببة من نفس الشيء في غير حالة التركيز .

ان المجتمعات المتخلفة الآن في العالم تستخدم فكرة الخطة الخمسية ، فتركز جهودها وتشد الأحزمة لمدة خمس سنوات ثم تلتحق بعد ذلك بركب الحضارة . ففي الخطة الخمسية الروسية ، ركّز الاتّحاد السوفياتي فيها جهود شعبه ، وبدأ مسيرته الحضارية التي نراها الآن ، وكذلك ألمانيا واليابان قبل الحرب وبعدها ، وكثير من بلاد العالم انما استطاعت أن تصل الى مستوى متقدم من الحضارة بسبب تركيز جهودها لفترة بسيطة ولكن لا يزال ثلثي العالم يعيشون الآن حالة التخلف والحرمان .

ان بلداننا المتخلفة لا ينقصها شيء من الطاقات والموارد ولكن الذي ينقصها هو عدم وجود تلك القدرة القيادية التي تستطيع أن تعبىء طاقات الأمة في لحظة واحدة وفي اتجاه معين ، وتتغلب بها على العقد الحضارية التي نعيشها ، والتي أشبه ما تكون بالحلقة المفرغة حيث لا ندري ماذا نعمل ، فالأشياء متشابكة امامنا ، فمثلا .. نحتاج الى مهندسين ، وهذا يجعلنا بحاجة الى كليات لتخريجهم وهذا بدوره يحتاج الى المال اللازم لتمويلها وبالتالي نحتاج الى مصدر لتوفير الأموال ، وبما أن البلد زراعياً ، لذلك نتجه الى تحسين الزراعة ، ولكن تحسين الزراعة بدوره يحتاج الى أدوات زراعية ، ثم الى المصانع التي تنتجها ، والتي تحتاج الى المهندسين لادارتها .. وهكذا ندور حول أنفسنا ونراوح في مكاننا ولن ينقذنا إلّا دفعة قيادية هائلة تتكون من قائد كفؤ وشعب مطيع ، حتى ننفلت من هذا الطوق ونواصل مسيرتنا الحضارية .

هذه العقد الحضارية الموجودة في المجتمع الاسلامي والتي أصبحت عقبة في طريق تقدم المجتمع ورفاهيته ووحدته ، من الممكن حلها عن طريق القيادة ، والىٰ هذا المعنى تشير الآية الكريمة :

« ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه إلّا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً »

إن هذه الموعظة خدمة لهم ، وخير لأنفسهم فهي تدفع المجتمع الى أن يقاوم ضغوط العدو ويصمد أمامه .

مثلا المجتمع المسلم في ايران ، الذي استطاع خلال ما يقرب من ثلاث سنوات أن يقاوم ضغوط الأستكبار العالمي ، وان يصمد أمام كل المشاكل والعقبات التي كان اعداء الثورة يفتعلونها .

لقد هبّ الشباب المؤمن من الحرس الثوري ، واللجان الثورية ، وجهاد البناء ، للدفاع عن الثورة ، وضحوا في سبيل ذلك اكبر التضحيات .. في كردستان ، وضد تفجيرات القنابل والأعمال التخريبية ، وضد محاولة أيصال بعض الوجوه العميلة الىٰ مراكز السلطة ، وأخيراً ضد الأعتداء البعثي ، والحصار الأقتصادي . ولو استمروا على صمودهم هذا ، لحققوا استقلالهم ، ولتعب الأعداء ويأسوا من هذا الشعب ، فيكّفوا ايديهم عنه .

وخلاصة فأن المشكلة الحقيقية في المجتمع الاسلامي ، وفي أي مجتمع آخر ، تتجسد في وجود عقبة كأداء أمام المجتمع عليه ان يتحداها وان يتغلب عليها عن طريق تركيز جهوده . والقيادة الرشيدة المطاعة هي التي تستطيع ان تركّز الجهود وتعبئها في لحظة واحدة وبأتجاه واحد ، لتحطم بها العقد التي تشل المجتمع وتكبّله .

التنظيم طريق الحيوية

السبب الرابع لحيوية المجتمع وفاعليته هو التنظيم ، حيث أن الأسلام يحرّض على جوهر التنظيم بالاضافة الى أطره ، ذلك أن محتوى التنظيم هو تعاون الجهود في خطة يضعها العلم .

والأسلام يضع شرطين للتنظيم الأجتماعي هما :

الأول :

أن يكون العمل وفق المنهج العلمي . فالأسلام يعتبر العلم عنصراً جوهرياً في المجتمع ، ويهتم بالعلم والعلماء ، كما أنه يجعل العلم قصب السبق الذي يتنافس عليه الناس . ويجعل المعرفة الهدف السامي الذي لا بد أن يسعى الجميع للوصول اليه ، يقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

« طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

« اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » .

« أطلبوا العلم ولو كان في الصين » .

ويقول الأمام الصادق (عليه السلام) :

« قليل من العمل مع العلم ، خير من كثير العمل بدون علم » .

وهكذا يؤكد الأسلام على العلم ، ويجعل طلب العلم هدفاً أساسياً يتطلع اليه الأنسان .

غير أن العلم بلا عمل به لا قيمة له أطلاقاً ، ولئن كان العلم ضرورياً ، فاقتران العلم بالعمل أشد ضرورة والحاحاً ، في الحديث الشريف :

« عالم بلا عمل كشجرة بلا ثمر » .

وفي الحديث :

« ما زال العلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه والآ أرتحل » .

وهكذا يجعل الدين العمل هدفاً للعلم ، وبذلك يحقق الأسلام عملية العلم .

يقول الأمام علي (عليه السلام) في وصيته لكميل بن زياد :

«يا كميل ! ما من حركة الا وانت محتاج فيها الى معرفة» .

فالفكرة تسبق الجولة ، والعلم يسبق العمل ، وبذلك يجعل العمل مقارناً بالعلم ومزكّاً به . وهناك أحاديث كثيرة نستوحي منها هذه الفكرة ، أي أن يكون عمل الأنسان نابعاً من علمه ، ووفق خطة علمية ومنهجية محددة .

كما نستلهم ذلك من كلمة البصيرة في القرآن ، إذ البصيرة في القرآن تعني العمل وفق هدىٰ العلم ، فاذا كان العمل منطلقاً من هوىٰ الأنسان وشهوته ، أو من حالة ارتجالية تتسم برد الفعل العشوائي ، فانه يؤدي الى ضرر كبير وشر مستطير. أما العمل المنتج فهو الذي ينبع من معرفة الأنسان وعلمه وعقله .

وقد تكررت كلمة البصيرة في القرآن أكثر من سبع مرات للتأكيد على أنّ القرآن طريق هدى وبصائر، وأنّ الرسول على بصيرة من أمره ومن أتبعه .

التعاون روح المجتمع :

الشرط الثاني :

أن يكون العمل تعاونياً جماعياً ، وليس انفرادياً انعزالياً ، ونرىٰ الأسلام يأمر بأن يجري العمل في اطار التعاون ، ولا يكون انفرادياً ، ويضع أساليب تشجع على بث روح التعاون بين أعضاء المجتمع الأسلامي منها :

ألف ــ اخراج الانسان من قوقعة الأنغلاق والتمحور حول الذات ، الى الأنفتاح

على الآخرين . وهذا حقاً هو محتوى أكثر نصوص الدين ، إذ جاءت رسالات الله لتبدّل محور الأنسان من ذاته الى محور الأخوة الأجتماعية . وبالتالي يخرج الى رحاب الواقع ، ومن عمى انغلاقه ، الى بصيرة انفتاحه .

أن هذا هو هدف أكثر التعاليم الأسلامية التي تسعى في مجموعها الى صياغة الشخصية الرسالية ، والتي تصنع للمجتمع الأسلامي أرضية التعاون البنّاء .

جاء في الحديث عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال : قال له رجلٌ : جعلت فداك ، رجل عرف هذا الأمر ، لزم بيته ولم يتعرف إلى أحد من أخوانه ، قال عليه السلام : « كيف ينفقه هذا في دينه » ؟! .

وعنه (عليه السلام) قال لأسحاق بن عمّار : « احسن ياإسحاق إلى أوليائي ما استطعت ، فما أحسن مؤمن إلى مؤمن ولا أعانه إلاّ خمش وجه إبليس وقرح قلبه » .

وعنه (عليه السلام) قال : « إنّ مما خص الله به المؤمن أن يعرّفه برّ اخوانه وإن قلّ ، وليس البر بالكثرة ، وذلك أنّ الله عزّوجل يقول في كتابه : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ثم قال : « ومن يُوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون » ومن عرّفه الله عزّوجل بذلك أحبّه ، ومن أحبّه الله تبارك وتعالى ، وفّاه أجره يوم القيامة بغير حساب » .

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : « رأس العقل بعد الدين التوَدُّد إلى الناس ، واصطناع الخير إلى كلّ أحدٍ برّ وفاجر » .

وعن الصادق (عليه السلام) قال : « أيّما مؤمن أوصل إلى أخيه المؤمن معروفاً فقد أوصل إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) » .

وفي وصيته عند وفاته ، قال أمير المؤمنين علي (عليه السلام) : « عليكم بالتواصل والتبادل ، وإيّاكم والتدابر والتقاطع » .

باء ــ التأكيد على التعارف الذي هو مقدمة التعاون ، حيث يقول الله سبحانه وتعالى :

« وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »

جيم ــ التأكيد على التعاون ذاته ، حيث يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم :

« وتعاونوا على البر والتقوىٰ ولا تعاونوا على الأثم والعدوان »

حيث ان معرفة الآخرين هي الخطوة الأولى نحو التعاون معهم ، حيث انها تقود الى اكتشاف نقاط القوة والضعف الموزعة بين الأفراد وكذلك بين المجتمعات ، ومن ثم ينفتح السبيل أمام تكميل كل فرد أو طائفة نواقصهما بما لدىٰ الآخرين وبالتالي يشجع علىٰ تبادل المنافع والمصالح لما فيه من خير للجميع .

وهذه الظاهرة تنطبق على الدول ، فانّها تتفاوت فيما بينها من ناحية الموارد الطبيعية والثروات ، والقدرات التكنولوجية ، والطاقات البشرية العاملة . فتعارف الدول عن طريق الوفود والبعثات والزيارات المتبادلة ، يُمكّن كل دولة من الحصول على احتياجاتها ، واعطاء الفائض لديها لآخرين يحتاجونه . وبذلك يمكن للبرامج الاقتصادية والمشاريع التنموية أن تسير قدما الى الأمام . كما تنطبق أيضا على الأفراد حيث يتفاوت الناس من جهة المواهب والاستعدادات الطبيعية والمكتسبة . فقد يملك انسان العلم ، وآخر يملك المال ، وثالث لديه خبرة جيدة في الطباعة ، ورابع يتمتع بموهبة تجارية ولديه دار للنشر والتوزيع . كل واحد من هؤلاء الأربعة لا يستطيع بمفرده أن يفعل شيئا . أما اذا اجتمعوا وتعارفوا ، ومن ثم تعاونوا ، فيمكنهم اذ ذاك أن يزودوا المجتمع بالكتب النافعة التي يحتاج اليها . وهناك ألوف الأمثلة لمجالات التعاون بين الانسان وأخيه الانسان ، كأفراد ، أو كتنظيمات إجتماعية على مستوى الدول .

وأنما يؤكد الأسلام على التعاون وعلمية العمل ، وهما الركنان الأساسيان لتنظيم المجتمع ، فأنه لكي لا يخرق مثل هذا المجتمع من قبل القوىٰ المعادية ، لانه حينئذ سيصبح متماسكاً ومتعاوناً مع بعضه ، وليست فيه ثغرات ينفذ من خلالها العدو .

وبعد ما يوجد الأسلام جوهر التنظيم في المجتمع ، يؤكد على أطر التنظيم ، فترىٰ الأمام علي (عليه السلام) يقول في آخر وصية له لأولاده :

« الله الله في نظم أمركم ، وصلاح ذات بينكم » .

اي : أتقوا الله أيها المسلمون في تنظيم أموركم ، ولا تدعوها فوضىٰ . وحينما يأمر بصلاح ذات البين ، فهو يدعم حالة التنظيم في الأمة . ويبدو من هذا أن الأسلام حين يأمر بالتنظيم يجعله واجباً شرعياً ، يجب أن يتقي الأنسان ربه في تطبيقه ، كما يتقي ربه

في الصلاة والصيام والزكاة والحج ، وسائر الواجبات الدينية .

كيف يولّد التنظيم الحيوية ؟

والسؤال هو : كيف يولد التنظيم الحيوية في المجتمع ؟

بالوسائل التالية :

اولاً : التنظيم يولد التشجيع على العمل ، فالأنسان عندما تكون أموره منظمة ، فانّ نفسيته تنفتح ، فينطلق في العمل ، لانه حينئذ يجد التشجيع الكافي والملائم للاندفاع نحو العمل البنّاء ، والعطاء الخلّاق ، وتكون جهوده مثمرة ، لانها تصبح بفضل النظم والتنظيم ، متكاملة مع جهود الآخرين .

أن كثيراً من الناس يحبون العمل في سبيل الله ، ولكن ليس هناك من يشجعهم علىٰ العمل بل لا يجدون سوىٰ التثبيط والتخذيل ، فتفتر هممهم ، وتخور عزائمهم ، وبما أن نفس الأنسان تنزع الىٰ الراحة والتواكل ، فأن النتيجة الطبيعية ستكون حينئذ ، القعود عن العمل .

إن المجتمع الذي يشجّع أفراده ويدفعهم الى العمل ، يصبح مثل القاعدة الصلبة التي يمكن للأفراد أن ينطلقوا منها ويتقدموا . بينما المجتمع الذي يخوّر العزائم ويثبط الهمم ، يكون كالرمال الرخوة التي تبتلع الجهود .

ثانياً : التنظيم يرفع العقبات من طريق الأفراد ليواصلوا مسيرتهم . ذلك أن الفرد لايملك سوىٰ أمكانيات محدودة ، أمّا التنظيم فأنّه يتمتع بأمكانيات أكبر بكثير ويستطيع رفد أفراده بها ، ليواصلوا المسير . فإن كانت العقبة مالية ، فأنّ التنظيم يوفر الأموال اللازمة . وإن كانت العقبة علمية ، فالتنظيم يوفر المعلومات النوعية المطلوبة . وإنْ كانت العقبة أمنية ، كما في الدول التي يتسلط عليها الطغاة ، فإنّ التنظيم يوفر الحلول المناسبة لتجاوزها ، عبر العمل السري ، أو نقل النشاطات الى خارج البلد ، وغيرها من الأساليب .

وهكذا فمع وجود التنظيم ، يمكن السيطرة علىٰ أغلب المشاكل والصعوبات التي

تعترض العمل الرسالي .

ثالثاً : التنظيم يعطي القدرة على الأستمرار في العمل ، والوصول به الىٰ غايته . فأنت مثلاً ، إذا بدأت بعمل ما ، وكنت تعلم أنك اذا اعترضتك عقبة في الطريق ، كأن مرضت أو سجنت ، أو هاجرت ، فأن هناك من يأتي ورائك ويواصل مسيرتك ، عندها تشرع في العمل بكل ثبات واطمئنان دون أن يصيبك القلق والتردد .

أنّ الأعمال العلمية الكبيرة ، والأنجازات الحضارية الضخمة ، لا يقوم بها فرد ، وأنما تقوم بها مجموعات متعاونة تعمل حسب خطة تكاملية مدروسة ، وهذه هي طبيعة الحياة . فالعلم وخصوصاً في عالمنا الحاضر ، لا يتقدم عبر أفراد ، وانّما عبر مجموعات منظمة ، وعموماً فأن السمة الظاهرة للحضارة الحديثة أنها تعتمد على منهجية التنظيم ، كما نلمس ذلك في المجالات المختلفة ، إبتداءً من مشاريع البناء والأنشاءات والأعمال الصناعية التكنولوجية ، وإنتهاءً بصعود الانسان الى القمر ، ومروراً بانتاج الطاقة النووية وسائر الأختراعات والمكتشفات العلمية الحديثة .. وهكذا في المجال الفكري ككتابة الموسوعات العلمية ودوائر المعارف .

والأسلام بدوره يدعو الى منهجية التنظيم ، وليست عباداته وشعائره وأحكامه سوىٰ وحدة واحدة ذات روح مشتركة هي التنظيم على أساس الوعي . ولكن الحياة التي نعيشها في البلاد الأسلامية ومع الأسف مخالفة لما يدعو اليه الأسلام . أنّنا نعيش حياة أفراد مبعثرين لا حياة جماعات منظمة .

إن الحياة الأسلامية الحقة هي حياة منظمة يسود فيها التعاون والتكامل ، وتتفاعل فيها الطاقات والأفكار ، وهذه هي الحيوية التي ندعو اليها .

ان الحياة المنظّمَة لا يمكن تحققها بصورة فجائية وشاملة لكل أبناء المجتمع الأسلامي ، وأنما من الضروري أن تبدأ علىٰ نطاق صغير . فكل انسان ينبغي أن يفتش عمن يتعاون ويتفاعل معهم .

ان الأسلام لا يحب الحياة الأنفرادية ، وكما جاء في الحديث الشريف عن امير المؤمنين علي (عليه السلام) قال :

« الشاردة للذئب » .

فالشاة التي تشرد من قطيع الغنم ، تكون من نصيب الذئب ، كذلك الأنسان الذي يعيش لوحده ، فإنه يصبح من نصيب الشيطان الذي هو أخطر من الذئب ، واننا اليوم جميعاً شاردون ، مما حدى بذئاب الشرق والغرب بافتراسنا .

لذلك فأن عليك أيها المسلم أن تبحث عن مجموعة تنتمي اليها ، واذا لم تجد هناك تجمعاً يمكن أن تصبّ عملك وجهدك في تياره ، فعليك أن تصنع تجمعاً ، وتخلق العمل الجماعي المنظم ، بأن تجمع حولك أفراداً من الذين ترى أن نفسيتك منسجمة مع نفسيتهم ، وارادتك متوافقة مع ارادتهم ، وطبيعتك متناسبة مع طبائعهم . وآنئذ تكوّن الخلية الايمانية الصادقة ، والفئة المخلصة المتحابة في الله ، والمتعاونة من أجل خير المجتمع ، وتحاول أن تكمّل حياتك بحياتهم .

وفي هذا الأمر لا ينبغي أن ننتظر اسقاط الطاغوت الحاكم ، ونقول ما دام الطاغوت موجوداً ، فهو لا يسمح لنا بان ننظم أنفسنا ، ولا يدعنا نجتمع . ان هذا الرأي هو الخطل بعينه لأن بقاء الطاغوت يستمر لحين تكوّن المجتمع الاسلامي الصالح ، الذي هو البديل الضروري لاسقاط الطاغوت ، حيث اننا لا نهدف من اسقاطه أن يأتي طاغوت آخر مكانه انما نريد حكم الله ، وتطبيق الشريعة الاسلامية التي لا يمكن تطبيقها الا على مجتمع اسلامي مهيأ لتقبلها .

ان أغلب الدول الاسلامية تحكمها سلطات طاغوتية لا تعترف بشرعية السماء ، ولا تعمل لقيام المجتمع الاسلامي الذي يسير في خط التوحيد ويطبّق التعاليم القرآنية نصا وروحا . فعلى المجاهدين الرساليين أن يعملوا لأقامة مثل هذا المجتمع ، ولن تستطيع السلطات الفاسدة أن تحول بين المؤمنين المخلصين الجادين ، وبين تنظيم أنفسهم ، وتكامل فعالياتهم مهما استخدمت من وسائل القمع والارهاب .

ان اقصى ما تستطيع ان تفعله السلطات الطاغوتية هو أن تبث الخلافات وتسبب سوء الظن بين أفراد المجتمع ، وتوهن العزائم ، وتزرع انعدام الثقة في النفوس ، ولكنها لا تتمكن أن تجبر أحدا على تصرف معين ، ان كان يملك الارادة والعزيمة . فحتى السجون التي تستخدمها السلطات الطاغوتية كوسيلة للضغط ، حيث تضع المجاهدين في زنزانات انفرادية مظلمة وموحشة ، فان المجاهدين يتمكنون بطريقة أو بأخرى أن يتصلوا مع

بعضهم ، ويتعاونوا رغم الجدران السميكة التي تفصل بينهم ، لأن الطغاة لا يقدرون على منع الناس من التعاون والتكامل مهما فعلوا .

من هنا ندعو جميع الاخوة والأخوات الى أن يبدأوا مسيرة التعاون ، مسيرة بناء المجتمع الاسلامي الذي يستطيع أن يسقط الحكومات الظالمة ويقيم الحكومة الاسلامية التي ترضي الله سبحانه وتعالى وتعمل لخير المسلمين جميعا بل لخير كافة مستضعفي الأرض . وعند التعاون نكتشف أن كثيرا من طاقاتنا الكامنة ستتفجر ، وتزداد الحيوية في أنفسنا مائة بالمئة ، لأن في التعاون خيرا وبركة . وكما يقول الحديث الشريف :

« يد الله مع الجماعة » .

أي أن بركة الله ورحمته وقوته انما هي مع الجماعة المجتمعة على كلمة واحدة .

الفصل السابع



الأسلام .. إنه الثورة

إذا كانت هناك رسالة ما او مبدأ ثوري ، فأن رسالة الأسلام هي الثورة بعينها ، ذلك لأنّ الثورة في الأسلام ليست ضرورة فحسب ، وإنّما هي القائدة ، والأستسلام شذوذ عن هذه القاعدة .

و بحثنا لهذا الموضوع هو انطلاق من موضوعنا السابق ، حيث قلنا بأن هناك سنناً اجتماعية تؤثر في مسيرة البشر ، ولكن هذه السنن محكومة بمشيئة الأنسان . والثورات تأتي لتضع هذه السنن موضع التطبيق .

الرسالات الألهية توقف الأنهيار :

لقد جاءت الرسالات الألهية وعلى فترات متعددة لكي تنذر البشرية إلى وقف رحلة الأنهيار . فمثلاً قوم يونس الذين كانت كل السنن الألهية تشير الى أن حياتهم الأجتماعية وحضارتهم أخذت تلفظ انفاسها الأخيرة . ولكنّهم بحركة التفاف سريعة ، و بتغيير حاد وجذري في حياتهم ، استطاعوا تجنّب الأنهيار ، والأستمرار في حياتهم الطبيعية ، وهذه هي الثورة .

والسؤال هنا : كيف يعتبر الأسلام الثورة اصلاً وقاعدة ، بينما تعتبرها سائر المذاهب والفلسفات ضرورة استثنائية ؟

بين محوري الحق والواقع :

يتمحور الأنسان في حياته حول أحد محورين ، امّا حول الحق ، وامّا حول الواقع .

فجاذبية الواقع وضغوطه على الأنسان ، يفرض عليه التمحور حوله . ومن هنا جاء القول أنّ الأنسان هو ابن مجتمعه ، وابن اقتصاده ، وابن وسائل الانتاج وابن آبائه وابن الثقافة . وكل هذه المقولات تشير الى نوع من تمحور الفرد حول ذاته ، وحول واقعه الذي يعيشه و يضغط عليه .

وهناك محور آخر قد يتمحور الانسان حوله وهو الحق ، سواء كان هذا الحق هو الواقع أم لم يكن . وهذا الحق هو البرامجُ الهية التي جاءت ثابتة لا تجد لها « تبديلا » ولا تجد لها « تحو يلا » التي حلالها حلال الى يوم القيامة ، وحرامها حرام الى يوم القيامة ، وذلك ضمن دين كامل .

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » .

وهذه البرامج لا تتكيف مع الواقع ، وانّما تسعى من أجل تكييف الواقع معها . فمثلاً الخضوع للثروة حرام في الأسلام ، سواء كانت الثروة في شكل بدائي عاشته الجزيرة العربية ، وكان قوامها مجموعة جمال و بضع أحمال تجارية ، أو كانت الثروة مصانع ضخمة تنتج عشرات الألوف من البضائع المختلفة ، وبمعدل مئات البلايين من الدولارات كالاقتصاد الأمريكي .

وكذلك الخضوع لعلماء السوء ، وكل من لاينطق عن الله حرام ، سواء كان عالم السوء هو ذلك الرجل الكاهن الجالس في زاو ية معبدة أو بيته ، ينتظر بضعة افراد يزورونه ليحدثم و يلقي عليهم تعليماته . أو كان عالم السوء هو كيسنجر أو بريجنسكي الذي يعطي تعليماته الى مئات الأذاعات في العالم ، والى آلاف الصحف والمجلات التي يطبع منها عشرات الملايين من النسخ فالخضوع للعالم غير المتقي حرام سواء كان هذا أو ذاك ، وهذه الحرمة قاعدة ، وتغيير هذا الواقع أصل من اصول العمل الاسلامي .

اذن الثورة في الاسلام هي القاعدة ، لأن الاسلام منذ البداية يقول للمسلم يجب عليك أن تسلّم نفسك لله ، لا للواقع ، أي أن تعمل من أجل أن يصبح واقعك مرضياً عند

الله . وهذه حقيقة بارزة وملموسة في كل التعاليم الأسلامية .

الرسالات تصطدم بالواقع :

كل الرسالات الألهية حينما جاءت اصطدمت بالواقع الذي كان يعيشه اقوام الأنبياء . وفي القرآن الحكيم اشارة الى هذه الحالة ، فحينما تتحدث آية ما حول الرسالة تأتي الآية التالية لها لتبين حالة الرد والرفض المباشر . مثلاً الآية الكريمة التي تقص علينا قصة صدع نبي الله شعيب برسالته :

« وإلى مَدين أخاهم شُعيباً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم مِن إلهٍ غيره .. »

نرى أنّ الجواب يأتي مباشرةً :

« قالوا ياشُعيب أصلٰوتك تأمرك أن نَترك ما يعبد آباؤنا أو نفعل في أموالنا ما نشاء » .

(٨٧/هود)

انّهم يقولون للرسول ، إنّ الواقع يخالف كلامك ، والرسول يعتمد على حجة أخرى و يقول : إنّ هذا الواقع الذي تعتمدون عليه هو واقع فاسد ، وانّ عملكم مخالف للحق .

وهذا المثال يوضّح لنا المحورين الّذين يتمحور حولهما افراد المجتمع . وهما محور الحق ومحور الواقع .

ومن هنا نرى أن الصدام ليس قضية استثنائية عند الانسان المسلم بل هي القاعدة وأن الانسان الذي يتصور أن الصدام قضية خارجية وأنّه يمكنه أن يكون مسلماً دون أن يصطدم مع الواقع الفاسد ، فعليه أن يعيد النظر في اسلامه .

وفي سورة الشعراء نجد أن الله عزّ وجل حين يبدأ حديثه عن الرسالات السماو ية ، يتحدث عن الذين كذّبوا رسلهم :

« كذّبت ثمود المرسلين * إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون » .

(١٤١-١٤٢/الشعراء)

فيأتي بذكر التكذيب في البداية ، لبيان أنّهم لم يكونوا يصدقون ، وأن الصدمة

كانت القاعدة الأصيلة .

و يقول تعالى :

« كذّبت قوم لوط المرسلين * إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون » .

(١٦٠ - ١٦١/الشعراء)

وفي آية أخرى يقول تعالى :

« كذّب أصحاب الأيكة المرسلين * إذ قال لهم شعيب ألا تتقون » .

(١٧٦ - ١٧٧/الشعراء)

وهكذا فأنّه يبدأ الحديث بالتكذيب . كذلك نجد في القرآن الحكيم في سورة هود مثلا ، حينما يحدثنا عن مقاومة الرسل للواقع الفاسد الذي كان يعيشه أقوامهم ، نجد أنّه في اللحظة التالية لبعث الرسل تبدأ المقاومة ، ورد الفعل ضد الرسالة :

« ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه إنّي لكم نذيرٌ مبينٌ * ألَّا تعبدوا إلّا الله إنّي أخافُ عليكم عذابَ يومٍ أليمٍ * فقال الملأُ الّذين كفروا من قومه ما نراك إلّا بَشراً مِثلَنا ، وما نراك آتّبعك إلّا الذين هم أراذلنا بادِيَ الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنُّكم كاذبين » .

(٢٥ - ٢٧/هود)

وفي قصة قوم عاد يحدثنا القرآن فيقول :

« والى عادٍ أخاهم هُوداً قال ياقوم اعبُدوا الله مالكم من إلهٍ غيره إن أنتم إلّا مُفترون * و ياقوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلّا على الذي فطرني أفلا تعقلون * و يا قوم آستغفروا ربَّكم ثم تُوبوا إليه يُرسِلِ السماء عَليكم مدراراً و يزدكم قُوّةً الى قوتكم ولا تَتولّوا مجرمين » .

(٥٠ - ٥٢/هود)

كان هود يحدثهم عن فكرة واحدة ، وهي فكرة عبادة الله سبحانه وتعالى ، ولم يحدثهم عن تفاصيل رسالته ولكنهم رفضوها :

« قالوا ياهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ، وما نحنُ لك بمُؤمنين » . (٥٣/هود)

وقصة قوم صالح يقول تعالى :

« والى ثمودَ أخاهم صالحاً قال يا قومِ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمَرَكُم فيها فاستغفرُوهُ ثُمّ توبوا إليه إنّ ربي قريبٌ مجيبٌ * قالوا يا صالحَ قد كنتَ فِينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبُدُ آباؤنا وإنّنا لفي شكٍ مما تَدعُونا اليه مُريب » .

(٦١—٦٢/هود)

والملاحظ في هذه الآيات ، ومن خلال بيان قصة الرسالات ، أن اعتماد أقوام الرسل كان على الواقع الذي يعيشونه ، لذلك كانوا يرفضون تغيير هذا الواقع الذي سار عليه الأولون ، والذي تكيفت معه أعمالهم وسلوكهم ونفسياتهم . فنجد من الطبيعي أن أصحاب الأيكة يقولون لنبيهم شعيب :

أصلٰوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا » .

فهل هذا دين أنك تأمرنا بأن نترك ما كان يعبد آباؤنا ؟! انهم يعتقدون أن الدين انّما يأمر بتقديس المقدسات الجاهلية ، وعبادة ما كان يعبد الآباء ، لذلك فإنّهم استنكروا كيف أن الدين يخالف عبادة ما كان يعبد الآباء ، وكأنّ الدين يجب أن يكرّس الواقع الفاسد الذي يعيشونه ، ذلك الواقع الذي كان يعطيهم حرية الفوضى والانحراف !

وكذلك قوم فرعون .. يقول تعالى :

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * الى فرعون وملائه فاتّبعوا أمر فرعون وما أمرُ فرعون برشيد » .

(٩٧—٩٨/هود)

في هذه الآيات يتجلى الصِدام بصورة واضحة ..

لقد أرسلنا ... فاتبعوا أمر فرعون .

وهكذا حديث القرآن عن الرسالات ينبؤنا بأن الصِدام والصراع في هذه الرسالات أصل من أصولها . وهذا لا يكون الا اذا كانت الرسالة ذاتها ثورة .

الأسلام ثورة جذرية :

والثورة في الاسلام ليست ترميمية ، بل هى ثورة جذرية لأنّها منذ البداية تريد أن تبدل المحور من الواقع بأمثاله وصوره المختلفة ، إلى الحق ورب الحق وهو الله سبحانه وتعالى .

فرسالات السماء تريد أن تبدّل الاله المعبود من الآلهة الباطلة ، الى الاله الحق ، أي أنها تريد أن تبدّل كل شيء . فحينما يتبدل المحور ، وتتبدل القبلة ، و يتبدل المعبود ، يتبدل كل شيء عند الانسان ، لذلك تكون ثورة الاسلام ثورة أصيلة .

واذا كانت ثورة الاسلام ، ثورة من أجل تبديل المحور وتكييف الواقع حسب منطق الحق ، فانها تكون ثورة مستمرة لا ميعاد لانتهائها ، مادام هناك قضية ، وهي تكييف الحياة مع الحق ، ومقاومة ضغوط الواقع التي تتسبب في تحول الناس عن الحق واعراضهم عنه .

ان تغيير الواقع الفاسد ، وارجاع الناس الى منهج الحق ليس أمراً هيناً ، لذلك فهو يحتاج الى ثورة بعد ثورة أي الى ثورة مستمرة . فمثلاً حياتنا تعتمد على البترول ، واقتصادنا يتمحور حوله ، وقد تعودنا على أسلوب الاستهلاك .. نستخرج النفط ونبيعه ، ثم نأخذ الأموال ونشتري بها كل شيء . وحينما نكتشف بأن هذا الواقع ليس هو الحق ، لأن ديننا يأمرنا بالاكتفاء الذاتي والاعتماد على الذات ، و يدفعنا الى التحرر والاستقلال . اذن علينا أن نغير هذا الواقع . فهل بسهولة نستطيع ذلك ؟ هل بسهولة نستطيع أن نعيد مئات الألوف من الفلاحين الذين تركوا الأرياف وتكدسوا في المدن ، الى حقولهم ومزارعهم ليستصلحوا أراضيهم ؟ هل بسهولة نستطيع أن نقنع الناس بألاّ يركضوا وراء الكماليات في الحياة بالطبع لا لذلك نحن بحاجة الى ثورة .

واذا تغلبنا على التخلف في مجال الزراعة ، وحققنا اصلاحاً زراعياً ناجحاً ، واكتفينا بالمحاصيل والغلات الوفيرة ، فاننا نكتشف أنّ علينا أن نصنّع بلدنا لنتغلب على ضغوط الدول الصناعية الكبرى واستغلالها لنا .. فهل بسهولة يتصنع البلد ؟ وهل بسهولة نستطيع أن نقنع الناس بالتصنيع والتغلب على صعوباته ؟ كلا ، وانّما نحن بحاجة الى

ثورة أخرى لنحقق ذلك .

واذا تم لنا ذلك ، ثم رأينا أن العالم يسير نحو الصناعة الالكترونية والتكنولوجيا المتطورة ، فسنشعر بأن علينا أن نقوم بثورة ثالثة للحاق بركب الحضارة وموازنة الأوضاع .. وهكذا يستمر الحال على هذا المنوال . من ذلك نرى أن الحق الذي نطمح الى تكريسه ، يتعارض مع ذلك الواقع الخاطىء ، وعلينا دائماً أن نتحرك من أجل مقاومة الجاذبية في الواقع ، والتحليق الى سماء الحق ، أي أن نكون ثائرين للتطور أبداً .

لا للثورات التقليدية :

هناك من ثورات في التاريخ الغابر والمعاصر ما يمكننا ان نسميها بالثورات التقليدية ، التي تحذو حذو التجارب الثورية التي سبقتها .. بلا تدبّر . الأمر الذي يحكم عليها بالفشل وأن كانت تنجح احياناً في الظاهر ، الاّ أنّها لا تستطيع أن تحقق أهدافها التي تنشدها كاملة .

مثلا : تتفجر ثورة في بلد ، ويحمل ابناءها السلاح و يلتجئون الى الغابات ، ثم عن طريق العصابات يسيطرون شيئاً فشيئاً على العاصمة ، كما فعل كاسترو في كوبا ، ولكن بعد أن تنتصر هذه الثورة ، نرى أن ثوّاراً في بلد آخر من بلاد أمريكا اللا تينية يحاولون أن يقلدوها ، مع أنّ في ذلك البلد لا توجد جبال أو غابات ، والحكومة هناك قوية الى درجة أنها لا تتأثر بحرب العصابات ، وشعب ذلك البلد لا يؤيد أساساً هذا الأسلوب النضالي ، كما أن الولايات المتحدة تدعم الحكومة الديكتاتورية القائمة هناك حتى لا يتكرر ما جرى في كوبا ، وما أشبه من هذه القضايا التي تخالف هذه الطريقة في الثورة .

ولكن الثوار في هذا البلد ، لأنّهم يعبدون الواقع ، و يقلدون شيئاً قد وقع فعلاً ، فهم لا يستطيعون التغيير، لذلك فانهم يتخلفون عن الحياة وعن العصر ولا يستطيعون أن يبدعوا أساليب وتكتيكات واستراتيجيات و بالتالي تفشل ثورتهم . كما فشلت الحركات الليبرالية في ايران ، التي كانت تحاول تكريس واقع موجود وكانت تهدف اقامة نظام

بورجوازي على الطراز الغربي . هذا النظام الذي تكشّف بسوءاته للعالم ، وعرف الشعب الايراني أنه لا يحقق طموحاته ، لأنها كانت تهدف الى اقامة الواقع لا اقامة الحق .

وكذلك ستفشل أية ثورة اسلامية تحاول أن تقلد الثورة الاسلامية في ايران بكل تفاصيلها . لأن الاستعمار قد عرف تفاصيل هذه الثورة القائمة ، وقد وضع لكل حق فيها باطلا ، ولكل تكتيك تكتيكاً مضاداً ، ولكل تحرك أو استراتيجية عقبات . فاذا اتبعت الشعوب هذه التكتيكات وتلك الاستراتيجية بتفاصيلها ، فسوف يقوم الاستعمار بدحرجة تلك الاحجار في طريقها . ثم ان التفاصيل كانت متصلة بالواقع الذي يعيشه الشعب الايراني وهي تختلف بالتأكيد عن تفاصيل واقع سائر الشعوب . والنظام الايراني لم يكن بقادر على أن يطلق النار على مجموعة متظاهرين في بداية خروجهم الى الشارع . لذلك خرج المتظاهرون بالملايين وآنئذ استحالت السيطرة عليهم . كذلك نمت الثورة الايرانية في ظل المؤسسة المرجعية الدينية القائمة في ايران ، مما أعطاها قدرة على الصمود . وهذه الظروف قد لا تتوفر بعينها في بلد آخر .

أذن أن نأتي ونعتقد بأن الثورة يمكن أن تقلّد ، فاننا نكون قد أخطأنا في تحديد معنى الثورة ، لان الثورة أساساً هي عكس التقليد الذي هو جزء من الواقع . فالثورة هي أن نتجاوز ضغط الواقع ومحوريته وعبوديته ، ونتجه الى جاذبية الحق وعبادة الله ، و بالتالي الى التمحور حول برامج الله .

وخلاصة فأنّ الطريق لاقامة الحق والعدل في الأرض يتطلب منّا العودة الى فهم الاسلام من جديد ، لنكتشف بأنّه ثورة . واذا كانت المذاهب والأفكار الأخرى تدعو الى الثورة ، فان الاسلام ذاته ثورة . ولا يمكن أن يكون الانسان مسلماً الا اذا كان في نفس الوقت ثائراً بحق .

الأسلام وزينة الحياة

في سياق حديثنا عن المجتمع الاسلامي الرسالي الذي يتبع رؤى الاسلام ومناهجه ، يطرح السؤال :

ما هي علاقة هذا المجتمع بما في الدنيا من زينة ، ومال ، والتقدم والحضارة ؟

لابد أن نقول أن هناك عدة أبعاد لزينة الحياة الدنيا :

البعد الأول :

هو أن الاسلام يسعى من أجل تزكية النفس البشرية وتطهيرها ، واعطائها دفعات من الارادة التي تتغلب بها على جاذبية المادة . ومن أجل أن يحقق هذا الهدف الرفيع فهو يوصي و يؤكد على ضرورة التسامي على الدنيا وزينتها ، لأن جاذبيتها وضغطها ومن ثم قدرتها على تذو يب ارادة الانسان وتمييعها كبيرة جداً .

لقد خلق الانسان هكذا .. ترابياً . وللتراب سلطانه على أبنائه . فحينما يجوع البطن و يعطش الكبد ، وتثور الشهوة ، و يتألم الجسد ، وتسيطر الرغبة في التفاخر والتكاثر في الأموال والأولاد ، آنئذ ترى أن ارادة الانسان ضعيفة أمام هذه المؤثرات . فلذلك كان البشر بحاجة الى من يعطيهم قدرة للتغلب على جاذبية هذه الأمور . ولم يكونوا بحاجة الى من يأمرهم بالاهتمام في متاع الدنيا ، لأنّهم اذا تركوا على طبيعتهم فسوف يفعلون ذلك غريزياً .

ومن هنا لا تدل الوصايا الاسلامية على أن موقف الاسلام من أمور الدنيا موقف سلبي ، كما قد يتبادر الى الذهن حينما نقرأ الآيات التالية :

« انّما أموالكم وأولادكم فتنة »

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً »

« زيّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا »

« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »

إن هذه الوصايا والمواعظ القرآنية ، والتعاليم الاسلامية الأخرى التي صدرت على لسان النبي (ص) والائمة المعصومين (ع) لا تدل أبداً على أن المال والبنين وسائر أقسام زينة الحياة الدنيا مرفوضة ومكروهة عند الاسلام ، وانّما تدل على أن الاسلام يريد أن يوجد التوازن في نفسية الانسان حتى لا ينكب على متاع الدنيا انكباباً أعمى .

و يؤيد هذه الحقيقة جملة من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة وهنا نذكر قسماً منها :

يقول تعالى :

« قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا »

(٣٢/الأعراف)

وتقول آية أخرى في صفة المتقين :

« والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » .

(٦٧/الفرقان)

و يقول الحديث الشريف :

« ليس منا من ترك دنياه لآخرته ، وليس منا من ترك آخرته لدنياه » .

و يقول حديث آخر :

« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

و يقول الامام علي (ع) :

« أيها الناس أوصيكم بالآخرة ، أما الدنيا فأنتم مستوصون بها » .

أي أنـنـي لا أوصـيكم بالدنيا ، لأن الدنيا ذات جاذبية ، وهناك من أوصاكم بها ، إنّما الآخرة هي التي تحتاج الى الوصية .

البعد الثاني :

هـو أن مـصـلحـة الانـسـان الـذي يواجه الحياة الدنيا وزينتها هو الذي يحدد موقف الاسلام منها . فالاسلام لا يريد أن ينفي الدنيا وزهرتها ، وانّما يسعى من أجل أن ينفي الجانـب الـسـلبي منها وهو الذي يؤثر في النفس تأثيراً ضاراً . ان زهرة الدنيا بذاتها هي حسنة ومطلوبة ، والقرآن الحكيم يؤكد عليها بقوله على لسان المؤمنين :

« ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

إلّا أن مـوقـف الاسـتـسـلام والـذوبـان في بوتقة الشهوات هو المرفوض في الاسلام .

وحينما يقول الاسلام :

« حب الدنيا رأس كل خطيئة » .

فـبـالـضـبـط يعني هذه الحقيقة ، بدليل أنه لم يقل شهوات الدنيا رأس كل خطيئة ، لأن لـكـل انـسـان شهوات وانّما يقول حب الدنيا ، والحب هو الاستسلام للشيء وجعله الـغـايـة . أما أن تأخذ الأشياء لنفسك فليس هذا حباً وانّما هو نوع من التملك . وحينما يقول الاسلام على لسان الامام علي (ع) :

« ليس الزهد ألّا تملك شيئاً ، وانّما الزهد ألّا يملكك شيء » .

فـهـو يحـدد معنى الأحاديث والآيات الأخرى ، حيث أن النصوص الاسلامية يفسر بعضها بعضاً .

ان المـوقـف الاسـتـسـلامـي تجـاه زينة الدنيا ومتاعها ، هو موقف التبعية والخضوع ، وفـقـدان الـعـقـل والـرؤية امام حوادث الدنيا ومتغيراتها . وهذا هو الموقف السلبي الذي يحـاول الاسـلام نـفـيـه . فالزهرة موجودة ، والزينة حسنة والمؤمنون أحق بها ، وحسب ما جاء في حديث شريف :

« ان الله سـبـحـانـه وتعالى أكرم من أن يحاسب المؤمن على نعمة أعطاها له فاستفاد منها » .

فـالله لا يحـاسـبـك لمـاذا تـأكـل أو تشرب أو تنام ، ولا يحاسبك أن تبني بيتاً أو تقيم

حضارة وتعمر الارض . وانّما يحاسبك على أنّه أعطاك الدنيا لتسخيرها فأصبحت أنت مسخَراً لها .. وحينما تتسخر للحياة الدنيا وتستسلم لزينتها وجاذبيتها ، فانّك لا تحصل على الدنيا ولا تكتسب الآخرة .

فحتى عمارة الأرض ، وزينة الدنيا وزهرتها لا تحصل عن طريق الاستسلام المطلق لها . وانّما يستسيغ الشراب ويمرأ الطعام ذلك الذي يشرب حين يشتهي بقدر ما يشتهي و ينتفع ، وهكذا يأكل . أمّا الذي يأكل كالأنعام و يشرب كالبهائم ، فان الشراب والطعام لا يهنئان له . واذا أهنئاه الآن فلن يأمن من الآثار السيئة مستقبلاً . فلرب أكلة منعت أكلات ، ولرب شربة سببت أمراضاً وآفات .

الاسلام يريدك أن تسخر الحياة وتتمتع بها وتستفيد منها ولكن بشرط أن تكون أنت المهيمن عليها ، اذن موقف الاسلام من الدنيا هو الموقف الذي يحقق للانسان المسلم أفضل النتائج في العاجل والآجل .

فالاسلام ينهى عن الاسراف ، لأنّ الاسراف لا يضر بالدنيا فحسب ، وانّما يضر بالانسان أيضاً . يقول الله عز وجل :

«وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انّه لا يحب المسرفين »

(٣١/الأعراف)

والاسلام ينهى عن التبذير بقوله :

« إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا »

(٢٧/الأسراء)

الكفور هو مقابل الشكور ، والتبذير في الدنيا كفر بنعم الله .. أي استفادة خاطئة وانتفاع شاذ من الدنيا .

والاسلام يأمر بالاصلاح في الأرض ، و ينهي عن الافساد :

« ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً ان رحمت الله قريب من المحسنين »

(٥٦/الأعراف)

و يقول سبحانه وتعالى عن المنافقين :

« واذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها و يهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد » .

(٢٠٥/البقرة)

و يقول عن المؤمنين أن بعضهم يصلح الآخر :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر »

(٧١/التوبة)

فعلاقتهم بالحياة هي علاقة الاصلاح . وهذه الصفة يقررها الاسلام و يؤكد عليها لأن الاستفادة من الحياة تعتمد عليها وهذا هو الموقف الصحيح .

فحينما يأمر الاسلام بالزهد ، فليس معنى ذلك أنه يتخذ موقفاً سلبياً مطلقاً من الحياة ولا يعني انّه يمنع التفاعل معها والاستفادة من متاعها ، فلقد كان الامام علي (ع) أزهد أهل زمانه ، حتى قال عنه رسول الله عليه الصلاة والسلام :

« من أراد أن ينظر الى عيسى في زهده فلينظر الى علي بن أبي طالب » .

ولكن أموال علي (ع) وثرواته كانت كثيرة وضياعه وحقوله عديدة وكان يتعب نفسه ويجتهد في زراعة الأرض واستصلاحها وحسب ما جاء في بعض الأحاديث أنّه كان يصل ايراده اليومي الى سبعين ألف دينار من ضياعه وممتلكاته ، الا أنه بعد أن يحصل على هذه الأموال الطائلة كان يوزعها على الفقراء والمحتاجين و ينفقها لخير المجتمع واصلاحه ، ولا يستبقي لنفسه الا الكفاف . وهذا هو المنهج الصحيح لعمارة الأرض .

البعد الثالث :

هو أن الاسلام يعتبر التنافس البنّاء من أجل زينة الحياة الدنيا ، عاملاً أساسياً في عمارة الأرض . فلولا التنافس على بناء البيوت وانشاء المصانع وتطوير التجارة ، لم تنشأ مدينة أو حضارة . ولو اكتفى كل انسان برغيف خبز يأكله ، وقطعة ثوب يلبسها ، ورقعة أرض يسكنها ، فهل كانت تبنى هذه القصور والعمارات ، وتلك المصانع والمؤسسات ؟ ولو لم يكن التنافس في تحدي مجتمع لمجتمع آخر ، لم تتسابق المجتمعات نحو الابداع والابتكارات والصناعات ، ولو لم يكن التنافس بين أبناء المجتمع لم يرهق الناس أنفسهم في المزيد من العمل ، ولركنوا الى القعود والكسل ، ولكن التنافس هو

الذي يدفعهم الى مواصلة الليل بالنهار، والكدح في سبيل الحصول على المال والثروة والتكاثر فيها .

وقوانين الاسلام في الملكية الفردية ، تدفع الناس الى التنافس البنّاء لعمارة الأرض واصلاحها ، لأنّ غريزة التملك عند الانسان من أقوى الغرائز التي تدفع الى العمل والابداع .

ولقد حاولت النظرية الشيوعية ــ التي لم تطبق حتى الآن في العالم بالرغم من المحاولات العديدة التي بذلت في هذا الشأن ــ أن تجرب الغاء نزعة الملكية الفردية عن الشعب في الاتحاد السوفياتي فكانت النتيجة أن انعدم الحماس للعمل عند الأفراد . ولكنهم بعد أن أعادوا جزئياً فكرة التملك عن طريق منح امتيازات مادية ومعنو ية لمن يعمل أكثر، وجدوا أن النشاط قد دب في الناس ، و بدأوا يعملون .

اذن الملكية الفردية بحدودها المشروعة يؤمن بها الاسلام ، و يؤكد عليها . بل أن ملكية الانسان لأمواله تمتد الى ما بعد وفاته وذلك عن طريق الارث والوصايا . لأن الانسان اذا عرف بأنّه سوف يفعل في أمواله ما يشاء في حياته و بعد مماته ، فانّه يشعر بالاطمئنان تجاه هذا الجهد المركز الذي نسميه بالمال . وعندما يقول الاسلام بأن حرمة أموال الآخرين كحرمة أنفسهم ، فانه يشدد بذلك على احترام الملكية الفردية ، لأن ذلك في الواقع هو احترام الانسان نفسه ، فالمال انّما هو جهد مدّخر، وحينما لا تحترم جهد أحد فكأنك لا تحترمه شخصياً . ومن هنا يأتي موقف الاسلام الحاسم تجاه المال .

الأنسان بين القيم والأهواء

للانسان قوتان تتجاذبانه .. قوة الطبيعة وقوة القيم . وقد تقوده احدى القوتين بصورة مطلقة ، أو تشتركان في قيادته عبر ظروف مختلفة وفي حالات متباينة . وفي المجتمع قد تكون القوة الغالبة والحاكمة تتجسد في الطبيعة أو في القيم ، وذلك عبر المجموعة التي غلبت طبيعتها قيمها أو غلبت قيمها طبيعتها ، فتكون الصفة العامة لهذا المجتمع اما صبغة الطبيعة واما صبغة القيم . فان كانت الأولى هي السائدة وصبغتها هي الظاهرة ، فذلك هو مجتمع الطاغوت ، وان كانت الثانية هي السائدة فذلك هو مجتمع الرسالة والايمان .

وكما أن الانسان الفرد قد يخضع للمال باعتباره مجسداً لقوة الطبيعة في ذاته ، ومحققاً للأهداف المادية ، كذلك المجتمع قد يقوده المال وأصحابه باعتبارهم مجسدين لتلك القوة الطبيعية .

وقد طرحت البشرية منذ أن كانت هذه المشكلة مسألة كيفية التخلص من جاذبية المال بالنسبة للأفراد والتخلص من قوة المال كقوة طاغية وحاكمة على المجتمع كله .

صور متعدده وجوهر واحد :

في يوم ما كان الاقطاع مشكلة الانسان الأولى ، حيث كان مالكوا الأرض يستغلون الناس بقوة المال و يفرضون عليهم سلطتهم المستمدة من ثروتهم ، و بالتالي تقود المجتمع

الطبيعة المتجسدة في الثروة . و بعد أن ثار الثائرون وأسقطوا صنم الاقطاع ليعبد الله ، لم يلبثوا أن اختاروا لأنفسهم صنماً آخر سموه الرأسمالية . وكان ذلك الصنم معبراً عن غلبة وتفوق قوة الطبيعة في ذاتهم على قوة القيم . وثارت الثائرة مرة أخرى ، فدارت المعارك وأزهقت الأنفس واريقت الدماء حتى أسقطوا صنم الرأسمالية الخبيث ، وزعموا بأنّهم قد ارتاحوا نهائياً من المشكلة الحادة في حياة البشرية ، وهي مشكلة تسلط اصحاب الثروة والمال على رقاب البائسين والفقراء . و بعد أن انجلت الغبرة واستكنّت النفوس وظهرت الحقيقة ، فاذا بصنم آخر يعبد من دون الله وهو صنم الدولة المستبدة والمستغلة للمال .

وسواء كانت الثروة بيد الاقطاع متجسدة في امتلاك الأرض ومن عليها ، أو كانت بيد التجار، أو بيد السلطة فانّها هي الثروة ، وهي الصنم ، و بالتالي فهي الحاكمة . فالصور تتبدل والاشكال تتغير والجوهر هو الجوهر .

ان المشكلة هي في خضوع الانسان للثروة ، وغلبة الطبيعة على القيم في ذاته . فحينما تذوب القيم في بوتقة الثروة ، فلا جدى من السؤال عمن يملك هذه الثروة و يتسلط على الناس باسمها .

الحل الاسلامي لهذه المشكلة :

ألف : على مستوى الفرد .

الحل في الاسلام يبدأ من عمق ذات الانسان . فهو يجعل سلطة القيم هي الحاكمة على الطبيعة في ذات الانسان . فاذا كانت نظرتك الى المال نظرة استعلاء وتسامي ، والى زينة الحياة الدنيا نظرة تملك وتسخير، والى الطبيعة نظرة اصلاح واعمار، فانك تنتصر على مشكلة الثروة في ذاتك .

لذلك نجد القرآن الحكيم يركز على هذا الموضوع في عدة آيات مثل قوله تعالى :

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً »

(٤٦/الكهف)

وقوله :

« زُيّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » .

(١٤/آل عمران)

إن هذه الآيات والتعاليم الاسلامية الأخرى تدفع الانسان الى أن ينتمي الى مجتمع القيم ، المجتمع الذي يقوده خير الناس علماً وتقوى وكفاءة ، وليس أثقلهم جيباً وأوفرهم قوة وجاهاً .

باء : على صعيد المجتمع .

يشدد الاسلام على عدم تركيز السلطة بيد الأغنياء ، بل يجعلهم تابعين للعلماء . والنصوص الاسلامية تؤكد على أن احترام الغني لغناه جريمة وخطيئة كبيرة .

« من احترم غنياً لغناه أكبّه الله على منخريه في النار » .

كما تؤكد الآيات القرآنية على أن الأغنياء غير الأتقياء هم من شرار الناس . وكمثال على ذلك قصة الجنتين وصاحباهما الذي دخلهما وهو ظالم لنفسه :

« قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً . وما أظن الساعة قائمة . ــ ثم كانت عاقبته ــ فاصبح يُقلّب كفيه على ما انفق فيها وهي خاوية على عروشها و يقول ياليتني لم اشرك بربي احداً »

(٣٢-٤١/الكهف)

وقصة قارون الذي أوتي من الكنوز :

« وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة »

اي ان مفاتيح كنوزه كانت تحط من قوة جماعة .

ثم كانت عاقبته :

« فخسفنا به و بداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين »

(٧٦-٨١/القصص)

وكذلك يحمل الاسلام حملة عنيفة على الأغنياء الذين لا ينفقون أموالهم في سبيل الله :

« ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة »

(١٨٠/آل عمران)

كل هذه النصوص والتعاليم تريد أن تفصل المال عن السلطة داخل المجتمع حتى لايعبد الأغنياء من دون الله ، ولكي لا يتخذ الغني صنماً باسم الاقطاع يوماً ، و باسم الرأسمالية يوماً آخر و باسم الحزب الحاكم . المهم هو فصل هذا التجمع القائم على المال والثروة عن السلطة الاجتماعية والسياسية ، ولكن كيف يتم تحقيق هذا الهدف ؟

ماهي الضمانات التي يضعها الأسلام لفصل العلم عن السلطة؟ الضمانات هي:

أولاً : التوزيع العادل للثروة .

وذلك عن طريق فرض الضرائب التصاعدية ، وغير التصاعدية ، كضريبة الخمس والزكاة ، والحق المعلوم لو كان غيرهما ، وتقسيم الأموال بالأرث ، وكذلك بعض الكفارات والديات المالية . هذه الاحكام الشرعية لا تدع المال يصبح دولة بين الأغنياء يتداولونه كما يحلو لهم . ولا يدعون الآخرين يستفيدون منه .

ثم ان الاسلام يؤكد على ضرورة تقسيم المال لو سبب ضرراً على المجتمع الاسلامي ، ولو كان بغير الطرق السالفة الذكر حيث يقول :

« لا ضرر ولا ضرار »

« الأرض لله ولمن أحياها »

ثانياً : القضاء على احتكار الأرض .

ان الاسلام بمعالجته لمشكلة الأرض ذلك المورد الرئيسي والهام للانسان ، وعدم جعلها حكراً على مجموعة خاصة ، تستغل الناس يوماً باسم الاقطاع ، وآخر باسم

الشركات الزراعية ، يقضي بذلك على الاقطاعية القديمة والجديدة . هذا الاقطاع البشع الذي يضيق الخناق على الناس و يعيق مسيرة التقدم في الحياة .

ثالثاً : محاربة احتكار المواد الأولية الضرورية .

ان بعض المواد الضرورية و بسبب حاجة الناس الماسة اليها تكون مشتركة المنافع فيما بينهم ، وهذا يدل على أن كل مادة أصبحت ذات حاجة اجتماعية شاملة ، فالناس شركاء فيها ، كالنفط مثلاً . و يقول الاسلام في ذلك :

« الناس شركاء في ثلاثة الماء ، والكلاء ، والنار »

رابعاً : تأميم التجارة الخارجية .

ان التجارة الخارجية في الدولة الاسلامية في ما يختص بالمواد الضرورية ، كالتي تعتبر أساساً لسائر الصناعات مثل الحديد والبترول وما أشبه ، أو المواد الغذائية الرئيسية كالقمح والأرز واللحم والسكر وغيرها والتي يحتاج اليها الناس في حياتهم اليومية ، وأدنى ما يحتاجونه من الملابس ، ووسائل النقل ، ووسائل البناء يجب ألّا تصبح أداة للاستغلال من قبل التجار .

ومن هنا يجب مراقبة التجار والزامهم بمراعاة الحدود المشروعة في اعمالهم ونشاطاتهم .. واذا رأى المجتمع الاسلامي والدولة الاسلامية أن هؤلاء يحتكرون هذه المواد و يستغلون الناس بها و يفرضون وصايتهم على الناس عن طريقها ، ولا يوفرونها بصورة تكون سبباً لرفاه الناس ، فمن الواجب على الدولة أن تؤمم التجارة الخارجية كما بدأت تفعل ذلك الحكومة الاسلامية في ايران .

خامساً : فصل العلم عن الثروة .

.وهو من الضمانات الاسلامية الهامة في هذا المجال ، اذ أن الثروة لا تستطيع أن تستغل الناس الاّ تحت غطاء العلم ، وعن طريق العلماء . فالعلماء الراكعون على أبواب الأغنياء والتجار ، والذين يبيعون علمهم بثمن بخس للمستكبرين كانوا دائماً أداة طيّعة بيد أصحاب الثروة ، لكي يحولوا ثروتهم الى سلطة يفسدون بها في الأرض .

سادساً : رفع مستوى الناس علمياً واقتصادياً .

من الناحية التاريخية ثبت أن المجتمعات التي تحكمها الديكتاتورية ، و يتسلط عليها الاستبداد ، هي المجتمعات الأقل وعياً والأكثر فقراً . أي أنه اذا ارتفع مستوى الجماهير الى حد معين من الوعي والرفاه الاقتصادي ، فان قدرة أصحاب المال والثروة على التسلط والاستغلال تتلاشى .

فالمجتمع الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ، يكون مادة دسمة للمستغلين . لذلك فالأمية خطر على حرية الانسان . والاسلام يسعى الى محو الامية و يعتبره واجباً شرعياً . و يؤكد الحديث المعروف :

« طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »

والاسلام يفرض على المسلم أن يقسم أوقاته أربعة أقسام ، يجعل قسماً منها لطلب العلم . ولقد كان أحد شروط النبي (ص) لاطلاق أسرى حرب بدر أن يعلّم الأسير عشرة من المسلمين القراءة والكتابة .

ان الاسلام يجعل طلب العلم فوق كل الواجبات و يشترط أن يقترن ذلك بالوعي ، فلا يجتهد الناس في طلب علوم بعيدة عن واقعهم ، بل ينبغي أن يكون العلم فيما يخص الانسان مباشرة ، و يعالج مشاكله و يلبي احتياجاته التي يتعرض لها في زمانه ، من معرفة أهل زمانه ، وطبيعة القوى والتيارات الحاكمة في الحياة ، أي أن يكون علماً سياسياً بالمعنى الاسلامي الشامل للسياسة . وهذه من صفات المؤمنين .

« عارفاً بأهل زمانه » .

« العارف بزمانه لا تهجم عليه النوائب » .

وكذلك بالنسبة الى الاقتصاد . حينما نقول ان المجتمع الذي يملك أبناؤه مستوى معيناً من الثروة والغنى ، فانهم يرفضون الديكتاتورية ، ليس المقصود بذلك ان يكون ايراد الفرد كبيراً . فلو كان راتبه الشهري ألف دينار ، ومصروفه ألفاً وخمسين لكان فقيراً ، والفقير في الاسلام هو الذي يكون انفاقه أكثر من مدخوله ، والمؤمن يجب أن يبتعد عن الفقر الذي هو سواد الوجه في الدارين . ولا يعني ذلك أن يكون همه الحصول على المزيد من المال ، بل المقصود أن يقتصد في مصروفه وألا يجعل ميزانيته دائماً خاسرة .

وعلى المؤمن أن يدخر، «فنعم العون على الدين والدنيا الغنى» .

والغنى أن تكون يدك مبسوطة يوم الحاجة ، وهو ذلك اليوم الذي يحاول فيه الغني أن يستغلك . فحينما تقرر سلطة الأغنياء أن تتحكم في مصيرك ، وتكون قادراً على المقاومة بأن تضرب عن العمل مثلاً . وعندما يقطعون راتبك فأنت تمتلك مدخر تعيش عليه ، وتصمد الى ان ترغمهم أن يعطوك حقوقك ، و بالتالي ترغم السلطة السياسية الحاكمة في البلد على الرضوخ للحق .

لذلك فان الديكتاتورية مقرونه بقلة الوعي والمال عند الجماهير. وكلما توزعت الثروة وانتشر الوعي كلما ضعفت سلطة الديكتاتورية .

سابعاً : اعتبار الخضوع لغير سلطان الله شركاً .

هنا تأتي الضمانة الدينية وهي الأهم ، حيث أن الاسلام يحرم على المسلم الخضوع لسلطان غير سلطان الله ، ولحاكم غير من أمر الله به ، و يعتبر ذلك شركاً . والشرك عند الله ظلم عظيم غير قابل للغفران . والقرآن من بدايته الى نهايته حديث عن الشرك والمشركين ، وعن ضرورة مقاومة الشركاء من دون الله ، والتمرد على الآلهة التي تعبد من دون الله . والآلهة هؤلاء هم أصحاب الثروة الذين يتسلطون على الناس و يستغلونهم .

ان هدف الاسلام في الحياة الاجتماعية هو أن يجعل المال خاضعاً وليس حاكماً ، وأن يجعل الانسان مسخّراً للحياة لا تابعاً لما فيها من متاع زائل . وهذا الهدف العام يحققه الاسلام عبر مجموعة ضخمة من التعليمات التربوية ، والأحكام الاجتماعية ، والوصايا والاخلاق ، وحتى من التوجيهات الأيديولوجية .

واذا استطاع مجتمع أن يفلت من قيد المال ويجعله مملوكاً . فانه ليس فقط تنطلق مواهبه وتتفجر امكاناته و يتحرر من الجمود ، وانّما تنمو ثروته أيضاً ، و يستطيع أن يفلت والى الأبد من قيد الفقر. فالمال حيث يعبد من دون الله يصبح فقراً . والمجتمع الذي يحكمه المال هو المجتمع الفقير.

كيف تنتصر الثورة ؟

اذا سيطرت المادية على الحياة السياسية للأمة ، وتسلط أصحاب الثروة بالتعاون مع المستغلين و بالتواطوء مع أولئك الذين يبيعون علمهم وثقافتهم لكل مشتري فماذا يجب على سائر أبناء الأمة آنئذ أن يفعلوا ؟

لاريب أن الواجب عليهم هو التمرد والثورة والنهوض لمقاومة السلطة الفاسدة .

ولكن كيف ؟

وما هي الشروط الذاتية والخارجية للثورة ؟

ومتى تبدأ وكيف تتوسع و بأية عوامل تنتصر ؟

تبدأ الثورة بتحرك مجموعة من ابناء الشعب ضد الواقع الفاسد الذي تعيشه الأمة ، والسبب في وجود هذا الواقع ، هو النظام الحاكم فتخالفه . و بكبر المسافة بين طموحات هؤلاء الفتية و بين ما يجدونه في واقعهم ، تتحرك ارادتهم لتغير ذلك الواقع . فكلما كانت المسافة بين الطموحات و بين الواقع أبعد ، كلما كانت الارادة وكان النشاط أكبر . وهذه هي نطفة الثورة التي تنعقد في ضمير المجتمع .

الشروط الذاتية للثورة :

أولاً : العقل المدبر :

الثورة بحاجة الى عقل مدبر يستوعب متغيرات الحياة و يعرف روح القيم ، و يهتدي

الى الأهداف بدقة ، و يصنع الاستراتيجيات بوضوح ، و يتميز بقدرة الابداع .

والقدرة على الأ بداع تعني ألا تكون ثقافة الانسان وأفكاره وعلومه و بالتالي أنشطته ، محكومة بالواقع الفاسد القائم ، بل تكون متحررة من الضغوط التي يوجدها ذلك الواقع الفاسد .

وهذه قضية أساسية في الثورة ، لأن الانسان الذي لا يزال فكره وعقله عبداً لواقعياته فكيف يتسنى له أن يثور عليها .

واول ما يتحرر من الانسان هو عقله وذلك بأن يفهم أن هذا الواقع غير صحيح و بالتالي يبدأ في التفكير من أجل تغييره .

اذن فالقدرة على الابداع والابتكار وخلق الأفكار شرط أولي وضروري لأ ية ثورة . حيث ان قوة الثورة ونجاحها يتناسب طردياً مع قدرة الابداع . فالثورة التي تتميز بقدرة قليلة على الابداع تكون ضعيفة لأن جذرها ضعيف ، بعكس تلك التي تملك قدرة متكاملة في الابداع . والفرق يظهر في عدة أمور .

الأ ول :

ان الثورات التي تفهم بعمق من أين بدأ الواقع الفاسد ولماذا وكيف جرى حتى وصل الى هذا الوضع ، تكون أقوى من الثورات التي لا ترى الا ظاهر الأمور . وهذا هو سبب قوة ثورات الأنبياء وجذريتها . فالانبياء (عليهم السلام) كانوا يضعون أيديهم على جذر المشكلة وسبب الفساد وهوعبادة الآلهة من دون الله . وكذلك الرساليون عبر التاريخ ، الذين استوحوا أفكارهم وقيمهم من الرسالات الألهية ومن سير الأنبياء . كانوا بدورهم ثوريين بالمعنى الصحيح للكلمة ، لأنّهم لم يكتفوا بازالة الفساد القائم ليأتي فساد آخر مكانه ، وتتبدل الصور والأشكال و يبقى الجوهر واحد . بل نسفوا قاعدة الفساد والتي هي الانحراف عن منهج الله في الحياة .

الأمر الثاني :

ان الثورة التي تفهم أهدافها بوضوح وأن عليها أن تغير الواقع الفاسد من الجذور ، تستطيع أن تصنع الاستراتيجية الواضحة ، لأن وضوح الأهداف يعادل وضوح الاستراتيجية التي هي عبارة عن الطرق الواسعة المؤدية الى تلك الأهداف .

الأمر الثالث :

مثل هذه الثورة تتمكن أن تبتكر التكتيك السليم الناجح ، لأن الأسلوب المناسب يتبع الاستراتيجية الواضحة ، وكلما كانت رؤية الثائر الى استراتيجيته أوضح كلما كان تكتيكه أفضل .

الأمر الرابع :

معرفة المتغيرات . فالحوادث الواقعة التي تتغير في الظروف المختلفة ، قد تكون باتجاه أهداف الثورة ، وقد تكون مخالفة لها . ولكن كثيراً من الثورات في التاريخ فشل أصحابها في فهم بعض المتغيرات التي واجهتهم ، فاتخذوا مواقف متناقضة وخاطئة ، وكانوا سلبيين امام حادثة وقعت لصالح أهدافهم . بينما كانوا ايجابيين تجاه حادثة أخرى ضد أهدافهم . وهذا قمة الغباء وسبب الانكسار والهزيمة .

ولقد رأينا هذا في ايران ان مجموعة من المتدينين المصلين الصائمين ينضمون الى منظمة تدعى (الفرقان) كيف أنهم أغتالوا بعض قيادات الثورة ومفكريها .

انهم مجموعة من الشباب الذين قرأوا القرآن ودرسوا التاريخ وتشبعوا بروح الثورة ، ولكن هذه الروح انفجرت باتجاه مضاد لأهدافهم ، وهذا يعني عدم وضوح الرؤية والقصور في فهم المتغيرات وتقييم المواقف .

ان أكثر المؤرخين يؤكدون على أن انتصار الثورات في التاريخ يعتمد على قوة ذاتية فيها وهي القدرة على الابداع ، وكلما رأيت أن ثورة فقدت عقلها المدبر وديناميكيتها الفكرية ، وافتقرت الى وضوح الرؤية ، وتجردت من معادلة الثورة وهي تبلور التطلعات ومعرفة الاستراتيجية والتكتيك ، وفهم المتغيرات ، فاعلم أن هذه الثورة تتحرك بأتجاه نهايتها الحتمية .

ثانياً : ارادة التحدي وتجسيد الفكرة :

وتأتي ارادة التحدي من فاعلية الفكرة التي تحملها الثورة . وكلما كانت هذه الفكرة تؤكد على السعي والعمل من جهة ، وتسفه التبريرات التي تقف حاجزاً دون العمل من جهة أخرى ، كلما كانت أكثر فاعلية وقدرة على تحريك الأنشطة ، وأكثر

قابلية للتجسد في الواقع الخارجي عبر أشخاص .

فالفكرة التي لا تتحول الى جماعة ولا تتمثل في أناس ، تنتهي ولا تجد لها وجوداً الا في الكتب والمحاضرات و بالتالي فانها وحدها لا تصنع ثورة . وانما الذي يصنع الثورة هم رجال ذو ارادة وتضحية وذو فاعلية وسعي دؤوب ، وهؤلاء تصنعهم الفكرة .

فالفكرة التي صنعت محمداً (ص) هي الفكرة الصحيحة لا لأننا عرفنا صحتها عبر ادمغتنا وفطرتنا و واقعيات حياتنا فحسب ، وانّما حينما رأيناها متجسدة في شخصية الرسول (ص) عرفنا صحتها وصوابيتها . وكذلك حينما رأينا علياً (ع) واتباعه وشيعته . ومن هنا تأتي تسمية القادة بالحجج ، لأنّ حياتهم حجة على أفكارهم .

ان الصراع التاريخي في الحياة يمكن أن يلخص بكلمتين هما التحدي والاستجابة للتحدي . أي أن الصراع يكون بين فكرتين ، فكرة حية تصنع الرجال ، وفكرة ميتة نسبياً لا تصنع مثل هؤلاء الرجال . فكما أن المقاتل لا يصنع في ساحة المعركة وانّما في قواعد التدريب ، كذلك الثائر لا يصنع في صراع التحدي ، وانّما عندما يشبع بالفكر الحي .

ثالثاً : وحدة البناء :

كلما كانت الفكرة كاملة ، وتجسيد الفكر كاملاً ، كلما كانت العلاقات بين أبناء الثورة حميمة ، والوحدة العملية في الساحة متينة . ولا نعني بالوحدة مجرد تعليق شعارات لذلك الحزب أو تلك المنظمة ، ولا ترداد كلمات معينة عبر وسائل الاعلام . كما لا نعني بالوحدة مجرد القبول بقائد معين قبولاً قولياً ساذجاً وانّما نعني بها وحدة كل ذرة من عمل الثائرين ، وكل سعرة حرارية من وجودهم ، وكل خطوة في حياتهم ، مع ذرات وسعرات الآخرين من أبناء قضيتهم . وهذه هي وحدة البناء داخل جسم الثورة .

رابعاً : القدرة على الجذب :

الثورة التي لا تستطيع أن تنتشر عبر قطاعات واسعة من أبناء الشعب وتبقى

محدودة ، تضمحل سريعاً ، ومن ثم تموت . ذلك لأنّ نظرتها الى الانسان نظرة ضيقة ومحدّدة باللون أو العنصر أو القومية أو الأرض وغير ذلك من الحدود التي يصطنعها الفكر الضيق .

وكلما كانت الثورة أشمل نظراً الى الانسان وأقدر على جذب القابليات والطاقات البشرية ومن ثم تعبئتها ، كلما كانت أقرب الى الانتصار وأكثر قدرة على الاستمرار .

هذه هي الشروط الذاتية الأربع التي تصنع ديناميكية الثورة في المجموعة الرائدة التي تتمحور حول الفكرة الثورية المتفاعلة والقادرة على فهم الحياة واستيعاب متغيراتها .

الشروط الخارجية للثورة :

هذه الشروط بعضها مرتبط بارادة الثوار والبعض الآخر مرتبط بتكييف الثوريين أنفسهم مع الواقعيات .

الشرط الاول : العناية بالوسائل المادية .

يجب على الثورة ألّا تكتفي بصنع الوسائل المعنوية فقط ، بل عليها أن تصنع الوسائل المادية لأجل تحقيق انتصارها .

في بداية هذا القرن حدثت ثورات رسالية ووطنية عديدة في العالم الاسلامي ، ولكنها انتهت الى الفشل بالرغم من انها كانت سخية بدماء ابناءها وقادتها . وبالرغم من انها صنعت ملاحم كبيرة . والسبب هو ان هذه الثورات لم تستطع أن تصنع الوسائل المادية لتدافع بها عن فكرها وعن قيمها وأهدافها . فهي حاربت بأسلحتها البدائية القديمة ، الاسلحة الحديثة المتطورة . وهذا خلاف سنة الله التي تقضي الى جانب التسلح بالعقيدة والقيم المعنوية ، التسلح أيضاً بالسلاح المناسب للعصر ، والمواكب للتقدم التكنولوجي والتقني .

وعلى وجه الاجمال يجب على الثورة أن تهتم بالنقاط التالية :

(١) الاهتمام بالعلم التطبيقي والصناعات المختلفة .

(٢) متابعة الوسائل الجديدة التي يصنعها الأعداء .

(٣) التجسس وجمع المعلومات الدقيقة عن العدو والتحقيق في أمره .
(٤) الاهتمام بالسرية الكافية في التخطيط والتحرك .
(٥) معرفة نقاط الضعف عند العدو لتسدد اليه من خلالها ضربات ناجحة .
(٦) تطوير الاقتصاد وتوفير الأموال اللازمة لتمكين الثورة من الصمود والاستمزار .
(٧) دراسة المتغيرات السياسية بعمق لتستفيد منها تكتيكياً .

الشرط الثاني : معرفة الواقع بدقة :

ليست كل الظروف هي ظروف الثورة . فالأمم تشبه في عطائها المواسم . والثوريون هم الزراع . فاذا جاء ثوري وأراد أن يزرع أرض الأمة بالثورة في أيام الصيف ، فان ثورته ستموت من الجفاف والحر الشديد . لذا عليه أن يختار أيام الربيع لتنمو ثورته وتزدهر .

وهذه ليست من مشكلات الثورة ، وانّما من مشكلات الأمة التي تحتضن الثورة . وعلى الثوريين أن يفهموا هذه المشكلة ، وألّا يكونوا مغرورين بأنفسهم وبما لديهم من ارادة .

ان الحياة لا تسير بضغط واحد وبعجلة واحدة . وانّما نجد فيها فجوات . ففي بعض الأوقات يكون ضغط الحياة خفيفاً ، وعجلة السرعة فيها بطيئة . آنئذ يجب أن يسددوا ضربتهم القاضية الى الأنظمة الفاسدة .

فمثلاً هناك نظام ديكتاتوري متسلط على بلد يمتلك احتياطياً كبيراً من البترول ويعيش برخاء اقتصادي واوضاعه هادئة ، والشعب راض بوضعه . في مثل هذه الظروف ، يكون تفجير الثورة والكفاح المسلح أشبه شيء بالانتحار .

والواجب يقتضي أن يربي الثوار عناصرهم ، ويعبئوا قواهم ويهيئوا وسائلهم المادية ، وينتظروا الفرصة المواتية . وحينما يفتح الشعب عيونه على مساوىء هذا النظام ، وتظهر الأزمات في البلد ، وتسوء العلاقات الدولية . آنئذ يفجرون ثورتهم ، وسيجد الشعب في هذه الثورة خلاصاً له من مشاكله ، فيلتف حولها وتكون فرص النجاح والانتصار كبيرة .

من هنا نفهم لماذا لم يثر الامام الحسن (عليه السلام) بينما ثار الأمام الحسين (عليه السلام) .

ولقد كان رسول الله (ص) يدرك اختلاف الظروف وأن الثورة لا تكون إلّا في ظرف خاص مؤات ، ولذلك استبق الزمان عندما قال عنهما :

« الحسن والحسين امامان إن قاما وإن قعدا » .

ولقد اثبت الواقع فيما بعد أن حكم معاو ية يختلف عن حكم يزيد ، وأن سخط الجماهير ضد يزيد كان أكبر من سخطهم ضد معاو ية ، لذلك وجد الامام الحسين (ع) الوقت مناسباً ، فقام بتفجير ثورته المباركة .

إن الثورة يجب أن تتحلى بالصبر بقدر ما تتحلى بالشجاعة . فالشجاعة والصبر وجهان لعملة واحدة في عملية الثورة .

من هذا المنطلق يجب على المخلصين من أبناء الأمة قبل أن يثوروا ، أن يعرفوا هذه الشروط لكي لا تذهب دماؤهم هدراً ، وتتعرض ثورتهم للفشل .

الفهرس

الفصل الأول
الأنتماء الأجتماعي

الفصل الثاني
محورية التقوى

الفصل الثالث
المجتمع الأسلامي والصراع الحضاري

الفصل الرابع
المجتمع الأسلامي والبعد الحضاري

الفصل الخامس
القيادة الرشيدة

الفصل السادس
حيوية المجتمع الأسلامي

الفصل السابع
الأسلام والثورة

\- من المقدمة -

كما التربة الصالحة تنبت الزرع المبارك، كذلك المجتمع الطيب ينمي المواهب الخيرة، ويربي السعي، ويعين الانسان على التقدم.

بينما المجتمع الخبيث لا يخرج نباته إلا نكداً، لأنه يميت القلب ويقتل الموهبة، ويحدد النشاط، ويحرف السعي عن أهدافه النبيلة.

وصلاح المجتمع انما هو بمكارم الأخلاق التي تطهر علاقات الناس ببعضهم، وتوجهها إلى الخير والفضيلة.

وهذا الكتاب الذي بين يديك، محاولة متواضعة في طريق توضيح مباديء المجتمع الاسلامي، وبيان خصائصه.